

جاك فرجيس

# جرائم الدولة

الكوميديا  
القضائية

عويطات



منتدى سور الأزبكية

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)

جاك فرجيس

# جرائم الدولة

## الكوميديا القضائية

تعريب  
حسين حيدر

عويدات للنشر والطباعة  
بيروت - لبنان

---

ص ب 428 - بيروت - لبنان - تلفون 616033 961 3 \_ فاكس 853757 961 1  
E-mail: editon\_oudat@hotmail.com

جميع حقوق الطبع العربية في العالم محفوظة لـ  
© دار عويدات للنشر والطباعة / بيروت - لبنان  
بموجب عقد حصري مع دار بلون الفرنسية  
© PLON 2004 pour le tome I  
Les Crimes d'Etat

ISBN 9953-28-055-X

لا يجوز نشر أي جزء أو نص من هذا الكتاب أو نقله أو اختزال ماعنه بأي طريقة  
من الطرق المتعددة إلا بإذن من الناشر ولا تعرض القائل للملاحقة القانونية.  
رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 9953-28

الطبعة الأولى 2004

## مدخل

حرية الدولة هي مخالفة القانون من قبل الدولة نفسها، بنسبها مبادئها، وتعطيل شرعيتها الخاصّة، والشكل الأنفسى لحرائمها في حرمان شعوب بكاملها ليس فقط من مكسب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أو من *habeas corpus*<sup>(1)</sup>، بل من مجرد حق العيش، فمطالبة الإنسان أسوأ من العبودية التي كانت هي قساوتها حاضرة لأحكام القانون الظلامي على الأقل، مهما بلغت شراسته. وكانت الإبادة العنصرية الاستعمارية جريمة عصرا بامتياز.

وإذا كان القرن التاسع عشر في الواقع، عصر إلغاء العبودية، فقد كان أيضاً مفارقاً لذلك، عصر توسيع الفتوحات الاستعمارية وخاصة في أفريقيا، حتى تقاسمها بين القوى الأوروبية في مؤتمر برلين عام 1885. واستناداً إلى العلم كانت البورجوازية المتقدمة توجه دمايتها أمام الرأي العام لثيرر التشويوهات المتحققة في المستعمرات باسم إعلانات حقوق الإنسان. وكانت أوروبا العقلانية تتلذذ بأن السود لم يملفوا درجة اكتمال الإنسان، لكي يمكن تطبيق حقوق الإنسان عليهم.

(1) قانون إنكليزي وضع عام 1679 يضمن الحرية الشخصية ويحمي ضد الاعتقالات التعسفة - المترجم.

#### درهم الدولة

كان كوفييه، في بحثه حول العالم الحيواني الصادر عام 1817، يقسم البشرية إلى سلالات عنصرية غير قابلة للتحويل. ويتركيزه على «الشفاه الغليظة وبروز الفكين والأذن إلى الأمام لدى الجنس الأسود»، كان يحلص إلى استنتاج دوتيه النهائية، باعتبار «القائل التي تنتمي إلى هذا النوع من الكائنات البشرية، تبقى دائماً في حالة همجية كاملة». وهكذا كان العلم حينذاك يوقر الدعم لحدس بعض المنظرين العنصريين، مثل طبيب ماشسترن، شارل وايت، الذي كان يشيد بالجنس الأبيض بهذه التمايز، في بحثه حول «حساب في التدريجات المنتظمة للإنسان» (An Account in Regular Gradations in Man) الصادر في العام 1799.

فيقول «أين ستكون، إذا لم يكن لدى الأوروبي هذا الرأس المقوّب بشهامة ليحتوي على هذا القدر من الدماغ؟... هذا الوجه العمودي، وهذا الأنف البارز، وهذه اللؤلؤ الدائرية البارزة؟ وهذا التنوع من الملامح، وهذه الثروة من التمايز؟ وهذه الحدود الوردية والشفاه المرجانية؟»

ولم يكن داروين، داروين الكبير نفسه، يتردد في الكلام عن «الأجسام المتوحشة»، مقدماً بدوره كعالة علمية لعنصريين متحمسين، مثل كنوكس، الطبيب العسكري السابق، في حروب أفريقيا، ومدير مدرسة علم التشريح في إيدمبورغ، والذي كان

#### مدخل

المبدأ المعصري مستند الوحيد لتفسير التاريخ. أما بالنسبة لكتوكس فلا وجود لجنس واحد أسود، بل لأجناس سوداء، ويقصد بذلك جميع الذين لا يتمتعون بصفة الجنس الأبيض الذي تشكل نخيته من «الجنس السكسوني». وكان يتساءل «هل يمكن للأجناس السوداء أن تصبح متحدة؟» وكان الجواب عنده «نعم» بالتأكيد. فما العمل إذن؟ إيسادتهم. ولن يتفاضل الجنس السكسوني عنهم أبداً - لن يختلط بهم - ولن يتركهم آمنين. ولا تقارن أكثر الحروب شراسة، ولا أكثر حملات نابوليون دموية، بالحرب التي تحدث بين أسلافنا في أميركا والأجناس السوداء، إنها كانت حرب إبادة، حيث كان قد رُسم رأس ميت على كل راية، وكان يجب ألا يموت الآخر دون إبطاء. وأنا لا ألومهم، وحتى لا يحق لي توبيخه الشدد لهم: فالإنسان يتصرف حسب دوافعه الجوانية، ويستخدم في بعض الأحيان، عقله لتعويه مبرراته أو إجماعاته. أما شأن اغراض ذوي البشرة النحاسية، فقد كتب: «سند الآن، طوبى صفحة مصير هذه الشعوب وذلك هو نتائج الطبيعة ولا يمكن وقفه» وبعد المجازر المرتكبة بحق الهولنديين والبرشمان، من قبل المستعمرين: «هل انتهينا منهم؟ افترض ذلك، ولن يكونوا بعد الآن أكثر من طرائف طبيعية، وقد سبق أن رُجِد منهم في إنكلترا، وكذلك في باريس، إذا لم أكن خاطئاً. بكلمة واحدة. إنهم اختفوا بسرعة عن وجه الأرض».

#### جرائم الدولة

وسيفتفون مثل جماعة التسمانيين الذين أدى «الانتصار الخاطف للأكلو - ساكون» إلى إثناء جنسهم.

وكان دارويس شاهداً على الإبادة العنصرية للهتود في الأرجنتين وجماعة التسمانيين، وأثارت سخطه، لكنه انتهى إلى التسليم بها في مراسلاته مع شارل ليكل. ففي إحدى رسائله لسنة 1859، وافق على أن «التقدم» يمكن أن يبرز «إبادة الأجناس الأقل معرفة وتفكيراً». وفي كتابه عن أصل الإنسان، الصادر في عام 1871، لم يتردّد في التنسّز فيمرحلة مستقبلية غير بعيدة فيأساً بالقرون، بقيام الأجناس البشرية المتمدنة بإبادة الأجناس المتوحشة في العالم بأسره. وكانت الإبادة في إطار العصر، عندما لم يقتبط هيربرت سنسر، في كتابه «الإحصاء الاجتماعي» الصادر في عام 1850، لكون القوى الدافعة لمشروع السعادة التامة، لم تأخذ في الاعتبار المعاناة الثانوية، في إبادة الفروع البشرية المعينة لطريقها... فلا بد من إزالة المعيق، سواء كان بشرياً أو متوحشاً.

ويعد اكتشاف ألفرد روسيل والاس لمبدأ الاصطفاء الطبيعي في أستراليا، طالب في محاضرة أمام مؤتمر جمعية الإنثروبولوجيا اللدنية في العام 1864، باعتبار زوال «المتوحشين» ظاهرة طبيعية بقوله: «يحل الأوروبيون محل المتوحشين، تماماً كما تغزو الأعشاب الأوروبية الرديئة أميركا الشمالية وأستراليا، وتحل محل



#### مدخل

الأنواع المحلية بالحيرة الملازمة لتنظيمها، وقدر أكبر من طاقة البقاء وإعادة الإنتاج.

وكلمة تقدم الرمز، كلما كان إثناء الأجناس المتدفقة مرورا، بل ممجداً. وفي محاضرة أخرى ألقى في العام 1866، أمام الجمعية ذاتها ميتر اللاهوتي المحترم، فريدريك فار، بين ثلاثة أجناس: المتوحشين والقرييين من التمدن والمتدسين.

واعتبر التمدنيس: الأريين واليهود، والقرييين من التمدن: الصينيين، والمتوحشين: ما تبقى. وهم دون ماضي ولا مستقبل، ومحكومون بالانقراض السريع والتمشي، ما يمكن أن يشكل مرحلة في المصير الأعلى للبشرية... كما أن جميع هذه الألوفا المؤلفة وذات العجيج لم ينجبوا رجلاً واحداً يتميز اسمه بأهمية معينة في تاريخ جيسنا البشري، وإذا ما عرقوا جميعاً غداً في طوفان هائل، فإنهم لن يتركوا وراءهم أي أثر لهم، إن لم تقل من بقاياهم العضوية. وإنني أدعوهم متوحشين وغير ممكن تمويضهم، لأنهم ظلوا بعيدين عن التأثير الحضارة التي تعمل لإزالتهم، كما يفعل الثلج بشكل مؤكد وواضح في ذرياته تحت تأثير أشعة الشمس... ولا مكان أو تمايش للظلمات والكسل والجهل القف مع مظاهر تقدم المعرفة والصناعة والأنوار.

#### جرائم الدولة

وكما كتب هنريتش فون ترينشك، في كتابه «السياسة» (politik) الصادر في العام 1898، بعد ثلاث عشرة سنة من مؤتمر برلين حول تقاسم أفريقيا: «لا يصح القانون الدولي أكثر من معايير رنانة إذا أريد تطبيقها على الشعوب البربرية. فمن أجل معاقبة قبيلة زنجية، لا بد من حرق قراها، ولا يطبق شيء دون اللجوء إلى مثل ذلك. وإذا طبقت الإمبراطورية الألمانية القانون الدولي، في حالات مماثلة، فلا يكون ذلك من العمل الإنساني أو من العدالة، بل من الضعف المعيب».

كان من الممكن ممارسة إبادة المتوحشين، دون اعتبار للقانون الدولي، ولا حتى لقوانين الرفق بالحيوان، وتبرير ذلك «العلم» وماركته من قبل بعض القطاعات الكنسية، والترحيب به من قبل الفلسفة الليبرالية للتقدم. وتأخذ القسوة مسارها الحر، لدى تنفيذها المأمورين. ويصف الكاهن السويدي، ويلهلم سجيولوم، في مذكراته، تحت عنوان «في ظل النخلة»، الصادر في العام 1907، مشهداً رآه بعينه في الكونغو. ويتعلق المشهد بمعاينة طفل بالسجن إثر غزوة معينة. وقد رُبط الطفل بالسفينة التي تحمل الكاهن، وفي المكان الأكثر عرضة للحرارة: «عالياً ما كان القبطان يلوح للطفل بالمسوط، ويجعله ينتظر طوال النهار قبل أن يتذوق طعمه. وفي آخر المطاف جاءت لحظة الألم، وحاولت أن أعد

#### منهل

الضربات، واعتقد أنها بلغت الستين تقريباً، فصلاً عن الركل بالقدم على الرأس والظهر. وكانت بسملة الرضا تبدو على وجه القبطان، وهو ينتظر إلى ثوب الصبي الرقيق والمطبخ بالدم. وكان الصبي ممدداً على سطح السفينة، ويتلوى كاللودة، وكلما مر القبطان أو أحد معاونيه قربه، يكون نصيبه ركلة قدم أو عدة ركلات... وكان عليّ أن أشهد ذلك بصمت. وفي العشاء تحدثوا عن مفاخرهم، في ما يحصن تعاملهم مع السود وتذكروا واحداً من نظرائهم الذي جلد ثلاثة من رجاله بقسوة شديدة حتى ماتوا من ذلك. واعتبر ذلك نوعاً من البطولة. وأضاف أحدهم: «إن أفضلهم غير حدير بأن يموت مثل خنزيرة».

وأخذت الوقائع طابعاً أكثر رياضية، لدى الأرستقراطية مثل ونستون تشرشل. فمعي سيرة حياته التي نشرت عام 1930 تحت عنوان «مغامراتي الشبابية»، يصف معركة «أم درمان» في السودان، التي شهدتها في العام 1898 كمراسل عسكري لصحيفة «The Morning Post» والتي استخدم فيها لأول مرة الرصاص اللامس. ولم يَر أبدأ مثيل لمعركة «أم درمان» كتب تشرشل، وتلك كانت الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة من هذه النزاعات المروعة التي عمل بهاها المدحش والمهيب الكثير لإضعاف البريق على الحرب وكانت هذه الحرب تطفح بالرغبات المشيرة. لكنها لم تكن الحرب الكبرى. ولم يكن أحد ينتظر أن يُقتل فيها . ولم

#### جرائم الدولة

يكن هناك إلا الوجه الرياضي للعبة مشرفة، بالنسبة لأكبر عدد من الذين يشتركون في هذه الحروب الصغيرة البريطانية.

تلك لعبة اخصى حلالها التسمانيون في المحيط الهادي، وجماعة الهيرييرو في أفريقيا. وفي العام 1803 نزل المستعمرون الأول في تسمانيا، الجزيرة الكبيرة المماثلة لإيرلند الواقعة إلى الشرق من أستراليا. وكان عددهم 44 منهم 24 سجيناً بناء على الحق العام، وثمانية جنود، وستة متطوعين وست نساء. وحصلوا في السنة اللاحقة على حق مطاردة السكان الأصليين وقتلهم، وجعلهم طعاماً لكلابهم. وقد نزل فيها داروين في العام 1836. وفي الخامس من شباط 1836، كتب يقول: «أعترف أن جميع هذه الآلام وجميع نتائجها ربما تكون قد نجمت عن السلوك المميع لبعض مواطنيها». وبعد ذلك بثلاث وعشرين سنة، عندما أصدر أصل الأنواع في العام 1859، لم يكن قد بقي في الجزيرة إلا سبع نساء مسنات، مسنات حدة لجهة مسألة إنجاب الأطفال. وبات الرجل الأخير المدعو، إياسي، في عام 1869، والمرأة الأخيرة المدعوة نزوجانينا في العام 1876. وحفظ حثمانها في متحف تاسمانيان، في مدينة هوبرت. بين ذنب من تاسمانيا وخلد ماتي.

في العام 1904، قرّر الألمان في جنوب غرب أفريقيا تصفية جماعة الهيرييرو، بعد أن استولوا على أراضيهم. ولأجل ذلك

#### ملف

دفعهم إلى صحراء كالا هاري ويري مؤرخ هيئة أركان الجنرال  
فون ترونا نهاية شمع الهيري كشاير ملهم وإن الحصار القاسي  
للمناطق الصحراوية، خلال عدة أشهر، أتم عملية التصفية وترن  
حشريات المحتضرين وأصوات الجنون الغاضب، في الصمت  
المطلق اللاتواني. وكان المقاب قد طبق. وكانت جماعة الهيريرو  
قد توقفت عن كونها شعباً مستقلاً. ولم يبق منها في الصحراء إلا  
ثمانون ألف هيكمل عظمي. وفي سنة 1912، أصدر رئيس  
المهاجرين، بول وورساخ، قصة هذه المأثرة في كتاب عنوانه،  
«الفكر الألماني في العالم»، يقول فيه: «لا يمكن لنظرية حب البشر،  
أن تقتنع أشخاصاً عقلاء بأن قباة قبيلة في الجنوب لأفريقي...»  
أكثر أهمية لمستقبل البشرية من توسع الأمم الأوروبية الكبيرة  
والجنس الأبيض بشكل عام.

وفي أوروبا الغربية، كان الرأي العام يؤيد هذه الطروحات  
بشكل واسع، وخاصة في الأوساط المتنوعة المحبة لإله التقدم  
ويضيف كل فريق إلى ذلك أشكالاً متنوعة. ففي العام 1905،  
خطرت في أذهان إداري هورت - كراميل، فكرة القيام بتفجير  
أحد المسحاء بالدينايت، احتفالاً بالعيد الجمهوري في الرابع عشر  
من تموز/يوليو... وقبل وصول هتلر إلى السلطة بشماني سنوات،  
في العام 1925، عرض ضمير الاشتراكية - الديمقراطية، ليون

#### جرائم الدولة

بلرم، مسألة أكثر إسانية في خطاب ألقاه في البرلمان: «إننا نقرّ حق وواجب الأجناس العليا بأن تجذب إليها س لم يصلوا إلى الدرجة الثقافية نفسها ودعوتها للأخذ بالخطوات التقديمية المتحفقة بفضل الجهود العلمية والصناعية. لقد كانت الطريق مفتوحة: فكان يمكن أن تُرتكب الجريمة أمام الرأي العام دون إثارة وحتى مع موافقه في العالب.

القسم الأول  
جرائم الدولة





## الفصل الأول

### أبيدوهم جميعاً !

#### فتح الكونغو أمام الحضارة

«كلستان أخريان من الزوايا الحادة كانتا حاليتين، وساقاهما مرفوعتان، كان أحدهما يسند ذقنه إلى ركبته، ويتأمل في الفراغ، بشكل رهيب لا يطاق وكان أخوه الطبعي يسد جبهته كما لو أنه منقلب بإعياء كبير وجولهما تثار أخرون في أوضاع مختلفة، وبدت قسما ت إعيائهم كأنها في لوحة وبائية أو نهشجية».

هذه السطور لم تكتب في عام 1945 من قبل مراسل عسكري عند فتح أبواب معسكر داشو أو دو بوشوالد، بل كتبها جيورف كونراد في العام 1898، وهذه «اللوحة الوبائية والتهشجية» هي لمعيد كونغوليين ماتوا من الإعياء على حافة الانطلاق الوبائي.

وتشكل الرواية المختصرة، «في قلب الظلمات»، نقصاً صارماً لاستعمار أفريقيا الاستوائية وكان لا بد لنظام العمل الإجباري والإرهاب الواسع في الكونغو البلجيكي، في السنوات الأخيرة من

#### جرائم الدولة

القرن التاسع عشر، أن يتؤدي في يوم أو آخر، إلى ظهور المتزاحمين في أوروبا ذاتها. ويكفي أن تحدد الفئة الأدنى من أفراد الجنس الأبيض في الوقت المناسب. لكن للمقارنة حدودها: فالمعسكرات النازية رمز السوء المطلق، وقد حوكم أعيان النظام وأدينوا، ولم يصبح عش النسر في برشتداد مزاراً، بينما توفي ليوپولد الثاني، المسؤول عن غياب نصف سكان الكونغو البلجيكي، في سريره وإلى حاسبه كاهن وعشيقته التي اشتراها وارتبطت به بالمال وتشهد الجنائن الزجاجة الغربية لاستنابات النياتات في لاينكن، وهي الغالية على قلبه، تراحم الحنود القادمة من العالم بأسره، في ربيع كل سنة، وتبدي إعجابها بتشكيلات الورد واليات المعطرة وغيرها من النياتات التي كان هذا الملك المحب لزراعة البساتين يستقدمها من الخارج. وفي إطار هذه الرغبة البديعة لا يفكر أحد في استدعاء أطراف خمسة إلى ثمانية ملايين من الصحايا (حيث يكتفي المؤرخون بهذه «الحصيلة لسنوات الرعب الليوبولدي» 1890-1910).

وفي العام 1904 تمردت جماعة الهيريرو في البلاد التي تشكل اليوم ناميبيا الحالية، وكانت حينذاك مستعمرة ألمانية. وعالج الجيرال لوشر مون ترونا المشكلة بإعطاء جيوشه الأمر بإبادتهم فمن أصل 80 ألفاً من الهيريرو تمت إبادة ستين ألفاً، ولم يبق منهم إلا عشرون ألفاً. ولم يخضع الجنرال لأية مساءلة قضائية

#### ليبروم جميعها

سل تلقى التهنة على فعاليتها. وقد كان ليوبولد سياتاً بتحويل مساحة أرضية تعادل ستة وسبعين مرة مساحة ملجيكا إلى معسكر عمل ضخيم في العام 1885. وكان الأول أصلح بكثير من محبي الخير في ليفينستون حيث أتيح له استئناف الخطاب الصالح خدمة لأعدائه، بعد أن أدرك منطق مسار التقدم في أفريقيا وبعده بعشرين سنة قتل الفرنسيون بدورهم 20 ألف أفريقي من أجل إقامة الخط الحديدي بين الكونغو والمحيط.

والصيفة الروائية لرحلة كونراد التي امتدت خمسة أشهر بين شهري أيار وأيلول/مايو وسبتمبر، من مدينة ماتادي إلى كينشاسا، كانت في أول الأمر مشياً على القدمين، على خط القطار السريع، ثم عبر الضباب البخاري، فقد بدأ ملك البلجيكي، في قلب الظلمات، هكذا، ولم أن صعوبة في إيجاد مكانب الشركة، كما يروي مارلو بطل الرواية، ذات مساء صباي على التايمز، لرفاق فريقه. وكانت المهمة أكبر ما تشهده المدينة، وتشكل طليعة إمبراطورية في ما وراء البحار، وتجمع كومات من الأموال عبر التجارة.

وتأتي الوسائل بعد ذلك، فخلال تقدمه البطيء داخل البلاد، يلقاها مارلو مداته: «دفعني رنة خفيفة ورائي لأدير الرأس. فرأيت ستة أشخاص سود يتقدمون بصعوبة واحداً وراء الآخر. وكانوا

#### جرائم الدولة

يسبرون بسطة وهي خط مستقيم، وكانت تتأرجح سلال صغيرة مليئة بالتراب على رؤوسهم، وتتوافق الربة مع مقاييس خطواتهم. وكنت أرى جميع أضلاعهم، وكانت مفاصل أطرافهم تشبه عقدات الحبال. وكان كل واحد يحمل عقداً حديدياً حول عنقه، وكانوا موقوفين بعضهم إلى بعض بسلسلة تتأرجح أجزائها بينهم مع وتأثر الربيع. وكانت صدورهم النحيفة تلهث معاً، وفتحات أنوفهم المشبعة نهتر، ونظراتهم تلتفت لتجمد نحو القمة..»

ونكمل الرحلة السياحية لقاء مع كورتز، الرئيس الأسطوري للمحطة التي كانت الشركة المتاهقة لمعرفة أسرارها قد كلفت مارلو بإيجادها في عمق الغابة إنه قاتل مجنون - هائج بحون ليس من بل من العالم الأبيض - وتحيط بكوجه رؤوس مقطوعة ومعلقة على أوتاد، ويسلمه في النهاية المعجزة المنتظرة بشكل تقرير يلخص جوهر العمل الاستثنائي ففي نظر مارلو تظهر حقيقة وجود الإنسان الأبيض في هذه المقاطعات شديدة الوضوح: «لقد شاركت أوروبا كلها بخلق كورتز، وتدرجياً علمت، كما كان محددًا، أن الجمعية العالمية لإلغاء العادات المتوحشة قد كلفتته بتحضير تقرير لإدارته المستقبلية. فضلاً عن ذلك كان قد كُتِبَ. فقد رأيتُه وقرأته... كان قطعة جميلة من الكتابة.. لكن فقرة الإفتتاح، في ضوء الأخبار اللاحقة، تصدمني الآن كأنها نذير شؤم. إنه يبدأ بحجة أن علينا نحن البيض، في منظار التطور الذي ملغناه،

#### ليدرهم جميعاً

الظهور بالضرورة (للمتوحشين) كطفقة من كائنات فوق الطبيعة – في فهمنا أنهم يتصورون القوة إلهة أسطورية. ويمكننا عن طريق التمريس البسيط لإرادتنا ممارسة قدرة مباركة دون حدود في الواقع العملي. من هذه النقطة كان ينطلق ويأخذني معه. فكانت خاتمة الكلام رائعة، رغم أنه من الصعب تذكرها كما نظنون كانت تعطي فكرة غريبة هي لا نهائيتها وموجهة بعمل حيري جليل، وتصيني يوحضرات حماسية. وكانت فيها قدرة غير محدودة من اللاعة بكلمات نبيلة ومشيرة للحميّة ولم يكن فيها إنباء عملي، يقطع المسار السحري للجمل، إلا أن إشارة معينة في أسفل الصفحة الأخيرة هي كتابة مرتجفة لا يمكن اعتبارها عرضاً لأسلوب معين. إنها في غاية البساطة، وفي نهاية هذا النداء المؤثر في كل المشاعر الإثارة التي يجعلها تلتهب أمامكم منيرة ومرعبة كالبرق في سماء صافية؛ فأبدوا جميع هؤلاء المتوحشين.

لقد استلزم إرادة نصف سكان الكونمو اللجيكي فترة تراوحت بين عشرين وخمسين سنة. وجمعت هذه الإرادة العصرية عن الالتقاء والجمع بين معمارين. وكان أحدهما ملكاً قاسياً ومصلحاً جنون المنظمة ومحياً للمال، وكان الآخر خجولاً من أصله المتدني ومهووساً بالمبالغة ومجرداً من الضمير، ومضطرباً بالاتصالات المادية مع الجنس الآخر وعندما ورت الأول من

#### حزب الدولة

والده لقب ملك البلجيكيين في العام 1865، كان الثاني لا يزال مراسلاً مغموراً في لندن لصحيفة «نيويورك هيرالد».

أما جون رولاندر فقد ولد عام 1841 في بلاد العالم من أب مجهول، وتركته أمه في رعاية أعمامه الذين وضعوه في رعاية مؤسسة خيرية، هذه النشأة لا يمكن نسيانها. وفي السابعة عشرة من عمره هاجر إلى الولايات المتحدة، وأخذ الحسية الأميركية وغتير اسمه ليصبح هنري مورتنون ستانلي، وشارك في حرب الانفصال متقلداً من معسكر إلى آخر في حياة غير عائلية ثم التحق بالحروب الهندية لصحافي ماحور قبل أن يستخدمه جيمس غوردون، صاحب «نيويورك هيرالد» في تغطية حملة تأديبية إنكليزية ضد الإمبراطور أبيسيني. وبعد عدة سنوات، في العام 1871، طلب منه غوردون نفسه أن يطلق على رأس حملة قوية من ستة وخمسين رجلاً بحثاً عن ليفنغستون الرائد الإنكليزي المشهور الذي فقد في وسط أفريقيا الاستوائية منذ العام 1866 وبعد ثمانية أشهر تحقق اللقاء، «الدكتور ليفنغستون - أما أوكند؟»: حالت العبارة حول العالم. هل نطق هنري مورتنون ستانلي هذه الكلمات؟ لا يستطيع أحد أن يشهد بذلك: كان الأبيضان الآخران في الحملة قد ماتا في المغامرة، وكان لدى ليفنغستون الذوق السليم ليستخدمه في مهماته قبل أن يتمكن من العودة إلى أوروبا.

ليبريم جميعاً/

وكانت لسنغده المدلل الذي سارعت الملكة فيكتوريا لتقديم له ساعة ذهبية، كل الحرية لتزيين أسطوره.

حينذاك أصبح ستانلي الاختصاصي الكبير في أفريقيا السوداء، وعلى عكس لينينستون الذي كان يمثل الصيغة الأبوية والتنشيرية الإنجيلية للاستعمار، ظهر في المقالات التي كتبت عنه في الصحافة أو في أكثر القصص رواجاً التي تنشرها بعد كل واحدة من الحملات الاستعمارية الحثمة والشرسة لعنصرية برافة. ففي كانون الأول/ديسمبر 1890، كتب في «التايمز»: «تعلمت أن ضبط النفس أكثر ضرورة من بارود المدفع في العلاقات العامة مع السكان الأصليين، وأن امتلاكاً ثابتاً لهذه الطبيعة هي وجه تحديثات رحلة أفريقية، لا يمكنه تجاوز عاطفة قلبية محسوسة حقاً حيالهم، ولا يجب اعتبارهم مثل «حيوانات متوحشة» بل كأطفال».

كان يتحدث عن حيرة. ففي العام 1887 كان يقود عبر الكونغو حملة مخصصة لمساعدة أمين باشا، حاكم الولاية الجنوبية من السودان الذي كان حينذاك تحت سلطة مصرية – إنكليزية، ويتعرض لتمرّد مسلمين أصوليين. وكتب حينذاك أن الرشاش مكسيم والست مئة طلقة في الدققة ويقدم خدمة ثمينة لمساعدة الشمدن على قهر الهمجية. أما طريقته في معاملة «الأطفال»، يومية سير، فإنها تؤكد: «كان مهماً جداً أن تبقى قابلاً

#### حريم الدولة

في الدغل وتراقب السكان الأصليين يتفرغون باطمئنان لعملهم اليومي. فكانت بعض النساء يصنعن طحين المور بهرس الموز المجفف. وكان يمكننا رؤية تيان وفتيات يركضون ويفنون.. وفتحت الصيد بالتصويب إلى رجل ممثليء الصدر. فسقط كالحجر... وعلى الفور كُتِسَتْ رشفة القرية.. هذا عن القاتل الذي قام ليوبولد الثاني في العام 1878 باستحقاق خدماته من أجل تحقيق الحلم الذي لاحقه منذ شبابه: امتلاك مستعمرته الشخصية.

فبعد أن تزوج، وهو في الثالثة عشر من عمره، وكان ذلك في العام 1853، من الأرشيدوقة ماري هرييت المنسبة إلى آل هابسبورغ، لم يكن لدى الملك المستقبلي للبلجيكيين إلا هوابتان؛ السال وتزيين أبنية وأملاك العرش (صاعف سبع مرات مساحة الأملاك الملكية في مدينة لايبكن «فرسايد»). ولم يهجم ما تبقى. لا زوجته، ضد زواجهما، ولا حتى بعد موت ابهما، ولا الناث اللواتي رزقاهن واللواتي لم يتوقف حتى موته عن نزاع ملكية حصتهن من الإرث. ورغم أن بلجيكا كانت أصغر من طموحاته، إلا أن ذلك لم يمنعه من استنزاف أموال الدولة كلها أمكنته ذلك.

وقبل توليه العرش، كان قد زار بلاد البلقان والقسطنطينية ومصر، حيث حاول دون جدوى شراء بحر دلتا النيل في مشروع لتوحيدها بفضل تصريف المياه وامتلاك الأراضي المسترجعة،



#### اليوم جميعها/

والمستعمرات الإنكليزية في سيلان والهند وبنورما وبلاد الهند الشرقية. ولم يكن في هذه السلسلة من الرحلات أية رغبة في الاطلاع بل هاجس وحيد اختيار وانتظام مستعمرته المحتملة مستقبلاً. وحلال إقامته في إشبيلية، دقق في وثائق رحلات المغامرين إلى بلدان الهند الشرقية، فكشف له كتاب أحد المحامين الإنكليز فضائل العمل الإجباري. وكان عليه أن يجد الأرض التي بإمكانه أن يقوم عليها بإجراءاته العملية.

في أواسط سبعينات القرن التاسع عشر، كانت تقع أوسع الأراضي غير المكتشفة وبالتالي غير المستعمرة - وغير المأهولة باستعمال عبارة ستانلي -- في قلب أفريقيا الاستوائية، بين زنجبار في الشرق ومصب نهر الكونغو في الغرب.

وعس والده ليوبولد الذي لم يكن يحبه أبداً يقول، «ذلك اليوم، كنت أقرب ثعلباً كان يريد اجتياز نهر دون أن يراه أحد». بدأ بتفطيس إحدى قوائمته في الماء من أحل سير العمق، ثم اجتاز ببطء شديد مع الإقراط في الاحتياطات. هكذا كان تصرف ليوبولد. وهكذا في الواقع يتصرف ليوبولد في وجه وتحت سمع ويصر صافيه من فرنسا وإسبانيا وإنكلترا وقوى استعمارية أخرى لتسلم مستعمرته، المستعمرة الوحيدة الخاصة التي وجدت.

#### جرائم الدولة

في الخامس من آب/أغسطس عام 1877، وصل ستانلي إلى  
بوسا، متطوعاً من زنجبار قبل ستين ونصف: فاجتاز القارة من  
الشرق والغرب. ورسم ملحمة في أولى أحمل قصصه رواجاً  
Through the Dark Continent. وفي كانون الثاني/يناير من عام  
1878 اتصل به ليوبولد بواسطة الجنرال هنري شيلتن ستانفورد،  
ممثل الولايات المتحدة في بلجيكا. وفي العاشر من حزيران/يونيو  
1878، تحقق الأمر. فقام ليوبولد باستخدام ستانلي لمدة خمس  
سنوات، والتزم بتوفير المال لحملة جديدة بهدف بناء خط  
حديد حديد بنجيب منخفضات النهر التي تجعل مجرى نهر الكونغو  
غير صالح لسير القطار المنفصلة عن المراكب البخارية. وكان الفوز  
المشروع يمر عبر الجمعية الدولية للكونغو باعتبارها الغطاء  
الخيري لفرع من جمعية الصليب الأحمر، بهدف أداء خدمات  
دائمة ومستجدة من أجل قضية التقدم. وتولى ستانلي الاستيلاء  
على الأراضي المعنية من المحتلين السابقين بالتوقيع باسم الملك  
ولصالح جمعية معاهدات السلام مع شيوخ السكان الأصليين

في العام 1998، تساءل آدم هوشيل في كتابه وأشباح الملك  
ليوبولد قاتلاً: هل كان لدى شيجي نفوسية ومافيا مثلاً أدنى  
فكرة عن محتوى العقد الذي وقَّعه في الأول من نيسان/أبريل عام  
1884؟ مقابل قطعة قماش شهرياً لكل من الشيوخ الموقَّعين،  
إضافة إلى القطة المسلمة باليد، وتمهدا بالتخلي بحرية وبرضاهما

#### ليودهم جميعاً/

القائمي، باسمهما ويأسم ورثتهما وجميع من سيخلفهما... للجمعية المزعومة وعن جميع الحقوق السيادية والحكومية على جميع الأراضي... وبالمساعدة بالعمل وغيرهم، في جميع الأعمال والتحسينات والحملات التي تقوم بها الجمعية المزعومة، في أي وقت وفي أية منطقة من هذه الأراضي، وتصبح جميع الطرقات والممرات المائية الموجودة في هذا البلد، وحقوق رسم المرور عليها، وجميع حقوق الصيد البري والمائي والاستثمارات المعدنية والحرجية، تصبح كلها ملكية مطلقة للجمعية المزعومة.

لكن ليوبولد لم يكن الوحيد المهتم بأفريقيا الوسطى فبينما كان ستانلي ينجح في الإعداد لمشروعه، كان الفرنسي سافورنيان يعقد من جهته في براراً اتفاقاً يسمح بإقامة مستعمرة فرنسية على الشاطئ الشمالي للكونغو. فضلاً عن ذلك، فإن إنكلترا التي أصبحت موحودة في أفريقيا كانت تمثل المنافس الكامن كما كانت ألمانيا تريد أخذ موقع لها. وأصبح ملحقاً للملك البلجيكي أن يحصل على الاعتراف الدبلوماسي بمستعمرة. ففي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1883، أودع رسالة لدى رئيس الولايات المتحدة بواسطة الجنرال ستانفورد كيب فيها: وإن جميع الأراضي المتنازلة عنها لنا من قبل الشيجين الحاكمين قد جرى تحويلها من قبلنا إلى دولتين مستقلتين...، وطلب منها الاعلان الرسمي من حكومة الولايات المتحدة أن تتعامل، كعلم

#### جرائم الدولة

صديق، مع الراية لوزقاء ذي الجمعة الذهبية التي ترفرف منذ الآن على سبع عشرة أمة، وعلى الكثير من الأراضي وعلى سبع بواخر عاملة في الفعل الحضاري للجمعية، وعلى عدد من السكان يصل إلى عدة ملايين من الناس».

بعد افتتاح شينتر آرثر بترعية ما نقله ستانفورد من مطالب ليوبولد، أعلن في رسالته السنوية إلى الكونغرس: «إن الوادي العني والكثير السكان في الكونغو، قد جرى افتتاحه من قبل جمعية تدعى الجمعية الدولية الأفريقية، وكان يرأسها الملك البلجيكي». وجرى التنازل عن أراضي واسعة للجمعية من قبل شيوخ السكان الأصليين، وشُقت الطرق، ووضعت مراكز تجارية على سطح الماء في النهر، وأقيمت عناصر أساسية للدولة، «تحت راية حرية التجارة ومنع نخاعة الرقيق. وكانت أهداف الجمعية خيرية». وفي 22 نيسان/أبريل 1884 أصدر أمين سر الدولة فرانسوازون البيان التالي: «إن حكومة الولايات المتحدة تعلن أنها تدرك وتؤيد الأهداف الإنسانية والخيرية للجمعية الدولية للكونغو التي تدير مصالح الدول الحرة العاملة هناك، وتوجه الأوامر لجنود الولايات المتحدة، في المجالين البري والبحري للاعتراف بعلم الجمعية الدولية الأفريقية على أنها عائدة لحكومة صديقه».

كما عقد ليوبولد اتفاقاً مع فرنسا التي كانت تخشى ألا تؤدي الصعوبات المالية المرتبطة ببناء الخط الحديدي المحيط

#### لهمهم جميعاً

بمتحدرات السهر لبيع الأراضي إلى إنكلترا وحصلت باريس، مقابل الاعتراف بالكونغو على حق تفضيلي في حال الإنفلاس. ومع بسمارك كان الأمر أقل سهولة. وجرت المفاوضات بينه وبين ستانلي في صيف عام 1884، في أوستند. واقتنع بسمارك بعد تأمله في أوراق الكونغو المحتل من قبل ليوبولد، بأنه من الأفضل أن يكون الكونغو تابعاً لبلجيكا ومفتوحاً للتجار الألمان. من أن يكون مع فرنسا أو البرتغال أو بشكل أسوأ مع إنكلترا، وكما فعل كونغرس الولايات المتحدة، قبل المستشار الألماني الاعتراف بالكونغو مقابل وعد بحرية التجارة. وأقيم بالتالي مؤتمر ديلوماسيا في برلين حصصاً لتسوية المسألة الأفريقية. وكان الأوروبيون قد اعتادوا ألا يعتمدوا إلا على الشاطئ الأفريقي، وكان الفرنسيون والبرتغاليون يكتفون بالأراضي الواقعة قرب مصب نهر الكونغو، بينما حصل ليوبولد على مرفأ ماتادي والأراضي الواسعة المخصصة لبناء الخط الحديدي. واستهى المؤتمر في شاطئ/فبراير 1885: وتخلّى للجمعية الدولية للكونغو برئاسة ليوبولد الثاني، عن أراضي تمثل 1/13 من القارة الأفريقية، أي ما يعادل 76 مرة مساحة بلجيكا، وفي مرسوم صدر في 29 أيار/مايو 1885، سُمّي ليوبولد هذه الأراضي دولة الكونغو المستقلة، وخصص لها علماً أزرق مع نجمة ذهبية وبعد ذلك نشيداً وطنياً عنوانه «بحر المستقبل».

#### حرائم الدولة

ويسقى جنّي الأرباح من هذه المستعمرة الرائدة وكان إنشاء  
البنى التحتية الضروري للخط الحديدي على محيط 350 كلم من  
الحط السريع في الكونغو السفلي قد استهلك مبالغ ضخمة،  
وإضافة لذلك كلف آلاف الموتى من السكان الأصليين. وترم  
مصرف بنك روتشيلد من توفير اعتمادات جديدة، كما رفض  
القائمان تسراء أسهم جديدة، واتضح أن حق إقراض الدولة  
البلجيكية هو أيضاً مستحيل لأن ليوبولد اضطر للتعهد أمام برلمانه  
بعدم إرهاب المالية البلجيكية وللمعالجة المشكلة وجّه نداء  
للمشاعر الإنسانية لمواطنيه وللنخب الغربية.

ويساء على حث من ليوبولد، عقد في بروكسل. في تشرين  
الثاني/نوفمبر 1889، مؤتمر للقرى الكبرى ضد نظام الرق، فأتى له  
تقديم بياضه. وجرى تلميع الخدمات التي يمكن أن توفرها  
منشأته في الكونغو لقضية معاداة الرق، وحصل بالمقابل على  
السماح بجباية رسوم الاستيراد وازدحاماً بذلك حداً للالتزامات  
المفجرة في مؤتمر برلين. وفي الوقت نفسه قام بحملة شديدة  
لصالح العلاقات العامة، توثبت بتقديم ستانلي إلى حفل استقبال  
واسع أقيم في أنية لا يكتفى لاستنات التبانة، في الذكرى الخامسة  
والعشرين لاحتلاله العرش.

في هذا الوقت الذي كسب فيه ليوبولد وسائل الاستفادة من  
مستعمرة، كان قد استقرّ فيها أربع مئة وثلاثون شخصاً من البيض.

#### ألبانهم حبيبا

تجار ومبشرون وجنود. وعهدت إدارة البلد لحاكم عام مقبم في بوسا عاصمة الدولة وكانت صلاحياته محدودة، وفي الواقع كان مركز القرار الحقيقي في بروكسل في المصير الملكي، فالإداريون من اختيار ليوبولد وعلى رأسهم سلطة مؤلفة من بضعة أعضاء من التابعين للملك البلجيكي. والإدارة المحلية بين يدي حكام الولايات ورؤساء الأقاليم والمناطق. وكانت الأراضي قد سلمت بالإيجار لشركات خاصة، يعتبر ليوبولد أكبر مساهم فيها. ويقوم الإداريون المحليون بالنفعية على نظام من السلب المخطط لموارد البلد. من العاص في يادى الأمر، ثم من المطاط اعتباراً من العام 1890. إبهم رجال عاديون وعدوا بحياة متوسطة في أوروبا ووجدوا في أفريقيا ما يتبع حلمهم بالسلطة وعظمتهم للربح. فأحيطوا بالحريم وحملوا السياط المصنوعة من جلد فرس النهر التي تشج صربانها اللحم، وحيث يحرى القتل المردود، كما يجري من أجل التسلية، والموزع الأول هو الرائد ليون روم، أحد الذين أوحوا إلى كونراد بشخصية كورنر. وهو موظف صغير في أحد المكاتب، وجندي سابق الترم متطوعاً في الجيش البلجيكي، وجاء إلى الكونغو وهو في الخامسة والعشرين من عمره. وما كاد يصل إلى البلاد حتى عين رئيساً لقضاء مائادي، لم يكن يحصل نزاحم في هذه المناطق حيث نتاجها الملايا، ومرض النوم والجدي وأمراض أخرى مستوطنة. وفيما بعد أصبح يقب القوة

#### جرائم الدولة

العامّة، وضمن له ذلك راتباً مضاعفاً لما كان يقيضه فيما لو عين عقيداً في بلجيكا. هذا ما نقله راحث في العام 1895: «لقد ألقي القيص على عدد كبير من النساء والأطفال، وحمل واحد وعشرون رأساً إلى المساقط. واستخدمها الرائد ليون روم أوسمة حول روصة للزهور أمام منزله. ولقي روم نفسه تمييزاً من جمعية علم الحشرات البلجيكية التي استقبلته في أحضانها. ألم يكن قد اعتاد، في رحلاته على جلب نماذج من الفراشات المتطفلة في الغابة الاستوائية؟»

وأخسر من هؤلاء المغامرين، رئيس منطقة ذي شمال ستانلي بول، وكان يدعى لنيون فايسر. وحين كان يُسأل، كيف يتصرف عندما كان يرفض القرويون أن يجلسوا له ما يقدمه غذاء للقوة العامّة، يجيب: «أشن للحرب ضدهم. ويكفي مثال واحد: قطع منة رأس. وبعد ذلك تكثر المواد الترموية في المركز. بالإجمال كان هدفي إنسانياً. صحيح أنني قضيت على حياة منة شخص، لكنني أُنحت العيش لخمسة منة آخرين». ومنذ 1888، كان تحت تصرف وكلاء الدولة قوة مسلحة تدعى القوة العامّة وكانت مؤلفة من أفرقة مجندين رعباً عنهم، من العبيد والمحوريين، مقابل تمهيد لسبع سنوات وكان هؤلاء «المحتدون» قليلاً الرضى بحيث يقتضي ذلك ربط المراهقين بالسلاسل وإرسالهم إلى أبعد ما يمكن عن قراهم لردعهم عن التفكير بالهرب. وقد نشر الصحافي



#### المدرسة الجديدة

الإنكليزي، إدسون ديسن موريل، في عام 1903 مذكورة سرية مخصصة لموظفي الدولة، حيث حددت فيها مكافآت تطوع العسكر في القوة العامة. وتسمون فرنكاً لكل رجل فوي العزم، وفي صحة جيدة، وصالح للخدمة العسكرية، وذو قامة أعلى من 1,55م؛ و65 فرنكاً لكل يافع يزيد طوله عن 1,35م، و15 فرنكاً لكل صبي، ويجب ألا تقل قامته عن 1,20م، ويجب أن يكون قوياً بالقدر الكافي لتحمل مناعب السفر.

في عام 1900، انتشرت القوة العامة في 183 مركزاً. وفي عام 1910، كانت تعد 19 ألف رجل موزعين على أكثر من 300 مركز. وبمسئمتها أداة لتقسيم الأمن والرعب، فهي تلعب دوراً أساسياً في نظام العمل الإجباري الذي وضعه ليوبولد. وقد تمّ جمع حالات التمرد القبلية التي استمر بعضها عدة سنوات، بواسطة حملات تركت وراءها المئات من الموتى والقرى المدمرة. وقد أظهر إدغار كاسينيوس، الوكيل التجاري للشركة التجارية في الكونغو، لوحة مطاردة للحملة التأديبية التي قادها قرب الحدود الشمالية - الغربية: «لقد كابدنا سبعة أسابيع من السير المتعب، وقتلنا أكثر من تسع مئة من السكان الأصليين رجالاً ونساء وأطفالاً. وهذه إحدى الشهادات النادرة لإحدى ضحايا هذه الأرتال المحمومة، إنها امرأة تدعى إيلاتمة: تقدم الجنود فحماً وهم يصيحون ويهددون نانيدو [شيخ القرية] ببنادقهم، وسارعوا إلى البيوت وأخرجوا منها

#### جرائم قتل

الأشخاص بالقوة... وسحبونا على الطريق، وربطونا سمعنا بحال حول العتق، لأجل منعنا من الهرب... وضربنا الجنود بالقضبان الحديدية لئلا يفرحهم وأرغمونا على السير إلى معسكر كيانغا الذي أعطى الأمر بربط النساء بشكل منفصل، كل عشرة بحبل، والرجال بالطريقة نفسها... على هذه الصورة طلب منا أن نسير بسرعة، وفي اليوم السادس، وسبب عدم تناول الطعام، والسير بلا توقف، واليوم على الأعشاب الرطبة، أصبنا بالإعياء، ولم يعد روجي الذي كان يسير ورامنا مع العنزة، قادراً على الوقوف. عندئذ جلس على حافة الطريق ورفض متابعة السير. وتعرض للضرب من قبل الجنود، لكنه أصرّ على رفضه، فضربه أحدهم على رأسه بطرف بندقيته، فسقط على الأرض، وأمسك أحد الجنود بالعنزة، في حين قام إثنان آخران أو ثلاثة بقطعته بالسكاكين الكبيرة التي تركب في سنادقهم. ورأيت الدم يتدفق، ثم لم أعد أراه، لأننا كنا قد اجتزنا رأس هضبة وكان هو قد اختفى عن ناظري. لقد قتل الكثيرون من الرجال بالطريقة نفسها، والكثيرون من الأطفال الذين أُلقي بهم بين الأعشاب ليموتوا. وبعد أن سرنا طوال عشرة أيام وصلنا إلى ماء النهر... وتعلمنا بقارب خفيف إلى مدينة الرجال البيض.

كما صرح ليونولد لصحافي أميركي في عام 1906: «عندما نتعامل مع جنس من أكلة لحوم البشر منذ ألف سنين، يكون من الضروري استخدام وسائل تهز بشكل أفضل كسلهم وتجعلهم

#### ليودهم جميعاً!

يدركون الوجه السليم للعمل». وهل أدرك ما يقرب من الخمسين ألف حمال سنوياً الذين نقلوا بكل مشقة على ظهورهم من ماتادي إلى ستانلي بول على امتداد 380 كلم، حمولات العاج والكافور وشوك، وقضبان الخط الحديدي والتقطع المفككة للمراكب التجارية «الوجه السليم للعمل»؟ وقد قام عضو في مجلس الشيوخ البلجيكي بزيارة إلى الكونغو ووصف هؤلاء الحمالين كما يلي. وراضحاً تحت العبء المضاعف بالتعب وعدم كفاية الغذاء المصنوع من قشرة أرز مع السمك المجفف التزن، والنمائل المرورية، والدواب ذوات العرقوب الهزيل والسمات المتقلصة والعيون المستديرة والحامدة هي هم التوازن والغذاء. هكذا يذهبون ويمودون بالأكوف. والدولة العسكرية مسيطرة عليهم بقوتها العامة التي لا تقاوم كأنهم عبيد عدد شيوشهم... على شاكلة حشرات تتدرج في تطوافها من كل حذب وصوب، وتتجبر على امتداد الطريق، وفي حال انتهاء الطريق ينفجرون في قراهم من الإعياء.

وكان ليوبولد الثاني يظهر اهتماماً فريداً جداً تجاه الأطفال. أنشأ مؤيد لفتح ثلاث مستعمرات للأطفال، كتب إلى الحاكم العام، في 27 نيسان/إبريل 1890. واحدة عسكرية بشكل خاص في الكونغو الأعلى نحو خط الاستواء، مع بعض رجال الدين من أجل التنقيص الديني إلى جانب الفرع المهني. وأخرى في ليوبولدفيل تحت رحال الدين، مع عسكري لأجل التدريب العسكري. وثالثة

#### حريم الدولة

في برما مماثلة لمستعمرة كويبولدليل... فيجب بالتالي ناء ثلاث نكسات كبيرة، لتأوي كل منها ألفاً وخمسة مئة ولده. وبعد بضعة أسابيع من تسليم الرسالة الملكية، ألقت القوة العامة القبض على الأطفال الناجين من المجازر، وأرسلتهم إلى مراكز الإعداد بفسريات السباط كحدم مطيعين ومستعدين لتقل إخوتهم باللون. ويصلون إلى آخر الرحلة بعد أن يموت أكثر من نصفهم في الطريق. لا يهم؟ فالمصدر لا ينسب، وفيما بعد، يمتد الفعل التمديني إلى الفتيات في نفس شروط حالة الأسر والحراسة. «الكثيرات من الفتيات الصغيرات كن عند وصولهن هزلات جدًا، كبت الأم العليا لمستعمرة أنشوية، بحيث لم تستطع الأخوات الشوشات الاحتفاظ بهن، لكن جميعهن كن سعيدات بتلقي المعمودية القديسة، إنهن ملائكة صغيرات يصلين إلى السماء من أحلى ملكنا الجليل».

أما نظام «الملك الجليل» فإنه برع به الواسع، وعمله الإكراهي، وعمليات النفي، وخطف الأولاد، والمروض مع تجارة الصااح، فإنه سببتحول إلى الإنتاج الكامل مع فورة وواج الكاوتشوك. وفي عام 1890 اخترعت مؤسسة دنلوب وسوفت الدواليب القابلة للفتح، ولم تنوَق أسرار الكاوتشوك عن الصعود. ومن سوء حظ الكونوليين، أن عانيتهم احتوت على كثر غير مستثمر: شجرة معرشة من نوع لاندولفيا المختزنة للصمغ الثمين

#### ليوم جميعاً

وليس جنسي الكاثوليك عملًا مريحاً: فلا يُدّعى من حرق الشجرة المعرضة دون قطعها، لأن القطع يمينها، ويُؤخذ منها التسخ على علو عشرة أو عشرين متراً في بعض الأحيان، كما لا بد من لفه على فخذي القاطف له لكي يتجمد ويفقد من التصاقه. ويظهر ذلك بالتالي، تبعاً لنظرة الإدارة الشخصية، صعوبة كبيرة: لا بد أن يتوغل ألوف القاطفين في الغابة من أجل إبعاد الشجرة المعرضة، ويستطيعون بعد ذلك الهروب ولما كان من غير الممكن مراقبتهم باستمرار من قبل القوة العامة، فكيف الاطمئنان إلى أنهم لا يهربون؟

الحل مفصل في فصل أسئلة عملية في كتاب (موجر المسافرين والمقيم في الكونغو) الذي يطبع من قبل دوائر الدولة ويزود به رئيس كل مركز ويدعو هذا الكتاب الذي وضع جزء منه بناء على تعليمات من ليون روم، إلى أخذ النساء والأولاد رهائن لإرغام الرجال على العودة مع حصصهم من التسخ. وفي كل مركز أقام سجن يُمنقل فيه البؤساء وهم مقيدون بالسلاسل، ويحصلون على تغذية سيئة ويُعاملون بالسياسة الأدنى حجة، وفضلاً عن ذلك كانوا يخضعون أثناء الجباية لزوات جنود القوة العامة، أو لفجور شيخ المركز نفسه «لقد أُعطيَت مثلاً، كتب نائب القنصل البريطاني في عام 1899، ولما يمارس في أوبنغي، كانت طريقة الضابط تتم بمجيئه إلى القرية بالفقار، وكان مجيئه يدفع

#### جرائم الدولة

السكان دائماً للانتفاض، ويكون الجنود قد نزلوا وبدأوا عمليات السلب، فبدأ حذون الحبوب والدجاج إلخ..، والبيوت وبعد ذلك يهاجمون السكان الأصليين حتى يتوصلوا إلى اختطاف نسائهم، وكانت النساء يؤخذن بصفه زهائن طالما أن شيخ المنطقة لم يكن قد جلب النورن المطلوب من الكاونتشوك. وبعد جلب الكاونتشوك، يعاد بيع النساء إلى مالكيهس، كل واحدة مقابل عزتيه، ويتابع رئيس المنطقة من قرية إلى أخرى، حتى يتم جمع الكمية المطلوبة من الكاونتشوك.

فصلاً عن فعالية هذه الطريقة في عملية الجمع ذاتها، فإن لها مبرر أخرى: إنها تسمح للقوة العامة أو لميليشيا الشركات بالعيش في البلاد. وكانت كلمة العملية محدودة بمكانة المحيط الأبيض. أما أجرة قاطني الكاونتشوك فكانت تعطى بصفة صفائح نحاسية تدعى ميتاكوس، وكانت العملة الوحيدة المسموح بها بالنسبة للأفارقة. واستناداً إلى حسابات سنة 1897 كان سعر الكلفة لكلغ الكاونتشوك يعادل 1,35 فرنك، بما في ذلك كلفة النقل. أما سعر المسح في سوق أنغبر، مركز الشركة، فكان يتراوح حول 10 فرنكات. وبين عامي 1890 و1904 تضاعفت الأرباح المتحققة في استثمار الكاونتشوك الكونغولي بـ 96 مرة، مثل هذه الأرباح لم تكن تكفي ليوبولد لأنه وظف في عام 1895 حوالي 100 مليون

#### ليوديمر جيمنا

فرنك بلحكي (460 مليون أورو) بسدات لأجل طويل، لأنه كان متأكداً بأنه لن يتوجب عليه تسديدها أبداً.

لكن ما كان يحصل أن قري كانت تتمرّد. فكانت تطبق حينذاك استراتيجية أخرى. وفي حال حصول ذلك بمساعدة من «الحراس» المسلحين المرتططين بالشركات، كان رجال القوة العامة يأتون ويحرقون الببلدة المستردة، ويقتلون أباءها فتكون عبرة لغيرها. ولما كان الضباط البيض يرتابون في القوة الإضافية، فإنهم كانوا يطلبون منهم أن يحملوا من الأيدي اليمنى المقطوعة أو الرؤوس بمقدار ما أطلقوا من الخرطوش. ومن الكونغو نفسه كانت ترتفع أصوات تستنكر هذه الهمجية: تلك أصوات العشرين. من كان يستطيع سماعها؟ كان يجب أن تقوم القوة العامة بقتل تاجر أبيض أو تاجر عاج إيرلندي لكي تنفعل الصحافة الإنكليزية. وكان ليوبولد يسكت هذه الضجة المكثرة بإرسال لجنة تفحص من ستة مشيرين بلجيكيين، ثلاثة كاثوليك وثلاثة بروتستانت إلى أرض الحدث، ولا نجد اللجنة شيئاً، ولجب معين: لا يقوم أحد من الأعضاء بالتقصي في إحدى مناطق استثمار أشجار الكاوتشوك.

في عام 1897 أقيم المعرض الشامل في بروكسل: كان الكونغو يشكل المادة الأساسية للاطلاع، و267 رجلاً وامرأة

#### حرفهم المدهلة

وطلّصاً، ومنهم قرمان في ثلاث قرى أعيد تأسيسها في تير فوريس، في ضاحية العاصمة البلجيكية، قرية على النهر، وأخرى في الغاية، كشهادتين حيتين للحالة المتوحشة التي كان يتخبط فيها الأفارقة قبل وصول المستعمرين اللججيين، وثالثة هتمدنة، ويسكن هذه الأخيرة حوالي مئة رجل من القوة العامة، وبوقهم العسكري. وقد عبّر مليون زائر عن إعجابهم بالتقدم المتحقق عبر تمدين مستعمرة ليوبولد. وتنقل هذا الأخير حتى تيرفوريس، ملاحظاً أن العامة كانوا يقدمون قطع الحلوى إلى محتلي القرى، وطلب لصق لافتة أمام القرى وكتب عليها «السود يتفقدون من قبل لجنة التنظيم».

ورغم نجاح المعرض وحلق جوفة الاهتمام الملكي، كانت شهرة الملك قد بدأت تعاني من قصص الأيدي المقطوعة. فقام كنسي أميركي يدعى وليم شيرد بمهمة استقصائية، على طول نهر كاساي، وبناء على تكليف من رؤسائه، وأثبت ما كان يُشاع وبشر شهادته في مجلات تصدر في أوروبا والولايات المتحدة. كان الرئيس يهودنا إلى هيكمل مبني بالمعصي، كتب في شياطين/فراير 1900، في مطبوعة الميسر The Missionary، ونحته كانت تشتمل النار بطة، وكانت هناك هذه الأيدي البنية، وقد أحصينها، فكان عددها كلها إحدى وثمانين.

هذه الأيدي المقطوعة التي كان رجال القوة العامة يحركون الدخان فوقها من سار احتراق الخشب لحفظها من التحلل



#### ليوردهم جميعاً

وتقديمها إلى سباطهم البيض، ولم يكونوا يراعون إلا الفوس الحساسة. ولما لم تكن السوق العالمية للكاوتشوك متأثرة بهذه الممارسة، فقد كان المساهمون في الشركات ينظرون بارتياح إلى تضخم حصصهم، وكانت ستة ملايين طن من الكاوتشوك تخرج سنوياً من الكونغو. وكان إكمال الحط الحديدي، بعد ثماني سنوات من العمل، قد سرّع الإنتاج وزاد الحصص المفروضة على القاطنين... كم عدد الأيدي المقطوعة بكل طن إضافي؟ لم يطرح أحد السؤال بهذه التعابير. وفي مناسبة افتتاح الخط الحديدي، أقيم نصب تذكاري على حلبة التحميل القديمة، وتمتلئ المنحوتة ثلاثة حماليس سقط إثنان منهما من الإعياء على قدمي الثالث الواقف وحمله على رأسه وعلى القاعدة حُفرت كلمة تقول: «الخط الحديدي حررهم من الحمل».

وفي المشغل نفسه الذي استلزم في بعض الأوقات 60 ألف عامل قلعوا مس جزر الأنشيل البريطانية، ومن أفريقيا الغربية والفرنسية أو الإنكليزية، ومن هونغ كونغ، وسيراليون وماكاو من أجل تفجير الصخور، ووضع السكك وبناء 99 حصاراً بطول إجمالي بلغ 19 كلم، كان الموت في كل مكان وقدرت الخسائر بـ 1800 رجل سنوياً خلال الستين الأوليين في بناء الخط الحديدي. وتغيّب الأرقام بالنسبة للسنوات التالية، لكن ما وقع لحمس مئة وأربعين صينياً «استوردهم» ليوبولد من أجل العمل في

بناء الخط الحديدي يقدم فكرة عما يمكن أن تكون عليه نسبة الوفيات بين هؤلاء العمال: فقد مات ثلاث مئة في العمل أو هربوا في الغابة ليموتوا فيها جوعاً وإعياء.

وبفضل الصحفي إدمون دين موريل في النهاية، كان للحقيقة أن تبدأ بالظهور. فقد عمل لمدة خمس وعشرين سنة لدى، إندر ديمبستر، الشركة البحرية في ليبربول، وقام بحركة مكوكية بين أوروبا والكونغو، متحمساً للمشاركة بما يضره عملاً حضارياً. «إن مستغلاً كبيراً يعد للكونغو، كتب في The Belgians in Africa البلجيكي في أفريقيا... هذه الأراضي الشاسعة المضافة إلى البلد بصيرة الملك ليوبولد الثاني ستؤكد يوماً بأنها حقاً رانماً للمشروع» وبعفته عامل تواصل بين الشركة والموظفين في بلجيكا، توصل إلى سجلات إندر ديمبستر وحسابات إيرادات الحكومة. وتكشف هذه الأعمدة من الأرقام لمن يجيد القراءة، الطبيعة الحقيقية للصيرورة الليوبولدية: «لقد قامت سفن إندر ديمبستر المتخصصة للتجارة مع الكونغو» كتب موريل، «بإرسال منتظم منذ عدة سنوات، كميات ضخمة من صناديق الرصاص والذخائر البنادق الصغيرة المتخصصة إما للدولة ذاتها، وإما لشركات تجارية بلجيكية مختلفة... فإلى أي استخدام حصص هذا السلاح؟ وبين المستوردات الذاهبة إلى الكونغو، حوالي 80% تمثل في مواد لا علاقة لها بالتجارة ومع ذلك كان الكونغو يصدر كميات

#### ليدوم جميعاً

متصاعدة من الكاونتشوك والعاج، وفي مقابلها لم يكن السكان الأصليون، حسب إحصاءات الاستيراد إذا صدقت، يحصلون على شيء. فكيف، في هذه الحالة، يسوى وضع الكاونتشوك والعاج؟ بالتأكيد بالتسويات التجارية. فلا شيء يدخل تسديداً لما كان قد خرج، والمبالغ الناتجة عن الكاونتشوك والعاج الآتية من الكونغو كانت تفوق كثيراً المبالغ المحددة في إيسادات الحكومة الكونغولية.. فإلى أية حبوب كان يذهب الفائض غير المعترف به؟ إن موريل، الذي كان لا بد أن يتلقى فيما بعد، دعم السير آرثر كونان دوايل، في كفاحه ضد نظام ليوبولد، كان قد كشف الحرية، بالاستنتاج السيط، ليخلص إلى القول «كانت هذه الأرقام تسوي تاريخها الخاص، ووحده العمل الإجباري بهذا النوع من الرعب المتواصل يمكنه تفسير مثل هذه الأرباح الخفية... عمل إجباري كانت حكومة الكونغو المستعمدة المباشرة منه، عمل إجباري كان موجهاً من قبل الشركاء الأقربين من المملك شخصياً إن المعنى المشترك لكشف هذه الوقائع يسبب لي الدوخة ويرعبني. فأن تنطلع صدفة على قتل معين لا بد أنه متعب للغاية. وكنت قد أطلعت على مجتمع سري من القتل».

منذ ذلك الوقت بدأ موريل يخوض معركة حامية في حرية الرأي. وبعد ذلك، وبفضل صديقه هاريس أليس، التي كانت قد زارت الكونغو وجلبت معها من هناك صوراً دامغة، صار قادراً

#### حزب الدولة

على إظهار الأدلة على الهمجية. فتشكل الصور السلبية للأيدي والبرؤوس المقطوعة وعرضها في صور شفافة، أفضل كشف للملك ليوبولد من أي خطاب آخر. وقد اختطفها الرسامون الآخرون، وظهرت في الصحافة الألمانية رسوم تمثل الملك البلجيكي وسط حلقة من الجماجم العائسة لكن هذه الجماجم ليست هي التي أثارت الاستنكار في أوروبا. وفي سنة 1905 التقى الملك في باريس بمعاهرة في السادسة عشرة من العمر - وكان هو في الخامسة والستين - واتخذها عشيقة الرسمية. وعلى حساب سير الحياة في أوروبا وحياة مواطنيه، غمرها بالهدايا وجعلها مازونة (فوعان) بعد ولادة طفلهما الأول. وأدت المبالغ المتددة في أعمال تزيين الأسلاك الملكية، وبناء القللات في رأس (فترات) والجزوات البحرية على متن اليخت ألبيرنا، كل ذلك أدى إلى البيل من اعتباره

فهل أحس بأن الرياح تدير؟ وهل اعتبر أنه سحب كل ما هو ممكن من مستعمرته؟ وهل ظل بحاجة للمال على الدوام؟ وفي عام 1907 بلغ السابعة والستين من العمر، وعرض على الدولة البلجيكية شراء مستعمرته التي كتبها في وصيته هبة للأمة. لكن العرض لم يلق تحمساً له. ووشرت المفاوضات مع الحكومة وطالت كثيراً، وهو مدين لها بمبلغ 38 مليون فرنك، وفي النهاية تمّ التوصل إلى اتفاق. فمقابل الكونغو، يحصل الملك على إلغاء

#### ليومهم جميعاً

ديونه، و45 مليون قرصاً لإكمال مشروعاته المعمارية، و50 مليون في دفعات متسلسلة واردة من الكونغو «اعترافاً بتضحياته الكبيرة لصالح الكونغو من قبله ذاته».

لكنه لم يستعد منه طويلاً، فبينما كانت حملات موريل ضد العمل الإيجاري تتصاعف في إنكلترا، أصيب بالمرض ومات بالسرطان. أما كتاب موريل، «الجريمة في الكونغو»، فقد قدم له السير آرثر كونان دوايك ويشجب فيه «أكبر جريمة لا سابقة لها في تاريخ البشرية». إنها جريمة دون آثار مكتوبة. وفي شهر آب/أغسطس 1908، كان ليوبولد قد أعطى الأمر بحرق جميع محفوظات الدولة الكونغولية، في مراجيل مكاتب الدولة. ورغم حرارة الفصل، فقد عملت التدفئة المركزية طوال ثمانية أيام. وجبرت العملية نفسها في يومها، وشرح ليوبولد لمساعدته غوستاف: «سأعطهم مستعمرتي في الكونغو لكن لا يحق لهم معرفة ما قممت به».

ويمكن قراءة جوزف كوبراد، في كتاب «في قلب الظلمات»  
Au cœur des ténèbres

«رأيت منحدر الهضبة المزروعة ببضع أشجار، والخلية تماماً من الأدغال كان هناك بناء طويل مهشم في أعلاه ومطمور إلى

نصفه بالأعشاب العالية، وقرب البناء نصف درينة من الأعمدة الرقيقة، وفي حالة اصطاف مربع تقريباً، ومزينة في الأعلى بكرات محتوية... ولا تعرف ماهية هذه الكرات إلا بالانتراب منها "هناجأة رأيتها عن قرب، وكان تأثيري الأول أن أعيد رأسي إلى الخلف، كأنني أنضادى إحدى الضربات. ثم حركت نظري من عمود إلى آخر، واتضح لي الخطأ. لم تكن هذه الكرات زيتة بل رمزية، كانت ذات معنى، محيرة، مؤثرة ومقلقة — فماذا يغذي الفكر والنسور أيضاً، إذا كان يتم النظر من أعلى السماء؟ وهذه الرؤوس المعروية على هذا الشكل، كانت ظلمت أكثر إثارة للمشاعر، لو لم تكن الوجوه ملتصقة نحو البيت. الأول الذي كان قد لفتني، كان ينظر إليّ". وكان في وضع جيد، أسود، جافاً، متفتناً، مغمض الجفنين - وسدا رأس نائماً في أعلى هذا العمود، بشفتيه الجائفتين والمتسودتين، التي تظهران الأسنان في خط ضيق أبيض، وكان يتشم لحلم غير قابل للانتهاء. وقريح في نومه الأبدى.

## الفصل الثاني

### هنود القوهر السلاف

كان هتلر، الذي العس في حرب إستعمارية في أوروبا، يعلم أن الشعب الألماني لا يقتل، لو كان أعلم ارتكاب الجرائم ضد الإنسانية، باسمه أو ادعاءً لمصلحته، كما أنه لم يكن ليقتل أن يحامل اليهود والسلاف كأهم من السود. كذلك كان عي موليه يعلم في عام 1954، أن الشعب الفرنسي لا يقتل اللجوء من جديد إلى الأساليب المستجدة عد احتلال الجزائر، قبل قرن من الزمن وإذا كانت جريمة الدولة تستجيب لنوع الدفع على الصعيد التعيذي في بعض الأحيان، فإنها تنشأ دائماً في أعلى مستوى في الدولة، عن تصميم جرمي مردوج لرهان معين. إذا كما متصيرين، فلا أحد يطلب منا الحساب. ويمكننا الزعم بأن الأمر يتعلق سوع من الانزلاقات (في موليه كان يقول «شوالبة»).

وعندما يغادر النصر راياته، يستخلص هتلر النتيجة المنطقية من ذلك: فيقدم على الانتحار وعلى عائق المتصيرين أن يبدوا بالجريمة وإدانة مرتكبها في مجرى محاكمات نورمبرغ

#### ما جدوى القانون؟

عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفياتي في حزيران/يونيو 1941، لم يخف أن الأسر يتعلق باستعمار أوروبا الشرقية حتى الأول. وترتبط كلمة «استعمار» بمعناها الحرفي بأفريقيا وآسيا والأميركيتين والجديد تطبيق هذا النظام على الأوروبيين. وكما كتب إيميه سيزير، أن جريمة هتلر الكبرى في «أن يطلق على أوروبا إجراءات لم ينهض بها إلا عرب الجزائر وأجزاء الهند وشرق أفريقيا». هذه الإرادة المعلنه في كتاب «كفاحي» والتي تحلت بلجنة صغيرة اعتباراً من صيف 1941، تستر عادة، بالاختصاصيين والرحوم إلى الاستعمار في ما يخص أوشويتز، وتظهر لهم متحولة لأسباب مختلفة.

ومع ذلك، فإن أحاديث القوهزور المستقلة بأمانة تحت إشراف مارتن بورمان، تعج بالمراجع الهاجسة باستعمار الهند من قبل الإنكليز وإيادة ذوي البشرة النحاسية من قبل الأميركيين.

27 تموز/يوليو 1941: «لتأخذ مثلاً عن الإنكليز الذين حكموا أربعين مليون هندي ما مجموعه 250 ألف رجل، منهم 50 ألف هندي»

8-11 آب/أغسطس 1941: «أراضي الشرق ستكون بالنسبة لنا، كما كانت الهند بالنسبة لإنكلترا. وسرود الأكرانيين بالبحاقن والحرر



#### صورة القوم من السلاف

وكل ما يحجب الشعوب المستعمرة. ويجب على الألمان، وهذا شيء أساسي، أن يؤلفوا في ما بينهم مجتمعاً متعلقاً مثل قلعة. ويجب على آخر سانس عندنا أن يكون أعلى من أي فرد من السكان الأصليين.

23 أيلول/سبتمبر 1941 فإنه من غير المتوقع أن يستمر شعب مستغرق مريضاً للثعب على أرض خفيفة جداً، بينما نحتل جماعير حاملة ولم تقدم شيئاً للحضارة، أرضاً هي إحدى المناطق الأكثر ثروة على الأرض.

17 تشرين الأول/أكتوبر 1941: «لا يوجد إلا واحد واحد: الشئ هذا البلد بهجرة الألمان إليه، مع الطر للسكان الأصليين فيه مثل ذوي البشرة الحسنة. في هذا الشأن إنني أعمل في خط مستقيم ورواية حاشئ إنني الأداة المصرية. وما يمكن أن يظن بي في هذه الحال لا يهمني أبداً. لا أعرف أن ألمانيا تأكل فطه: حزن عليه أن يفتن لفكرة أن الأرض التي أنتجت هذا الخير كانت قد احتلت بالسيف. وعندما نأكل حيز كندا لا نفكر بالهتود الذين سلبوا. إن القاتلون استكار إنساني. ولا تصرف الطبيعة للكتاب العدل ولا المتخصص بالمساحة. إن الله لا يعرف إلا القوة.

إن هتلر يربط هنا فكر مؤسسي الديمقراطية الأميركية الكبيرة ليجامين فرائكلين مثلاً، الشريك في وضع إعلان حقوق الإنسان: «إذا كانت العناية الإلهية مصممة على تدمير هؤلاء المتوحشين لإفساح المجال لمارعسي الأرض، فلا يبدو بعيد

#### حرائم الدولة

الاحتمال أن تكون الكحول وسيلة الوصول إلى ذلك». وابتدور روزفلت بعد أكثر من قرن: «لا أذهب إلى القول بأن هندياً طيباً هو هندي مبيت، بل في النهاية تلك هي الحال بالنسبة لتسعة من عشرة منهم ولن أصبح وقتي مع العشرة».

**10 كانون الثاني/يناير 1942:** «إن ثروة بريطانيا العظمى ناتجة عن تنظيم تجاري تام أقل مما هو عن استثمار رأسمالي لتلاتة وخمسين مليوناً من «العبيد اليهود».

**15 كانون الثاني/يناير 1942:** «قرأت اليوم أن الهند تعد حالياً ثلاثئة وثلاثية وثمانين مليوناً من السكان، ما يمثل زيادة خمسة وخمسين مليوناً خلال السنوات العشر الأخيرة إنه لأمر مقلق. نحن أمام الظاهرة نفسها في روسيا، فالتضاء بلد كل سنة طفلان والسبب الرئيسي لهذه الزيادة، تفصال الوفيات الناتج عن تقدم العلم الصحي. فم يفكر أظن؟».

**27 كانون الثاني/يناير 1942:** «الواحد المُلح للحسن الأبيض في المستعمرات إبقاء السكان الأصليين بعيدين عنه».

**22 شباط/فبراير 1942:** «لم يكن قد مر وقت طويل عندما كانت لا تزال هناك مساحات من الأرض للفتاسم في الشرق الأقصى، وكان الجميع يستعملون الوصول إليه. وأصبحت مساحات واسعة من الشرق تحت تصرفنا. إنه أقل بهجة وأكثر قسوة، لكنه أفضل بالنسبة لنا. وسنضع اليد على مجمل الأراضي، وسؤس الرقابة على

#### ملود للفرع من المصنف

المراكز الأساسية. وستعرف كيف سيطر على السكان. وليست المسألة في الوصول إلى هناك بفقرات من ليم وأساتذة مدارس»  
3 آذار/مارس 1942: «خصوصاً، ألا ندع أستاذ المدرسة الألمانية في مناطق الشرق ويكون ذلك وسيلة مؤكدة لفقدان التلاميذ الذين يقدم لهم ولدويهم في أن معاً والحل الأمل يقوم على تعليم هذا الشعب إيمانية أساسية»

لكنه كان من الصعب جعل الرأي العام يقبل أن يعامل البيض مثل السود. وتعتبر طعونات القوهرو ضد أنصار القانون بلغة في هذا الشأن

14-15 أيلول/سبتمبر 1941: «لا يستطيع القانونيون فهم أن قوانين أخرى نافذة، في مراحل الاستثناء».

16 أيلول/سبتمبر 1941: «ما تسمية الهواشس القانونية، عندما يعرض شيء في مصلحة الأمة؟».

3 آذار/مارس 1942: «من المستبعد أن يحتفظ بوسائل ديموقراطية بما تم الاستيلاء عليه بالقوة».

من كل ما سبق، من هذا الحلم الاستعماري الذي دفع إلى نهاية حده الأقصى، ومن مسلمة دولية ناجية من القانون طبيعتها تولد نسوية «المشكلة اليهودية» والحل النهائي».

25 كانون الثاني/يناير 1942: «لمسدا أنظر إلى اليهودي معين أخرى لو كان سجيناً روسيا؟».

## عزلتان

في دعوى نورمبرغ، حكم على المسؤولين الرئيسيين عن الجرائم النازية بالإعدام، باستثناء ألبير مايبير، الذي حكم عليه بالسجن لمدة عشرين سنة، بينما كانت مشاركته بهذه الجرائم بصفته وزير التسليح والإنتاج الحربي بشكل مباشر أو غير مباشر، شديدة الواضح وبقدراً أكبر من مشاركة وزير الشؤون الخارجية، مون ريشنروب، الذي حوكم بالإعدام، أو مشاركة وودولف هيس الذي سجن في إنكلترا قبل اندلاع الحرب مع الاتحاد السوفياتي، وفتح معسكرات الإبادة، وحكم بالسجن مدى الحياة.

هكذا أكدت المحكمة الدور الجانبي الذي اضطلع به سبير دائماً في النظام النازي. وبصفته ارستقراطياً متمجراً وانطوائياً، فقد حافظ على مسافات تفصله عن هؤلاء «الأشخاص»، كما كان يسميهم كل من غورينغ وهيملر وسوكيل ومع ذلك فقد كان منهم. كان شخصية مزدوجة، وتربى على القيم المحافظة للغرب وعاش على الخطى الموزونة للفرق الشمولية، وقد بهر مصيره أكثر من مرافق وطرح مؤالين.

1 كيف جُرّ إلى المشاركة في هذه المغامرة الإجرامية الكبيرة؟

## 2. ماذا فعل لكي يستحق حكم قضائه في الجريمة المكشوفة؟

قبل كل شيء كيف أمكن لطريق سير أن تلتقي مع طريق أدولف هتلر، في ألمانيا المهامة بعد الحرب العالمية الأولى، وفي هذا البلد الذي ينقسم كبير من أراضيه بمعاهدة فرساي ثم أعرق في الأزمة الاقتصادية اللاحقة لكارثة نيويورك المالية؟

وفي كتاب مذكراته «في قلب الرايخ الثالث»، كتب عن عائلته الأصلية مانهم، حيث كان قد ولد في 19 آذار/مارس 1905، ويقول: «كان حدي بيرتولد سبير مهندساً معمارياً ناجحاً.. ومات وهو شاب، وترك ما يكفي من المال لتربية أولاده الأربعة. لكنه لكاتبة سيرة حياته جيتا سيريني يقول: «لم أعرف أجدتي لأبي. لقد ماتوا عندما كان والدي لا يزال شاباً، وقالت شائعات أن جدي قد استحر، لكن لم يقل لي شيء عن ذلك أبداً. والانتحار والأمراض الذهنية والعضوية مثل السرطان كانت أموراً غير مقبولة اجتماعياً. وكان والدي وإخوته قد تربوا برعاية جدتي لأبي». ويضيف أن والده تعلم مهنته في ورشة مهندس معماري بدلاً من الالتحاق بالجامعة، وكان الحد قد ترك العائلة بدون موارد... وكما أشارت له كاتبة سيرة حياته إلى أنه كتب عكس ذلك تماماً في مذكراته، فأجاب: «ما أهمية ذلك؟». ربما كان المهم في الواقع

#### جرائم الدولة

نسيان أن الشفرة العائلية لم تأت من إرث بل من مضاربة ماهرة على الدولار. وكذلك نسيان النفس العاطفي الذي كان يعاني منه في طفولته: «كنت أشعر تجاه والدي» بأكثر من الاحترام وبأكثر من الحب ذاته، كنت أجهله. لكنني أعتقد أنه لم يكن يلاحظ شخصي». عن هذه اللامبالاة الأبوية، يحتفظ بمشاعر مستزجة بالعزلة والتقديرية والتعالي، واللامبالاة المفرطة الآخرين.

وفي فتوته، تقاسم الحياة الدنيوية مع أهله، لكنه خالط في الوقت نفسه عائلة مقاول غني في أعمال الجارة، وغازل ابنتها مارغريت. وبصفته طالباً لامعاً حُلم بالميدان الجامعي لكنه انتهى إلى اختيار متابعة التقليد العائلي ليصبح مهندساً معمارياً وبين عامي 1924 و1927، تابع دراساته في كارلرزروه، ثم في ميونيخ؛ وأصبح في برلين تلميذ أستاذ معروف بأفكاره الليبرالية، هنريخ تيسيتوا. وكتب إلى مارغريت يقول «أستاذي الجديد هو الرجل الأكثر استشارة والأكثر جدارة ممن التقيت بهم». ثم عاد إلى ميونيخ ليعمل في مكتب والده في نفس الجو الجليدي، وبصفته شخصية مزدوجة دائماً، تزوج من مارغريت ووبر متحدثاً أهله الذين لم يحضروا الاحتفال بهذا الزواج.

وفي عام 1930، سمع لأول مرة خطاباً لهتلر. وتأثر به حتى أعماق نفسه، فقام ليلاً وراء مقود سيارته، وتوقف في غابة على

#### مورد للفرار السلاف

ضفة نهر الهافل ومشي طويلاً واكتشف «مثلاً علياً جديدة، وفهماً جديداً للأمور، ومهمات جديدة للقيام بها». ويقول فيما بعد، «من رصيح لتأثيرات هتلر، كان هذا الأخير ينتظره». فانضم إلى الفروع الهجومية للحزب، في السادس عشر من آذار/مارس 1931، ثم إلى الحزب نفسه. ومنذ ذلك الوقت أخذت الأمور تسير سريعة جداً.

في البداية طلب منه مسؤول منطقة برلين كارل هانكيه، تجديد مقر الحزب، فنجح بكسب رضى الجميع، وبناء على ذلك رقى كارل هانكيه، إلى المقر المركزي للحزب، وطلب مجدداً من سير تيجير مقرات الحزب الجديدة. وشكل ذلك نجاحاً آخر، ثم كلفه رئيس منطقة برلين بمهمة تحويل مكاتبه الجديدة إلى النمط الكلاسيكي الجديد والمحجب لدى المسؤولين النازيين. ولم يكن مدعواً إلى انتاج المقرات الجديدة، لكنه علم أن هتلر أعجب بعمله.

وعندما أصبح غوبلز وزيراً للدعاية، كلفه بمهمة التعبير الكامل للتنظيم الداخلي لقصر ليوبولد التاريخي حيث كان عازماً على جعله مركزاً لوزارته. وتعهد سير بإنهاء العمل خلال شهرين والترم بتعهده ونال العمل بعد التنفيذ إصحاب غوبلز وهتلر، الذي اعتبر من المستحيل القيام بهذا العمل في مدة قصيرة إلى هذا الحد. وفي 30 نيسان/أبريل وقع سير عن غير قصد على مكتب

#### جرائم الدولة

صديقه هانكيه المشروع المقرر من قبل بلدية برلين للاحتفال بعيد العمل على ساحة مطار تيمبلهوف. فانتقد ما رآه مرسوماً على الورق، فرد عليه هانكيه بأن لا شيء ينتمه من إعداد مشروع أفضل أثناء الليل. وهذا ما جرى. وكانت النتيجة كاتدوائية مضيئة وذات هندسة تامة. وقدر هتلر هذا العمل من جديد، وضم سيبر إلى صديقه القديم من ميونيخ المهندس المعماري بول لودفيغ تروست المكلف بتجديد مقر إقامته في برلين. وأصبح يهتم عن كتب بالفتى الأنيق والموجود يومياً في ورشة العمل، الذي يجهل كلمة مستحيل ويساقش معه مسائل معمارية على قدم المساواة. ويعد كل لقاء كان هتلر، حسب الشهود، في نوع من التآرجح بين سعادة واضحة وغياب عن بقية العالم.

وذاًت يوم دعا هتلر سيبر للغداء وأعرب سيبر عن نوع من الضيق من تلبية الدعوة وهو يرتدي بدلة ملطخة بالطين. فبادر هتلر بأخذ ينظرون من خزائنه ويستره الخاصة التي لصق عليها النسر الذهبي للحزب. وعلى الطاولة، أجلسه هتلر قربه وتابع يتحدث عن الهندسة المعمارية أمام ذهول مسؤولين آخرين في الحزب النازي. وهي مذكراته، يروي سيبر عن هذا الغداء: دخلت وبعده هذا الغداء، وجّه لي هتلر لأول مرة أسئلة شخصية... ولم يطلب مني شيئاً عن انضمامي للحزب أو عن نشاطاتي داخله. وفيما بعد، في فرصة للالتقاء به مع فتاتين أخيرين كان يفوض



عنود القرمز السلاف

إليهم طلباً، علمت أنه كان غير مبال بموقفهم السياسي. وتذكرت، حارج نشاطي كمهندس، أنه سألتني كثيراً عن الأبنية التي كان والدي وجدي يعمروها. كان واضحاً جداً أن هذا الغداء سيكون له أثر حاسم على مستقبلي. وبعد بضع سنوات، اضطر هتلر إلى طرح لقائهما قائلاً: «كنت ملفتاً خلال زيارتي إلى ورشة العمل. وكنت أبحث عن مهندس معماري أكلفه يوماً بمشاريعي في البناء. وكان يحسب أن يكون نيتاً لأن هذه المشروعات، كما تعلم، تمتد بعيداً في المستقبل. وكنت بحاجة لواحد يكون قادراً، مع الصلاحية التي أعطيه إياها الآن، على متابعتها بعد موتي. هذا الرجل أجده فيك».

هذه الملاحظة بين الرجلين، رغم بعض أشكال الاختلاف، استمرت حتى موت هتلر، ويقدر ما كانت قوية، كانت ناتجة عن النقاء عزليتين، وعن زواج غير متكافئ. أكثر مما عن زواج عقلاني، وعن كون النساء لا يقمن بأي دور، في عالمهن

#### السعادة عمياء

كان سبير سعيداً. لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره، ويمكنه تحقيق أحلامه الفنية، هو غير المحبوب من أهله كان محبوباً من الرئيس القادر على كل شيء. في ألمانيا الجديدة. وما كان يجري حارج مشغله لم يكن يخصه. ماذا يهم أن يغضب المجلس

#### جرائم الدولة

التشريعي الألماني ليل السابع والعشرين إلى الثامن والعشرين من شباط/فبراير 1933 في ظروف معتمة ويمطي الإشارة بمطاردة الشيوعيين، وأن يفتح في دافشو في العشرين من آذار/مارس المعتقل الأول؟ ماذا بهمه من أمر المجهولين الذين أدخلوا إليه: من معارضين سياسيين أو مثليي الجنس؟ وأن يصدر مرسوماً في الأول من نيسان/أبريل بمقاطعة المتاجرات اليهودية؟ وأن يصدر في السابع من نيسان/أبريل قانون طرد اليهود من الوظائف العامة؟ وحظر التظاهرات في الثاني من أيار/مايو، والقاء الكتب في جميع المسدات الألمانية الكبيرة في لهاب المحكومين بالإعدام بالحرق؟ وحظر الحزب الاجتماعي - الديمقراطي بدوره؟ وإقرار قانون الرابع عشر من تموز/يوليو الذي يقضي بتعقيم المصابين بالأمراض الوراثية؟

لا شيء لا ينحص من كل هذا.

ماذا بهم مقتل روم نفسه، في الثلاثين من حزيران/يونيو 1934، ليلة السكاكين الكبيرة؟ وعندما شتل مسير عن هذا الموضوع، برر إعدام روم بحجة أنه كان يرتكب الخيانة، وذكر بكونه مثلي الجنس كظرف مشدد للخطوة. وماتا بهم مصرع دولفوس من قبل النازيين في الخامس والعشرين من تموز/يوليو، وهو المستشار المساوي المعارض؟ وماذا بهم قتل 91 يهودياً، مساء التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر 1938 وحرق بيوت



#### حرائق الدولة

«فولكنشتر بيوباشتر»، مقالة: «لقد وضع الفوهور مسؤولية جسيمة على رجل كسب بعمله شهرة فنان وطني - اشتراكي».

هذه المهمة ليست أقل من إعادة بناء إجمالية لمدينة برلين التي كان هتلر يريد رؤيتها تنافس باريس وتجاوزها. وهكذا، فإن محور الشرق - الغرب، وقصور الشانزيليريه فيه، يجب أن يكون عرضها 120 متراً، أي بزيادة عشرين متراً على الشانزيليريه الباريسية، وكان التطلع إلى إقامة قوس نصر بارتفاع 150 متراً، أي بزيادة 100 متر عن قوس النصر الباريسي. وأن تغطي قمة كبيرة الشارع من الجهة الأخرى، على طراز بانتيون روما. وهي قمة هذه القبة يوضع النسر الألماني. وعندما قدم سير لهتلر نموذج تصميم ارتفاعه أربعة أمتار لبرلين في المستقبل، وجرمانيًا معمقة ثانية بناء على طلبه، طلب هتلر من سير أن يضع كرة أرضية بدلاً من الصليب المعقوف والمقيد بمخالب النسر. فرى هكذا من هو سيد العالم الحقيقي

لكن بناء محور الشرق - الغرب كان يطرح مسألة خطيرة على عمدة برلين، هولاوس ليبيرت، الذي كان يريد أن يحد من عرضها من أجل ألا يكون عليه هدم الكثير من المنازل، وكان ذلك هملاً دينياً في نظر سير. وحسنت لجنة في التوفيق بين النظرتين. ويقدر ما كان ليبيرت يبحث عن تسوية، ظهر سير متشددًا. واستناداً لذلك يروي سير الأحداث في مذكراته «لم يصل ليبيرت

#### ملود الفوهرر لسلاف

إلى أن يضطرم حياً لمشروعات الفوهرر وأظهر هذا الأخير الاستياء من ليبرت الذي لم يكن قادراً على فهم الدور التاريخي الذي تضطلع به برلين». ومع مرور الأيام بدت الملاحظات أشد قسوة. «إن ليبرت غير قادر وأحمق وفاسل وعديم الكفاءة. وبعد مضي أربع سنوات على هذه المشاحنات وعند العودة من نزهة تحت خيمة الشاي، كان هتلر قد وجه خلالها ملاحظات لاذعة عن ليبرت، أعطى أمراً إلى غوبلز بالتخلي عن عمدته. وترك غوبلز، ليبرت في موقعه، لكنه سحب منه جميع امتيازاته تقريباً

في كل حال، كان ليبرت قد خسر معركته مسبقاً. فعندما كان مسير قد حصل على لقب مفتش عام، كان قد طلب أن يكون تحت سلطة الفوهرر المباشرة، وألا يقدم الحساب إلا له، وأن يحصل على التفويض المطلق تجاه سلطات الرايخ. يخضع جميع المهندسين المعماريين بالتالي لتعليماته، وألا يقدم أي حساب للحرب ولا لأية إدارة مهما كانت. وفي ما يخص الصلاحيات الممنوحة لأحد المهندسين، فقد كانت دغير مسبوقة. لكن ألم يكن قد وعد الفوهرر بأن الرايخ المتوقع له أن يدوم ألف سنة، سيفقد قروناً غير ضرائب أعظم من ضرائب أثينا؟

وفي محاكمات نورمبرغ، لم يدسير تضامناً مشتركاً مع المتهمين الآخرين ودافع عن نفسه على أساس الإقرار بالذنب لأنه

#### جرائم الدولة

كان في موقع مسؤول، وكان في ذلك أكثر لاقاة من الوزير الفرنسي الذي دافع عن نفسه كمسؤول وليس كمذبذب. وكالعادة كانت لياقة سبير نوعاً من المهارة.

ونفسه ما كان يهتم بكاتدرانيات النور في نورمبرغ أو يحلم برفقة هتلر في نمير نمط برلين يجعلها عاصمة للعالم، كان يمكنه الادعاء بأنه لم يكن يعلم بما كان يجري حوله، وفي كل حال لم يكن له يد في ما جرى، فهو مماثل في ذلك لحال الأوروبيين في المستعمرات، الذين كانوا يستفيدون من ثلث الاستعمار دون تحمل المسؤولية. لكن اعتباراً من الفترة التي تشكلت فيها الدائرة العامة لحالات طرد اليهود المحتلين، في برلين، أخذ يشارك بمسؤوليات معرفة السبب، ولم يصمد ادعاء الجهل أمام الشهادات والمستندات. فالإجراءات المحلية لقانون 30 أيار/مايو 1938 حيال اليهود كانت نسيء بطردهم لصالح بعض الفئات من العسكريين وأعضاء الحزب. حينذاك كان في برلين 27 ألف مسكن يهودي محتلة من قبل 82 ألف شخص، فكان الإلزام الوحيد للمؤجرين من أجل نوحته إندثار للمستأجر أن يشت أن المستأجر المعطود كان يمكنه إيجاد سكن ثانية. وقد أنشئت منظمة يهودية بعون من الحكومة لتساعد في ذلك. وبعد عمليات القصف الأولى لبرلين، تراجعت مسألة تأمين إعادة السكن لليهود لصالح إسكان من يهتجون دون مأوى. وكان يطلب من المحتلين اليهود أن يأخذوا

صود: لفرهرز السلاف

على عانتهم أقل الممكن، فكانوا يؤخذون إلى الكتيب ثم إلى محطة برلين - غرونولد.

### الميثاق مع الشيطان

في الخامس عشر من شباط/بشير 1942، إثر الموت المفاجيء لوزير التسليح والدخائر فريترز تود، كلف هتلر سير مكانه في جميع مهامه كوزير للتسلح والدخائر أولاً، ثم كوزير للتسلح والإنتاج الحربي. كان فريترز يتمتع بشعبية واسعة في ألمانيا لأنه يأنس شبكة الطرق الألمانية، ثم خط سيمفريد، وكان قد حافظ على خسارته مع هتلر ولم يخف عنه، خلال مباحثتهما، تشاؤمه حيال نتيجة الحرب في الشرق. وكان سير، الذي كان عليه أن يسافر على الطائرة نفسها مع فريترز، قد ألقى سفره في اللحظة الأخيرة، ما أدى إلى نجاته من حادث لم توضح أسبابه أبداً وتولى سير مهامه بعد الحصول من هتلر على أنه يحميه ضد جميع خصومه الذين اصطفتوا للمشاركة في تشييع جثمان فريترز، وكان غورينغ في الصف الأول.

بهذا الدعم ضمن سير جميع الصلاحيات، ليس فقط في مجال الاقتصاد الحربي بل في كل المجال الاقتصادي بشكل عام. وأكد هتلر هذا الموقع عبر مجلس الوزراء: «لا أحد غير سير

#### جرائم الدولة

يستطيع أخذ قرار بحص الخطة الرابعة. وبعد بضعة أيام من توليه لمهامه، عرض سبير مشروع مرسوم على هتلر «من أجل حماية الصناعة والتسلح». ويتطهر هذا المرسوم أن عقوبات قاسية، من عقوبة السجن حتى عقوبة الإعدام، يمكن اتخاذها ضد أي شخص يعطي معلومات خاطئة عن الحاجات للبلد العاملة والآلات أو حتى للمواد الأولية، أو يخون المواد عن طريق الاحتيال. وقد بوشرت هذه الملاحظات الجزائية بناء على طلبه. وهكذا يكون قد حول رتبة وزير العدل إلى دور تابع. واعتباراً من ذلك الوقت أصبح يحكم الإنتاج الحربي كسيد مطلق.

وفي روسيا، كان على الجيش الألماني المحاصر في ستالينغراد أن يستسلم في 3 شباط/فبراير 1943. كان قد قتل 330 ألف رجل، وتم أسر 70 ألفاً بينهم واحد برتبة مشير. وعلى الأطلسي كانت حائلز الإنكلير والأيريكين أقل بالعتاد والرجال. وأصبحت جميع قوافلهم مواكبة. وأصبح الأسطول الألماني يتعرض لأقصى الخسائر. وفي أفريقيا الشمالية، حيث كان الأميركيون، خرجت القوات الألمانية من مصر ثم من ليبيا وحقق سبير ورون المسؤوليات التي قبلها. ويجب العمل بسرعة كبيرة، ولا بد من إنهاء الحرب بأسرع ما يمكن، وإلا ستهزم ألمانيا.

لكنه اعترف في الوقت نفسه بأنه «فشد وتشل بتصور تطبيق سلطة شاملة، والتصرف بكائنات بشرية، وتقرير مسائل هامة،



والتداول بالمليارات. ورغم الاستغناء الذي كان يغريني، لم أكن لأتخلى بسهولة عن المفريات التي كانت توفرها لي نشوة السلطة. إنه رفع التحدي كنصير للحرب الشاملة. وسيعمل لرفع الإنتاج الصناعي للرايخ إلى مستوى لا مثيل له رغم أعمال القصف وبعيداً عن أية إيديولوجية، فقد أقام بنية تحتية ذات نوعية عالية ستفيد منها الدول التي تحلف الرايخ وتغصب الجدارة.

لكن نشوة ممارسة السلطة الشاملة والتصرف دون رقابة من الكائنات البشرية تؤدي، في حال الهزيمة، إلى أن تطلب منك الحسابات. كان سير يأمر حوالي 30 مليون من العاملين، ولثقتهم تقريباً راجع عن دوائر العمل الإتراسي في القبلدات المحتلة: معسكرات أسرى الحرب ومعسكرات المفقيين. وزعم في نورمبرغ أنه يجهل ظروف حياتهم، لكن الوقائع والمستندات الحفية، خلال المحاكمات أو المكشوفة لاحقاً، تشهد ضده.

فبعد تدمير معامل الصواريخ في بينيموند بعمليات القصف من الحلفاء، قرر هتلر وهيملر وسير إقامة معامل تحت الأرض بممرزول عن الأنظار والقتال، في جبال هرز. وعمل فيها المتعويون ليلاً ونهاراً في ما يشبه الضوء الصناعي. وبعد أن رآها سير قال عنها بأنها أماكن تشبه جحيم دانتي.

وأسام محكمة نورمبرغ، ادعى أنه لم يرها أبداً لكنه وهو يتحدث إلى جيتا سيريني اعترف أنه كان منهمكاً. وكان يكرر

#### جرائم الدولة

القول «نعم» كنت منهمكاً. ومع ذلك فقد «قيل» أن يتابعوا العمل في الظروف التي وصفها منفي فرنسي يدعى جان ميشال بقوله: «المنفيون من فرنسا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وروسيا وبولونيا وألمانيا . كانوا يكسحون ثمانى عشرة ساعة يومياً.. دون أدوات تقريباً وبأيديهم.. وكان عبارة الأمنيات يحرق رئاتهم.. وكاموا يتألمون في النفق. وكانت تحفر تجاويف: 1024 سجيناً أُنزلوا فيها، وقد امتدت التجاويف على مسافة 120 متراً، ويتألف كل تجويف من أربع طبقات... ولم تكن هناك تدفئة... ولا تهوية، ولا آدمى حوص للاغتسال فيه: كان الصوت ينفث علينا بالبرد والإحساس بالاختناق، وكان نوع من التعمن يتسرب فينا أما المراحض فكانت قد صنعت من براميل قُصّت من الأعلى وركّزت عليها خشبة ملاتمة. ووضعت أمام مخرج كل صف من التجاويف التي كنا ننام فيها... ولم يكن المنفيون يرون ضوء النهار إلا مرة واحدة في الأسبوع بمناسبة منادة الأحد. كانت التجاويف مشغولة باستمرار، ويطرد فريق النهار فريق الليل والعكس بالعكس... ولم تكن توجد مياه للشرب... وكان يلحق السائل والوحل».

ومن أصل 60 ألف رجل مرغمين على العمل مات ثلاثون ألفاً. وكان سير قد مرّ وسط هؤلاء الرجال محاولاً الإقضاء بنظراتهم. وطل ذلك دون جدوى حيث قال: «كانوا يرفضون رفع

فلود الفيرمر السلاف

عيونهم نحوي». «حتى الآن، إن مجرد التفكير فيهم يجعلني مريضاً. أسروُ بذلك إلى جيتا سيرني خلال محاكمة كان فيها في مركز للرياضة الشتوية. وبعد ذلك بزم من طويل بلهجة الوح بالسر من أجل غسل يديه من ذلك.

لقد أنكر سير دائماً معرفة المصير الصحيح لليهود الذين قام بطردهم من بيوتهم وقادهم رجال الشرطة النازية إلى المحطة. لكنه تذكر كذلك، بعد ثلاثين سنة محاضرة عن الوضع في المجر العام، في النصف الأول لسنة 1943، حيث أعلن هتلر مجاًة. وهو ينظر عبر الشباك المفتوح، وغير سال بنعمه ولا بالجزالات: «سادتي، لقد أحرقت الجسور وراونا. قلنا لنا بكل هدوء، وغير مجال تقريباً ودون تشديق ولا تفخيم للكلام وشعرت برعدة باردة تسري في ظهري، وتذكرت بوضوح كبير ما كان لدي من إحساس غريب مرعب وشعور مفاجيء شيء رهيب... أظن اليوم أنه كان يريد الكلام عما كان يحدث لليهود.

ولسوء حظ سبير، أن هتلر كان لديه تسلسل في الأفكار. فلكني لا يتجرأ أحد على الادعاء يوماً أنه كان يحل الحل النهائي، كان قد طلب، خلال ثلاثة مؤتمرات للمسؤولين في بوزن، من هيلمز إعلامهم بذلك. وهذا بالتالي ما أخطرت به مستشارية الحزب جميع رؤساء المقاطعات وكذلك سبير وروزيبرغ، في 30

#### حرفكم الدولة

أيلول/سبتمبر 1943، بأن يكونوا حاضرين في السادس من تشرين الأول/أكتوبر من أجل مؤتمر كان لا بد أن يُعقد بحطاب هيملر: فأرغب في أن أحدثكم الآن، في إطار هذه الدائرة الأصغر، عن قضية، قبلتموها، أيها الرفاق في الحزب، منذ زمن طويل، كأمر طبيعي، لكنه غدا بالنسبة لي العبء الأكبر في حياتي: مسألة اليهود. إنكم مسرورون جميعاً من الأمر الواضح بأنه لم يعد يوجد يهود في مناطقكم، ويدرك جميع الألمان تماماً، باستثناءات قليلة، أنه لم يكن في مقدورنا الصمود في وجه أعمال القصف وأشكال التوتر لهذه السنة الرابعة - وربما الخامسة قريباً، بل السادسة - من الحزب، لو أن هذا الوفاء الهدام ظل موجوداً في حسنتنا السياسي. إن الحملة القصيرة ويجب إبادة اليهوده يسهل لنقلها وإني أطلب منكم الإصغاء لما سأقوله اليوم، لكن ألا تتحدثوا عنه أبداً. نحن، كما نرون، في مواجهة المسألة: ما العمل حيال النساء والأطفال؟ لقد قررت، هنا أيضاً، تبني حلاً دون أي التباس. لأنني لا أجد مبرراً لإبادة - يعني قتل أو إعطاء الأمر بالقتل - الرجال مع ترك أولادهم يكبرون لكي يأخذوا يوماً بالتأثر لهم من أولادنا أو أحفادنا. كان يجب اتخاذ القرار الرهيب لإزالة هؤلاء الناس عن سطح الأرض. وهذا هو الأصعب، بالنسبة للتنظيم المكلف بتنفيذ هذا الأمر... أظن أنني أستطيع القول بأن هذه المهمة قد نفذت

بشكل جيد دون إلحاق الضرر بأنفس رجالنا وقادتنا. كان الخطر كبيراً وهو موجود دائماً، لأن الفارق بين الاحتمالين... أن تُصبح قاسياً ويدون قلب ولا تحترم الحياة الإنسانية أو تصبح أقل قسوة وترفض للضعف والانهيار العصبي... هي نهاية السنة مستوى مسألة اليهود في البلاد التي نحتلها... ولن تشكروا في أن المسألة الاقتصادية تظهر صمومات عديدة وكثيرة، فوق كل التنظيف للجنوهمات: فقد شهدنا في غيتو وارسو أربعة أسابيع من القتال في الشوارع، وأربعة أسابيع للتنظيف ملجأ بعد ملجأ. ولما كان هذا الغيتو ينتج معاطف من القرو والنسيج، فقد منعنا من القيام بمراقبته حين كان ذلك سهلاً. كان يقال لنا أننا ندخل منتجات استراتيجة وكانوا يقولون: «نوقصو» هذا إنتاج حربي! هذا بالدقة نوع من الإنتاج الحربي المرموم الذي كان الرفيق الحزبي سبير وأنا سقوم بتنظيفه خلال الأسابيع القليلة. سقوم بذلك دون أن ندخل فيه أدنى شعور عاطفي. كما يجب أن يكون كل شيء، في هذه السنة الحامسة من الحرب. دون أدنى شعور عاطفي، بل من صميم القلب من أجل ألمانيا... أريد أن أنهى كلامي عن مسألة اليهود بما يلي: أستم الآن تلغتم، وستحفظون لأنفسكم ما تعلمون. وفيما بعد، ربما سيبدأ النظر في التحدث عنه إلى الشعب الألماني. لكنني أظن أن من الأفضل أن نكون، نحن كلاً نتحمل المسؤولية

#### جرائم الدولة

عن ذلك باسم شعبنا... ومسؤولية التحقيق ليست من الفكرة فقط .  
وبعد ذلك نحمل هذا السر في قبورنا.

أما «المحفوظ» سببر فلم يكن قد سئل عن رأيه في هذه  
المحاكمة خلال محاكمته. وفيما بعد، في عام 1971 أثير الجدل  
إثر مقالة لمؤرخ من هارفرد، إريك غولدهاغن، وادعى سببر الذي  
لم يستطع إنكار حضوره للمؤتمر، أنه غادر قبل خطاب هيمبلر،  
وتأكيداً لذلك ذكر شاهدين، أحدهما شريكه السابق في الوزارة  
ولتر رولاتد، والمساعد الإداري لرئيس منطقة ميوزن، هاري  
سيفغونند. وزعم الأول أنه رافق سببر إلى راستنبورغ لمقابلة هتلر،  
وأنه غادر المؤتمر قبل خطاب هتلر، ولسوء الحظ لم ترد هذه  
الزيارة في دفتر الزيارات إلى راستنبورغ. أما الثاني فقد زعم أنه  
أعلم من قبل مدير الفندق الذي كان ينزل فيه بمغادرة سببر بعد  
الغداء. لكنه يدفع من جيبنا سيريني انتهى إلى القول بأن. «لقد  
طلبني سببر، لا أعرف كم مرة، عبر الهاتف، وفي الأخير أعطيته ما  
كان يريد».

#### الأرض المحروقة

يتمتع سنسر بنظرة بعيدة عن الناس. فوجدوا السلطة تنير  
اهتمامه، وهو يحياها كفتان. ماذا تهم الصحايا الشاحبة، وظفافة

#### عهد القرمز السلاف

جلاديهيم، إذا استطاعت هذه السلطة بناء حرمانى كعاصمة للعالم، بعيداً عن آلامهم وصرخاتهم. لكن عندما ينهار كل شيء تحت ضربات الروس، ويدمر الحلفاء الغربيون المدن الألمانية بغارات الرعب ويتركسون بدورهم الجرائم ضد البشرية، التي تبدو في أوروبا احتكاراتاً للنازيين، تدق ساعة الحقيقة.

وفي حين كان النجاح يحفيى الهوة الفاصلة بين الصديقين هتلر ومسير، فإن الهزيمة ستكشفها، وهي ناشئة عن الظروف الاجتماعية المختلفة لنشأة كل منهما، وعن نظراتهما اللاحقة لهذا العالم. أما هتلر، فلم يبق له إلا الإرادة الرئويوة لجعل الهزيمة نوعاً من الأقول للأهنة. وتتحه داروينيته المختصرة الآن ضد الشعب الألماني الذي أدت هزيمته إلى فقدان عرشه، فيعلن: «إذا خسرتنا الحرب، يكون الشعب الألماني هو الخاسر أيضاً وغير مجد الإنشغال بالشروط الضرورية الأكثر أهمية لحياة الشعب. وعلى العكس، من الأفضل تدمير حتى هذه الأشياء ذاتها، لأن هذا الشعب اكتشف أنه الأضعف، ويخص المستقبل شعب الشرق ويشكل حصري، الذي أظهر أنه الأقوى. والذين يبقون بعد هذه المعركة هم الضعفاء، لأن الطيبين قد سقطوا».

أما مسير، الذي كان قد قبل سوء التعامل مع الناس، لم يستطع قبول تدمير الثروات، وأدى أمر هتلر بممارسة سياسة

#### حزب الدولة

الأرض المحروقة إلى تحرره دفعة واحدة. ورغم التهديد بالموت الذي كان يقلل على الذين يعترضون على هذا الأمر، فقد عارصه سير صراحة، وكان وحده الذي أبدى هذه الجرأة فقال له غوريغ «من الأفضل لك اللجوء إلى الخارج». وأما المارشال كيسلر فيرفض أدار له ظهره ورفض المارشال موديل استقباله. أما المارشال فون مانشتين فلم يصدق أذنيه «هكذا، أنت تعصي أمر الفوهرر؟ وسجل غوبلز في يومياته: «ليس لنا نحن أن نوجه... سياسة الأرض المحروقة، وتعهد هذه للأعداء، لكنه رفض الانضمام إلى تصرفات سير.

وأسام محكمة نورمبرغ، أمام مدير إنتاج الذخائر في وزارة التسليح، دينر ستاهل، بقوله: «لأول مرة، وفي مفاجأة كبيرة لي، وجدت نفسي أسام وجبل كان يرى الوضع الواقعي بوضوح، وكانت عنده الجرأة ليس فقط للقيام بهذا النوع من الحوار المستحق لعقوبة الإعدام، بل كان فضلاً عن ذلك مصمماً على التصرف بشكل حارم» صحيح كذلك أنه وحده يستطيع أن يدفع عالياً ثمن مخالفة هتلر. وكان يعلم أن صديقه لا يملك الشجاعة للقيام بإعدامه.

عندما علم سير بصوت هتلر، غرق بالدموع. وراح يتأمل الصورة التي كان قد قدمها له في برلين مع كلمة إهداء كتبت بحظ



مرتجف تذكرُ الأتني عشرة سنة من الصداقة وأحلاهم  
 المشتركة في مجال المعارة، وبإيمانها إلى سراسل الأوبرا  
 والتوكبورك ونوتردام، ومنه المظلم من أكلة الصامت أمام  
 باليون، والشاربزيه وساحة تروكاديو حيث كان يتألم من  
 المدينة تحت أظفهم، والخطم البرقة أجرينيا عاكسة العالم  
 المتحولة لباريس الجميلة وجمعا، وذكرها تحت حميمية  
 من صفتهم، والرسلات التي حملها إلى المارشل بعد نوع من  
 الحر، وكافى الفرح أن أول كل أن كان يقبضه وبصمت  
 الأخير عندما اعترف له بأن يخالف أمره، كان مثل يقبضه وبصمت  
 على مر الرصاص الذي أنى كتبه في كسره بصحة حلفة  
 مكتومة، قال سير: «لا أعرف لماذا تشعربأس كبير بأن  
 الواحة المناسبات معي لا تكون إلا خلافاً لتوابع الشوق،  
 ومن جديد كان أدك ذلك وماجا، وعلا منهل العفروت  
 عتاه بالدموع وكان قد قال يوماً هيسر، سأوقع كل ما يأتي مثلك.

تفاهات من أجل مذبحه

لقد حمل له موت هتلر سوء، لكنه أتم تحرره. وكان يمكن أن تبدأ حياة جديدة، لو كسبت ألمانيا الحرب، لقام سير بتخطيط مدن جديدة في روسيا المحتلة، وبني لصديقه القوهور فيلا مطلية

#### جرائم الدولة

بمعذن البلاديوم في سوتشي، وتابع تجاهله لموتى معتقل دورا أو أوشتويتز أما وقد خسرت ألمانيا الحرب، فقد أرغمته محكمة المتتصرين على الاعتراف بالوقائع. فقبل مسؤوليته السياسية، لكنه أنكر أن يكون قد عرف الوقائع. هذا الموقف المتواطئ مع المحكمة، وهذا الشكل من التحلل من أصدقائه القداس صمنا له الظروف التخفية ومبدأاً يرنى له بعد الحرب.

وعندما سأله النائب السوفياتي ما إذا كان لم يتوقع الهجوم ضد الاتحاد السوفياتي، لكونه قريباً من هتلر، وفارناً لكتاب كفاحي دون شك، رد بجواب مكرر يعني هتلر من هذا الاعتداء المعتمد منذ عام 1940: «أستطيع في الواقع إعطاء بعض الإيضاحات في هذا الموضوع ولما كانت لدي الفرصة لهم هتلر عن كتب، فقد سمعته يعرض آراءه الشخصية، ولم تكن هذه الآراء تسمح لي بالاستنتاج أنه كان يملك مخططات مثل ما تظهره المستندات المقدمة هنا. وقد شعرت بالاطمئنان خاصة في عام 1939، حين قطعت معاهدة عدم الاعتداء مع روسيا، ومن المؤكد أن دبلوماسيتكم قد قرأوا كتاب كفاحي، الأمر الذي لم يسمعهم من توقيع معاهدة عدم الاعتداء. فقد كانوا أذكى مني بلا شك في الشأن السياسي» ومن هنا نفهم حماسة الأوساط المالية الأميركية لموضوعه. فذهبت صحيفة فوول ستريت، فيما بعد، إلى درجة مقارنة مذكراته باعتراقات القديس أوغسطينوس!

إنه كان يشق طريقاً مع فنيي القوى الغربية، وكان موعوداً  
سأجمل مستقبل، فكان حون كينيت غلريت وجورج بول ويول  
نيتريه يسألونه ما اهتمام كان يحدثهم مجاملة عن معجزة السلاح  
التي كان هو واضعها، بوعي كبير للحرب الجوية. وسرعان ما  
ازدحم المجهود للتحديث مع هذا التعبير المختلف كثيراً عن  
المسؤولين التاريخيين الآخرين والذي كان يشبه كثيراً مسائله  
المجهورين بذكائه وفكرته التركيبي. وكبر التعاطف معه إلى  
درجة إقامة الرحلات إلى باريس ويكون هو دليلها وسرعان ما  
جرى الانتقال من التنقي إلى السياسي وأعطى سبير رأيه برفاقه  
القدامى الذين لم يستبق له أن قضيهم أبداً وفي النهاية أودع  
مخفوفاته في مصرف في ميمبورغ.

لم يكن سبير يتوافق مع قضية الحلفاء، بل كما أشار إليه  
برادلي مع القضية الإنكليزية - الأميركية حتى في عدائه الكاس  
للسوفيانية كما عرفها بشكل مباشر. وكان يسر لأحد محاوريه بأن  
أميركا ارتكبت حطية بعدم تحالفها مع هتلر ضد الاتحاد  
السوفياني، لكنه من جهة أخرى لم يذكر أبداً العشرين مليون من  
السلافين الذين سقطوا ضحايا الجيوش النازية، إنما ضحايا الإبادة  
اليهودية فقط. وفي رسالة مطولة إلى مجلس مندوبي يهود أفريقيا  
الجنوبية في عهد التمييز العنصري، كتب: «اليوم كذلك، أعتبر ما  
يخصني مرراً، تحمل المسؤولية وبالتالي إدانة كل الجرائم بمعناها

#### جرائم الدولة

السلام، التي ارتكبت اعتباراً من دخولي في حكومة هتلر في الثامن من شباط/فبراير 1942... لهذا السبب اعترفت في محكمة نورمبرغ، ودائماً في ما كان يخصني، بمفهوم المسؤولية الجماعية، وظل موقفي دون تغيير فأبني أعتز دائماً أن عطشي الكثرى كانت عندما سمحت باضطهاد اليهود وقتل حوالي المليون منهم.

أمام حياة سيبر، يتولد الشعور بالرعب والاستهواء والقلق في أن معاً، الرعب أمام لا مبالاة تجاه الإبادة اليهودية التي لم يستطع تجاهلها، وأمام لا مبالاة بشأن مصير الملايين من العبيد المرغمين على العمل الإجباري تحت الإدارة العليا لوزارته، والقلق في وجه حساسية طفولية بالحاجة لحب استطاع الفوهرر وحده توفيره. وقلق أمام حالات الإنكار المتأخمة للخيانة، والمحر عن تحمل مسؤولية أفعاله، والدور المزدوج مع نفسه الذي اعتبرته نموس طيبة شيئاً من الندم. وقلق أمام هذه الحياة الخاصة لتنازع الرغبات بين عالمين، عالم البورجوازية الكبيرة التي هي منشأه ويعود إليها، وعالم العدسية الذي غرق فيه بانتهاج ولم يتوصل إلى الخلاص منه بشكل كامل، مفضلاً ألام الكذب على شجاعة الاعتراف. إنها استحالة الاعتراف بما هو غير قابل للاعتراف، وكثيراً ما حاول القطيعة مع أفضل أصدقائه لكي ينسى ماضٍ سيقي حتى انتهاء حياته الحقيقية القاضية على هذا الكاذب الأتيق.

#### مقرر للمقرر المسلف

إنها بالتالي جاذبية أمام معنى للتنظيم الاستثنائي، وأمام القدرة التي حصل عليها في دولة شمولية للتخلص من وصاية الأجهزة ومن أجل توجيه النداء للقوى الحية الصناعية، وأمام بصيرته شبه التسوية لأحداث الهزيمة والحرب الباردة وظهور المدراء وأمام الوضوح الذي يكشف له وراء الستار كلمات كبيرة من حقوق الإنسان والديموقراطية والسلام، في تحالف جديد تحت إدارة أميركية من أجل استعمار العالم عبر الحرب. وذاكرًا بنشبه، عند خروجه من السجن، من المستحيل إيمان النظر طويلاً في الهوة دون أن تمنح الهوة بدورها النظر فيك، إنه يعترف: «هذا يصغني بشكل تام».

وأمام جرائم النازية، كان موقف سبير مثل جميع المحررين عندما يكونون بدون أقنعة. لا استنكار للجريمة، بل إنكار للمشاركة الإرادية فيها. وموقف سبير هنا لا جديد فيه. فبالإختفاء وراء المسؤولية الشمولية ووقع قنطرة الريش كان يقضي مسؤوليته الشخصية ضمنًا. واعتبر القنطرة أن سبير غير المبالي بمصير الناس، لم يكن كذلك. حيال مصير مواقع الإنتاج، فأقروا له بالظروف التخفيفية لأنه «في المرحلة الأخيرة من الحرب، كان أحد الرجال النادرين الذين أظهروا الجرأة في القول لهنرل أنهم خسروا الحرب ودعا لأحد إجراءات - في الأراضي المحتلة كما في ألمانيا لمنع التدبير غير المعمول لمواقع الإنتاج»، بينما حكم بالإعدام على

#### جرائم الدولة

مساعده سوكل، البحار السابق والمسؤول عن دوائر العمل الإجباري. إن صراحة سوكل قضت عليه، ووقاحة سير أنفذه. والقضاة من البشر، ولكي يفهم من قبلهم، يجب أن يتكلم بلغتهم. وكان سير يستطيع ذلك، لأنه كان ينتمي إلى عالمهم، أما سوكل فلا.

إن التوافق بين سير وقضااته أعمق مما يعبر عنه حكم المحكمة. وباحتضار المستقبل بإشارة نوبة عرف ملاصة القلب القولاذي لقضااته العريين. كان فائداً حالماً وباطلاً. ووجهه الحفيقي هو وجه فني، ومدبر يعلن تعابير محجبة الوصول في تصريحه النهائي أن القضاة عرفوا شك رموزه: «إن كلوس عدد كبير من الناس هو هذا الخوف من رؤية التقنية تسيطر على الشعوب، وكاد أن يتحقق في نظام هنر التسليحي. وتجاز اليوم كل دول العالم حطرت المرور تحت تسلط الإرهاب المتولد عن التقنية، في ديكتاتورية حديثة، ويبدو في هذا الأمر محتملاً. وبالتالي، كلما أصبح العالم أكثر تقنية، كلما صار من الضروري موازنه بضرورة الحرية الفردية ووعي الفرد... لذا لا بد أن تساهم هذه التقنية بوصف القواعد الأساسية للتعايش بين جميع الناس». فحين كان يُعمر بهذا الكلام في أستراليا، كان الديموقراطيون البيض، يقومون بتصفيد المطاردة للسكان الأصليين

### الفصل الثالث

## سيرال بورو الجنرال أوسارس

من ألبيرت سبير إلى الجنرال أوسارس، هو المسار من الدكتور فوست إلى الأب يوسو. فالجلاد يتلفذ يوضع اليد على المعين، ولا يعد بينه وبين الجنرال أوسارس. فلا كذب، بل تكرار هاجسي لتبرير واحد، هو الدفاع عن الوطن، دون أن يخطر في بال الضابط الجمهوري الاعتراض بعدم القدرة على التصرف كما يتعامل مع فرنسيين أحرس يتمتعون من حيث المبدأ بالحقوق التي يتمتع بها هو نفسه. ثم بعد الوقائع برمن طويل، الاعتراف بالتعذيب دون أي إلزام.

كانت الحرب الجزائرية - حيث أصبح لأوسارس اختيار مواهبه - قد انتهت بسلام الشجعان دون غاليين ولا معلولين. وصدر عفو عام متبادل يحمي مرتكبي الجرائم من العريقتين ضد أية ملاحقة. وكان من حق الجنرال أوسارس أن يلوذ بالصمت

#### جرائم الدولة

وفي آخر حياته عدل عن ذلك، علناً أن جرائمه لم تكن لتتعمد لأنها ارتكبت من أجل القضية العادلة، قضية إبقاء الوجود في الحرائر بالقوة، والمعترة قضية الحصار في وجه انتشار الهمجية. وخلال عامين كان بول أوسارس يقوم بالقتل، وتلك كانت مهمته. وقيادته للجيش الفرنسي في الجزائر بين عامي 1955 و1957، قتل مئات الأشخاص بالسددس الرشاش، وأعدم وخنق وأغرق، وألقى من الطابق السادس. وقام بإعدام جميع السجناء الذين ألقى القبض عليهم، ولم يحصل أحد من هؤلاء على حق الدفاع عن نفسه. وعندما كان بول أوسارس يقوم بالقتل كانت العدالة بعيدة عن الساحة. كان يتخفى، ويقتل في الفيللات المعزولة، والأكواخ المنعزلة أو المناطق الحرجية. ولم يكن لديه تعليمات مكتوبة. كان يتلقى الأوامر بالتلميح، وهو على يقين بأن أشكال الرعب التي يرتكها تتوافق مع إرادة حكومة الجمهورية. فكيف وصل المقاوم السابق إلى ما وصل إليه؟ كيف أمكن أن يصل ذلك الطالب اللاع في الأدب، والحنان على أول جائزة ترحمة عن اللاتينية في المباراة العامة للمدارس والمعاهد الفرنسية وما وراء البحار؟ وهل أن القتلون الروماني، طريق الجريمة لأوسارس في هذا الحجم من الابتذال. كما يحاول التلميح إليه؟ أم بتقديم قائمة جرائمه، بوضع لاستهواء المجتمع للمشهد الذي بطن فيه كل كائن غريب أنه



سليمان بوزيد

فريد وجديدو بالانتهاء إليه، كالمرة ذات التدين الفصحين،  
والإنسان القرم؟

### بدء العمل

في عام 1954، كان بول أوسارس عسكرياً في خدمة دائرة  
التوثيق الخارجي وضد التجسس، جهة الإدارة العامة للدوائر  
الخارجية. وفي تشرين الثاني/نوفمبر تلقى تعيينه في السرية  
النصفية الواحدة والأربعين المظلية لمدينة فيليب فيل (اليوم  
سكيكدا).

وفي الجمعية الوطنية، أعلن رئيس الوزراء بيار منندس  
فرانس، أن حكومته تنهون في شأن مواجهة «أحداث» الجزائر.  
كما أن وزير الداخلية حينذاك فرانسوا ميتران أضاف، «لا  
مفاوضات مع أعداء الوطن. والمفاوضات الوحيدة هي الحرب».  
هذه حملة مثقلة بالاستنتاجات. فالقول عن الجزائريين المتمردين  
بأنهم أعداء الوطن، يعني وسمهم بالخصاية، ويعني اعتبارهم  
خارجين على القانون. وفي كانون الثاني/يناير 1955، غادر بول  
أوسارس مرسيليا للذهاب إلى فيليب فيل، في شمالي قسنطينة  
وأصبح فيها ضابط استخبارات مع السرية النصفية الواحدة  
والأربعين المظلية. ورغم إعلان القانون العرفي لوزير الداخلية،

#### حزب الدولة

فإنه لم يكن ممكناً إعلان حرب رسمية في الجزائر، لأن الجزائر كانت فرنسية حينذاك. أما منصب ضابط في الاستخبارات الذي لا بد أن يشغله أوسارس، فلم يكن موجوداً في زمن السلم. فكان لا بد من وإيجاده من لا شيء، كما كان يقول، لأن العقيد الذي كان يتقود السرية - النصفية ولم يعطه تعليمات ولا محفوظات. وتندرج المهمة المكلفة بها من الدولة منذ البداية في طي الكذب والكتمان.

فيليب فيل بالتالي، في هذا المنصب الذي لا وجود رسمي له، وفي هذه الحرب التي لا يجرؤ بعد على ذكر اسمه مبدئاً بإعداد أسلحته الأولى في الثامن عشر من حزيران/يونيو، تاريخ ولادة الدعوة للمقاومة من قبل الجنرال ديفول، وبعد وقوع أحد الاعتداءات، اقتنع بما يراه رجال الشرطة من ضرورة التعذيب. فقال عس هؤلاء المديرين وكانوا يعثرون بصوت منخفض عن آرائهم، لكن بدون حرج، حول هذه الممارسات التي يعرف عنها الجميع في باريس أنها كانت مستخدمة... ولم أتأخر في الاقتناع بأن الظروف كانت تشرح وتبرر أساليبهم

وأجبرى بالمشاركة مع رجال الشرطة «الاستجوابات الموسعة» هي أول الأمر بالفسريات التي غالباً ما كانت كافية، ثم بالوسائل الأخرى ومنها الكهرباء والتعذيب والماء. وكثيراً ما كانت

سوريل، مدريد

تستخدم مولدات مبدئية، لتغذية المحطات المرسلّة -- المتلقية... وكانت توضع منافذ كهربائية في الأذنين أو على الحصىتين للسجاء. وبعد ذلك، كان يرسل التيار الكهربائي طاقة ثابتة. ومنذ ذلك الوقت أصبح التعذيب والموت من حملات أوسارس في مسار هذه الحرب التي لا اسم لها وبالتالي فهي لم تكن موجودة.

وفي العشرين من آب/أغسطس 1955، وعلى بُعد 20 كلم إلى الشرق من فيليب فيل، وجد الجنود الفرنسيون في أحد مجام القحم الحجري جثث خمسة وثلاثين أوروبياً. فاعتقل ستون جرالياً في السجون، ليسوا بالضرورة أنهم مقاومون. وأخير الملازم قائد العقيد عبر الهاتف.

العقيد ماير:

هل عندكم سجناء؟

- نعم، ستون تقريباً ماذا أعمل معهم سيدي العقيد!

- يا له من سؤال! تأخذهم إلى القبر بالطبع.

هذا هو أوسارس في الواقع، الذي جاء إلى المواقع التي كلف بالعمل فيها. فبعد أن استحوذ لفترة قصيرة أحد السجناء، الذي اعترف بقتل أحد الأوربيين، أمر أوسارس أحد التابعين له: «خذ»، يجيب إعدامه على الفوراء. وبعد ذلك بقليل وجه الأمر بشأن السجناء الستين: «هتيا، قتلوا عن رجالكم مع مساعداتهم

#### جرائم الدولة

الرشاشة وجميع الأنشطة الممنوعة المتوفرة لديكم. وقام هو نفسه بإيقاعهم في صفوف ومعض قطاع الطرق مع العمال المسلمين الذين ساعدوهم ثم وجه الأمر بإطلاق النار عليهم. كنت لا سألياً كان يجب قتلهم، هذا كل ما في الأمر، وقد قمت به.

بعد بضعة أيام، قام أوسارس ورجاله بإحضار حوالي مئة سجين حدد، وجرى قتلهم أيضاً على الفور. هذه الإعدامات وارتفاعه سجناء معركة فيليب فيل (لم يُعرف إن كانوا عدة مئات أم عدة عشرات أو أكثر من ألف) كانت تحري بعناية وبسرعة. وكان هو يسهر حتى على إعداد حفرة يصل طولها إلى مئة متر وعرضها متران وعمقها متر واحد، ولا يفلتها في اليوم التالي إلا بعد تغطية الجثث بالكلس الحي المرسل من الجزائر. ويمكن التساؤل تحت أية قائمة كانت قيادة الأركان تضع حسابات خراء ذلك...

هذه الوقائع سرعان ما كانت تعرف في الجيش كله، وتثير عدداً من الاستقادات. وفي دولة حديثة بهذا الاسم كانت هذه الاستقادات جديدة بأن تؤدي إلى مثول أوسارس أمام محكمة عسكرية باسم جرائم الحرب. وفي عهد الجمهورية الرابعة أدت إلى العكس، فترقي أوسارس من رتبة نقيب إلى رتبة رائد وعين

سوريك بورير

هي هيئة أركان الحزب الماسوي، في إطار العمل «الموازي». وفي هذا المركز بعد تعلمه السريع في فيليب فيل سيعطي الأفضل من ذاته.

### فيلا الأبراج

في الخامس من كانون الثاني/يناير 1957، في الواقع يوم مائسترة الوظيفة، قال له الجنرال ماسو: «أعلم بكل ساطعة أنك الرجل المناسب للموضع، ولأجل هذا تم اختيارك. اليوم تسيطر حبيبة التحرير الوطني على مدينة الجزائر وتعلم ذلك كل يوم. اليوم ستقوم بتصفياتهم، بأقصى سرعة، وبكل الوسائل: إنه قرار للحكومة. ليس هذا عمل خدام للكاين». إن مهمته واضحة، لكنها يجب أن تبقى سرية. وقد خصص له مكتب لدى محافظ مدينة الجزائر وتغطية إدارية. وكلفت مذكرة إدارية «قانونية وعامة» بشكل رسمي بعلاقات بين الجنرال ماسو ودوائر الشرطة والعدالة. «هذا يعني بوضوح أنه يجب علي إقامة علاقات جيدة مع رجال الشرطة من أجل القدرة على الاستفادة منهم والعمل بحيث لا تكون بحاجة للعدالة أبدًا». ولم يكن مكان عمله الحقيقي في مكتبه في المحافظة؛ بل في بيت سري، وكشفه مساعده لمصطفى، في ضاحية مدينة الجزائر هي فيلا الأبراج. وفيلا كبيرة من طابقين وتحتها قبو، ومحاطة بحديقة مهملة. وفي كل طابق

أربع غرف... المكان الذي توجد فيه كان يبقى منعزلاً في معظم الأحيان. ولا جيران حولها، يمكن أن يتسبوا في إزعاجنا. وفيها تجري استجوابات السجناء الذين يحاولون إلباء.

كانت الاستجوابات تتواصل كل ليلة ممتدة تتناسب مع وصول السجناء. وعندما يطفئ العدد ويتراكم عبء العمل «تقوم مختلف فرق مدينة الجرائر بمبادرة خاصة معها بإرسال جميع السجناء الذين ليس لديهم الوقت لاستجوابهم، إلى قصر الأبراج. ورغم الضربات وأشكال العقاب في التحقيق، والإغراق في الماء، كان استثنائياً يعوت المتهمون خلال الاستجواب. وبعد أن يقولوا كل ما عندهم أو بعد أن يفهم أنهم لن يقولوا شيئاً، يكونون قد «استهوا» «كان من النادر أن يظل السجناء الذين خضعوا للاستجواب ليلاً، أحياء حتى الصباح الباكر. وسواء تكلموا أم لا، يكونون قد انتهوا بشكل عام... وفي معظم الأحيان يذهب رجالنا إلى مسافة عشرين كلم عن مدينة الجزائر في أذغال بعيدة ونطلق النار على المتهمين برشة من الطلقات الرشاشة، ثم يدفنون. أما تعذيب الإعدامات فلم يكن يجري في المكان ذاته. وكنت قد طلبت من مساعدي أن يهتم بتحديد الذين كانوا يخصمون لأعمال السخرة. كانت آلة القتل تقوم بعملها بلا رحمة وبنظام وبشكل شبه روتيني. كان بول أوسارس يبدو كأنه لا ينام و «في أحسن

سوريل بورو

الحالات، ساعتين في آخر الليل، وفي قبولة ساعة في النهار...  
وكنّت أصمد بشرت لثبرات من القهوة.

أما الحكومة الاشتراكية -الوسطية، فقد كانت تحظى  
بموافقة الشيوعيين على صلاحياتها الخاصة، ولم تكن تستطيع ألا  
تكون على علم بما يجري، مهما قيل عنها، من ارتكاب جنون  
القتل الذي كان يخرب الجزائر. وكانت ذكريات الجنرال أوسارس  
تحاول الاستعادة من تديد ظلمة وعباب الأكاذيب الرسمية. ففي  
باديء الأمر، كان أوسارس ينقل تقريراً يومياً إلى الوزير المقيم  
لاكوسست الاشتراكي. ممثل الحكومة، وإلى الجنرال مامو أحد  
عسكريي القوات الفرنسية الحرة (وأسفاه!) وإلى الجنرال سلالن  
القائد القسام. ويبدو كان يكتب رواية «الأحداث» في معكزة على  
ثلاث نسخ على ورق الكربون، وتحدد عدد حالات الاعتقال  
المنفذة من قبل كل وحدة عسكرية، وعدد المتهمين الذين يُقتلون  
خلال الاستجاب، وعدد حالات الإعدام المنفذة من قبل  
مجموعته أو من قبل الأنواع بلا محاكمة.

### قتل من مهدي

في شباط/فبراير 1957، اعتقل القيادي في جبهة التحرير  
الوطني، العربي بس مهدي، وعرض عليه الجنرال بيجار الذي

#### جرائم الدولة

باحتجراه، التعاون معه. لكنه رفض. فما العمل؟ ولجأ بيجار إلى استشارة القاضي بيرار، المستطلع السري في الجزائر الذي أصبح جنداك وزير العدل، فتصححه تلجأً فقتله.

القاضي بيرار:

- لو لم تكن فتشيت بن مهدي، لما أحدثت منه حبة ملح الحامض الأرق.

- ماذا نروي؟

- هيا! قال بيرار وهو يشدد على كل كلمة من كلماته، ليس منك أنتلّم هذا الأمر: جميع كبار القادة يحمطون حبة ملح الحامض... ما كان يطلبه مني بيرار، الذي كان يمثل العدالة، لم يكن ممكناً أن يكون أكثر وضوحاً.

وفصل العسكريون في نهاية المطاف الطريق إلى حبة ملح الحامض. فقد وصل أوسارس مع إثني عشر مسلحاً في سيارتي حبيب ودودج، وأعادوا بن مهدي إلى مكان اعتقاله. فوضع بسرعة في السيارة، وانطلق المركب بأقصى سرعة نحو مزرعة متعزلة على بُعد حوالي 20 كلم إلى الجنوب من مدينة الجزائر. وروى أوسارس «كنت قد أعطيت تعليمات دقيقة جداً إلى ضابط الصف الذي كان مكلفاً بحراسة زعيم جبهة التحرير الوطني: إذا هوجمنا، نقله فوراً. حتى وإن خرجنا سالمين، نطلق النار عليه دون تردد».



#### سوري، بورو

وفي المزرعة والمعارضة للجيش عبر أحد الأرويين، كان عشرون رجلاً من الكتيبة الأولى المغلفة قد كلفوا بإعداد زاوية في مبنى صغير لاستقبال بن مهدي فيه ليلاً. قمنا بوضع السجين في غرفة أعدت مسبقاً وكان أحد رجالي يقوم بحراسة المدخل وعندما أصبحتنا في الغرفة، حملنا بن مهدي، بمساعدة الرشا، وشتقناه بشكل يدعوا إلى الظن بعمل انتحاري. وعندما تأكدت من موته، طللت على الفور ذكّه ونقله إلى المستشفى.

#### موت السيد بو منجل

كان اعتقال السيد بومجل يطرح حالة ضمنية للعسكريين. فاستناداً إلى براهته وحياب الأدلة ضده، وعرض نفسه ليكون بريئاً من الاتهام. ويتذكر الرائد أوسارس قائلاً وتداولنا بالأمر طويلاً. أمام هذا التعبير وتداولنا (الذي ليس فيه شيء من القضاة) حدث الجنرال ماسو قائلاً: فأوسارس، إنني أحظر أن يهرب! مفهوم؟.

لقد فهم أوسارس، فواجه على الفور إلى مكان احتجاز المحامي، حيث توجد مجموعة من عدة أنية تقيم فيها كتيبة من المطليين، وهناك شرح لملازم أنه يجب نقل السيد بومجل، المعتقل في الطابق السادس، إلى مكان آخر تجنباً لهروبه، لكن دون المرور بالطابق الأرضي، ويجب أن نوفر له جسراً بين

النايات. وأضاف: «إنني أنتظر في الأسفل حتى تقوموا بذلك». كما فهم الملازم الأمر أيضاً. «انتظرت بضع دقائق، فجاء الملازم لاحقاً ليعلن لي أن يومجل قد سقط. قتل أن يدعمه من أعلى الجسر، كان قد قتله بضريرة نقیضة معول وراء الرقبة».

من الناحية الشكلية، طلبت الحكومة تحقيقات وتقارير، وطرح السواب القضية في الجمعية الوطنية. وأجري تشريح للجنة ولم يثر على أي أثر للعنف على جسم علي يومجل واستنتج أنه موت بالانسحاق. ولم يلق أوسارس إبه كان يدرك أن ماسو لديه دائماً الصوء الأخضر من الحكومة بواسطة القاضي بيرار «الذي يعرفنا، ولديه معرفة صحيحة لما يجري».

### أعضاء النوتردام الأفريقية

#### يجب ألا يصبحوا مثل من بلا!

في كانون الثاني/يناير 1957، اعتقلت كتية مارسل بيجار اثني عشر رجلاً متهمين بتنظيم محاولات اغتيال. مجموعة نوتردام الأفريقية. هنا أيضاً من كان سيصبح الجنرال بيجار لا بدو أنه يعرف ما العمل مع هذه المجموعة وسرعان ما طرح ماسو فكرة إرسالهم إلى «دغل بعيد»، واستفاد العسكريون الذين أدركوا ما يجري، من محي مأكس لوجون، أمين الدولة لشؤون الحرب من

سوزيل بورر

قبل حكومة عبي موليه من أجل رؤية ما لديه في داخله كما يقول ماسو وينتمي الضباط الذين يعلدون وينفذون يومياً، التأكد بشكل معين من أن الحكومة تدرك جيداً هذه التصرفات وتوافق عليها، إبهام متوافقون. وأسرّ ماركس لوجون إلى ماسو: «هل ننذكر الطائفة النسي كان بن بلا علي منها؟». عندما علمت الحكومة أن هؤلاء الرجال سيذهبون بالطائرة من المغرب إلى تونس، طلبت مطاردة الطائرة وإسقاطها. وإذا كنا العينا هذا الأمر، فقد نم ذلك في اللحظة الأخيرة، لأننا علمنا أن طاقم الطائرة فرنسي بالنسبة للحكومة إنه لأمر مؤسف أن يكون بن بلا قد ظلّ حياً. ويكون توقيفه شائبة إضافية».

عندما روى لنا ماسو هذه الرواية، علن، أوسارس: «إن هذا واضح جداً لي، سيكون عندي إثنا عشر رجلاً للإعدام في الليلة اللاحقة. وكان يمكن أن أترك هذا العمل المنع ليجار، لكنني فضلت القيام به».

### الضمان الاحتياطي للسلطة السياسية

ليس إقرار السلطات من فعل بضعة أفراد أو وزراء، بل هو شأن مؤسسي فإن أوسارس المعتبر إلى قوة الإحساس وليس إلى الذكاء. يقدم تحليلاً ناماً للوضع. وفي الثالث من نيسان/أبريل

#### جرائم قتل

1955 عندما اقترح البرلمان على قانون حالة الطوارئ الذي يقوي الروابط بين الشرطة ودوائر الاستخبارات العسكرية، ويكون قد حكم بوضوح بأن المقصود بتمويل المؤسسة في ما يمارس بشكل شبه رسمي... وقررت باريس سرّاً تصفية قادة حملة التحرير الوطني بكل الوسائل، وفي الوقت نفسه ذكرت بأن الورير المقيم روبر لاكوس كان قد أمر الجنرال ماسو باستئصال الإرهاب من الجزائر كلها، بمرح سلطات الشرطة للفرقة المعطلة العاشرة. وكتب أوسارس يقول: «كانت الإعدامات بدون محاكمة تشكل جزءاً متكاملاً من الأعمال الحتمية للحفاظ على النظام. ولأجل ذلك تم استدعاء العسكريين. فكان قد أقرّ الإرهاب - المضاد، لكن بشكل شبه رسمي. وكان واضحاً أنه يجب تصفية جبهة التحرير الوطني وأن الجيش وحده الذي يملك الوسائل للقيام بذلك. وكان من البديهي جداً ضرورة إعطاء الأوامر في هذا الاتجاه إلى أي مستوى مهما كان. ولم يطلب أحد مني بشكل صريح إعدام هذا أو ذاك. كان ذلك بديهياً. كان أوسارس إذن يعتبر أعمال الرعب التي يرتكبها نتيجة بديهية وشبه طبيعية للقرارات المتخذة من قبل الحكومة، رغم أن هذه القرارات لم تكن مصممة بوضوح وصراحة. كان يُفترض تلك القرارات أمراً لم تنص عليه، بل جاءت من رأس السلطة، باللجوء للإعدامات بدون محاكمة.

### وجهان للموت في الديمقراطية

في الجمهورية نوعان من الجلادين: من ينفذ الإعدام بعد محاكمة، ومن يقتل بدون محاكمة. والمقارنة بين هذين الوجهين ليس شأناً غير جدير بالاهتمام. فقد قتل أوسارس بضعة ألوف من الأشخاص بين عامي 1955 و1957. وهو يجهل العدد المحدد لهؤلاء الضحايا ويكتفي بالإشارة إلى 24 ألف سجين في الجرائر، وإلى «اختفاء» 3024 شخصاً، بتعبير يحول ليقول أنهم قتلوا.

أما الحلال الرسمي، أناتول ديبلر، فقد ظل يقتل خلال أربع وخمسين سنة، وكانت هذه هي مهنته. كان مساعداً، ثم رئيساً تنفيذياً لأحكام حرمية بين عامي 1885 و1939، وأعدم بالمقصلة 396 محكوماً بالإعدام. وكان لجميع المجرمين الذين أعدمهم الحق في المحاكمة عندما كان أناتول ديبلر يقتل، كانت العدالة هي التي تقتل، يعني أن الأمة والجمهورية هما اللتان تقتلان في صبح النهار. كان أناتول ديبلر يقطع الرؤوس في الساحات العامة، وأسام الجمهور. كان شخصية مبثلة، تدفع له الدولة، ويتلقى التلميحات المكتوبة. كان هاجس الحركة التقنية يستحوذ عليه، من أجل أن تقتل العدالة باتقان.

كان بول وأناتول يقتلان، أحدهما في غياب أية عدالة، والآخر باسم العدالة. ويعتبر الموت مهنة كليهما. كان أوسارس

حلاً في الظل ويسير بمحاذاة الجدران، ويقتل في الليل، وهو في وضع الاختفاء، أما ديبلر فكان يقطع الرأس في الصباح الباكر، أمام الحشود الضخمة، لأنه ينفذ قرارات العدالة. فيقتل أوسارس بوسانل داعمته. ويقتل ديبلر حسب كتاب محدد

### ديبلر بطل شعبي لمشهد عام

عندما دفن الرئيس التنفيذي للإعدام أباتول ديبلر، في 5 شباط/فبراير 1999، تنقل الجمهور في حي أوتوي، لحضور جنازته، وكان هناك أشخاص صعدوا إلى الأشجار، ووقفوا على الحدران حتى شبيلك البيوت التي تحف بالمقبرة. وكان يجب دفع المصورين فجلاً الجمهورية بفارق الحياة بالطريقة نفسها التي أخذ بها حياة الكثيرين على امتداد زمن ممارسة عمله: أمام مئات الأشخاص جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد.

### المشاهدون ثلاثون مرة أكثر

#### مما في مباراة لعبة الركبي

على عكس الإعدامات بدون محاكمة والسرية والليلية ليول أوسارس، تكون الإعدامات المقررة من قبل العدالة عامة، ونحري في المدينة في وضوح النهار. والجمهور يسارع لمشهدا.

#### سلاسل بورير

المشاهدون الأكثر عدداً كانوا في عام 1909. حينذاك كان يتجمع في حديقة الأمراء في باريس ثلاثة آلاف شخص في مباراة الركبي بين الفريقين الخامس عشر الفرنسي والنيوزيلاندي «أول بلاك». وحلال ذلك اللقاء تجمع في بيتون 100 ألف شخص لكي يشهدوا الإعدام المضاعف أربع مرات الموجه من قبل أناتول ديبلر فالأخوان بوليت وشريكاهما فرومانت وديرو، كانوا قد حكموا بالإعدام لارتكابهم سبع عمليات قتل وثمانية عشرة محاولة قتل، وفي معظمها ضد عائلات فلاحية أرادوا سرقتها. وقد عرفوا باسم «أربعة بيتون». وعندما وصل أناتول ديبلر إلى محطة بيتون، قادماً من باريس لتتبع إعدام الأربعة المحكومين، استقبل من قبل حشد كبير. . وكان الناس قد قدموا من كل مكان في فرنسا وبلجيكا، وكانت الطريق تستغرق عدة أيام في بعض الأحيان. وفي مواجهة هذا الجمهور الصاخب، اضطر أناتول ديبلر للإفلات من عربة مؤخرة القطار من أجل النزول من القطار. أو في محاولة لرؤية تنفيذ الإعدام توجه المئة ألف مشاهد إلى جوار باب السجن الذي تجري أمامه عمليات الإعدام، وذلك رغم المطر والبرد وسط المدينة. «في بيتون ظل الحديث يتردد طويلاً عن هذا الإعدام المضاعف أربع مرات. وقد عرضت مقهى مابار التي توجد قرب السجن فصح الجمعة الكبير الذي كان يشرب به ديبلر قبل أن يغادر بيتون».

#### جرائم الدولة

وعند العودة إلى باريس استقل أناتول ديبلر في المحطة من قبل عدة مئات من الأشخاص. وإذا وضعنا العدد الاستثنائي للمشاهدين جانباً، فإن هذا الإعدام المضاف أربع مرات لا يشكل استثناء. في كل مرة يقتل فيها جلاّد الجمهورية، يحري ذلك أمام جمهور من المشاهدين. ومن أجل اختواء الجمهور يوم مرور ألفرد بوسيز أمام المفصلة في شباط/فبراير 1899. الإعدام الأخير الذي جرى في حي روكيت - قام المحافظ بتعته مئة وخمسين حارساً من المشاة، وثلاثين حارساً من الفرسان.

#### علية المجتمع في المقدمة

في أيام تنفيذ الإعدام، كان المشاهدون يتجمعون في الساحة حيث توجد المفصلة. ويستطيع بعضهم بناء على إذن خاص من المحافظ الوصول إلى الأماكن الأقرب والأكثر راحة. وهناك يجلس الكُتاب والصحافيون والسياسيون والشخصيات المرموقة حينذاك.... ومع بعض النساء المشهورات والمحيطيات. وفضلاً عن ذلك «حول المشائق لا وجود إلا للمأمورين من الشخصيات الرسمية الذين يحددون القانون وبعض الصحافيين المرحص لهم بمشاهدة عملية الإعدام».



### الحبشة مع الكماة

محض الإعدامات كانت تتحول إلى أحداث اجتماعية. ففي عام 1882، أدين جان باتيست ترومان بعدة جرائم، إعدامها قتل ثلاثة أطفال في باتين، إضافة إلى جرائم أخرى، وجرى إعدامه بالمقصلة في جو احتفالي بورسوازي! وكان مدير سجن روليت قد وجه الدعوات لحضور هذا الحدث الاحتفالي. وقد جاء بعض المدعوين وحلبوا معهم بعض قطع الجميون والخبز وقتالي النيد لتخفيف من الشعور بطول الانتظار أما القائد الأمني، فقد دفع صاحب مطعم في الحي لإعداد حبشة مع الكماة .. فكان يحب الظهور بأي ثمن، كان يجب حضور المشهد، كان يجب أن يكون موجوداً... وبينما كان العسكريون الفرنسيون في الجرائز يحاولون إخفاء الإعدامات بدون محاكمة، وحده محافظ الشرطة، في مناسبة تنفيذ إعدام موجه من قبل أناتول ديلر، دعوة لضابط روسي ثابت: «من أجل الترفيه... حضر تركيب المقصلة، وهدام المحكوم، حيث تابعه بالنظر، حتى رأى جسده يتدحرج في السلعة».

### الإعدام في برنامج الرحلات السياحية

في السابع عشر من آب/أغسطس 1889، كان الإعدام المزدوج لـ «ألبرتو وسيليه» في برنامج الدورة السياحية المنظمة

#### جرائم الدولة

في غرف النوم في القطار من أجل المسافرين البريطانيين الذين جاءوا يقضون عطلتهم في فرنسا وفي الوقت نفسه، حادت سبع سيارات كبيرة مليئة بحوالي ثلاثمئة سائح، وتوقفت في محيط السجن... وتوجه جميع هؤلاء الأشخاص إلى أثرب ما يمكن من المفصلة - وحصصت الشرطة أكثر من مئة عربة حنطور في الشوارع المجاورة للسجن. فكان السادة والخدم قد استجابوا لتداء الدم. وغصت النوافذ والشرفات بالمشاهدين، ووقعت المشاهدات على المقاعد العامة، وأثرت الكراسي بسمر غالٍ جداً.

#### الشعب يهلل للفاعلين

إن أمانول ديبلر هو القاتل باسم العدالة الرسمية، وهو بالتالي شخصية شعبية. فكما يقابل الممثل في المسرح، كان ينطلق الصراخ «يحيى ديبلرا». ولا يظهر أوسارس أبداً في الصحافة، وعلى عكس ذلك يتخذ ديبلر موضوعاً للعديد من المقالات على امتداد ساحتها. وتقدم المجلات المعتادة على استعادة صور رودين وجورس وكليمنسو رؤيتها لجلاد الجمهورية في صورة له إلى جانب المفصلة، في اللباس الرسمي والبرنيطة، وتوزع على الجمهور العام على بطاقات بريدية!

والمفصلة هي الفاعل الثاني في الإعدامات، هي تستقبل الزائرين في مقرها الرسمي في شارع، فولي - ريبو من رجال

#### سوريل بورر

الدولة والبعثات الأجنبية (بأنني بعضها من الصين) وذوي  
الاستثمارات. أمام هذا الجمهور المحدود يقوم ديبلر بتجاربه على  
رزمات من القش. وتترك شجرة المفصلة من علو 4.5 م (الارتفاع  
ألتها) بسرعة 20 كلم في الساعة وتقطع الرأس في جزئين من مئة  
من الثانية. وفي كل مرة يكشف دور الفاعلين ونوعية «أداء» الجراد  
من قبل الصحفيين. ولا يستقص هؤلاء أي واحد من «مشاهده»  
المفصلة. ويوم إعدام القوضوي إميل هنري «كان هناك حوالي  
ستين صحافياً بينهم امرأة مسنة شبيهة شكلت موضوعاً لفضولية  
عامة، دون أن تشعر بأدنى انزعاج من ذلك. وكانت تحدث  
بسرور مع جيرانها، أو حتى مع ضباط شرطة البلدية الذين كانوا  
يمارحونها. وكان رقباء المدينة يمرون وهم يضمون السيجارة أو  
الطين في القم. كان الكل يدخس». وعندما نفذ أناتول ديبلر إعدام  
ألفرد بوتنيز في شياط فبراير 1899، نقلت «الطبقات الخاصة» في  
اليوم التالي أن السفند الجديد للإعدام «أظهر اطمئناناً لحركته،  
ونظرة ترفع على الإعجاب». وكانت شهرة أناتول أنه أكثر حيوية  
وأكثر دقة من والده لويس، مع احتفاظه بالتدقيق المفرط. ويصل  
الصحافيون إلى درجة قياس الزمن الذي يستغرقه لإنزال رأس  
المحكوم عليه... ويعتبر البعض أن ديبلر كان ينفذ عمله بسرعة  
وينجز العمل بسرعة.

### ديبلر موظف و«ميكانيكى» رسمي لدى العدالة

نهار الجمعة في 13 كانون الثاني/يناير 1899، عندما تلقى أناتول ديبلر أول أمر بتولي مهمة رئاسية تنفيذية للإعدام، وحدد له موعد مع الممثل الرسمي للعدالة، النائب العام في الجمهورية، الذي قال له: «ها أنت مستعد دون شك للقيام بواجبك كخلف جديس بوالدك... مما قيل لي أن لديك الحركة الموثوقة والسرعة المنتظرة منك». كما إن الشعب هو الذي يحكم على المجرم بالموت، بالتفويض خلال سير الدعوى. وكان آل ديبلر مكلفين بتطبيق قرارات المحلفين وقضاة محكمة الجنايات، وعندما يستقلون سكين المفصلة «يكونون بأمر صوت الشعب... عدما يصبح المحكوم عليه يمس أيديهم لحظة إجراجه من السجن، ويكوسون أمام حساب الأمة بأسرها، ويكون أناتول ديبلر «مفلاً بالتفويض»

ويجد ديبلر نفسه مرغماً على تنفيذ إجراءاته من قبل الوزارة التي يرتبط بها: لأن العدالة يمكن أن تكون بحاجة له في كل لحظة، ولا يستطيع مفاداة باريس بدون إجازة. وإذا أقيم في غير منزله، يكون ملزماً بإيداع عنوانه المؤقت في المكتب الأول للشؤون الجرمية وإذا قام بأي سعر، عليه إيداع دليل سفره، وإذا

#### سوريل بورير

لم يفعل ذلك مرة واحدة، يُعتبر مرتكباً للخطأ. وهو لم يكن فيلسوفاً ولا مشرعاً ودوره أن يقوم بالتنفيذ وإذا لم ينفذ. يفقد اعتباره في نظره ونظر الحكومة التي يعمل في خدمتها.

كان أوسارس في آن معاً الشرطي الذي يعتقل، والقاضي الذي «يحقق»، القاضي والجلاد، أما ديبلر فلم يكن أكثر من متدخل بين كثيرين آخرين، بعد الشرطي وقاضي التحقيق والقضاة ومحكمة الجنايات... وخلافاً لأوسارس الذي أقام ووجه نظاماً للقتل دون عدالة، فإن ديبلر، في إطار مكنة - العدالة، ليس إلا الدولار الأخير... وفي موضوع الإعدامات كان لويس ديبلر والد أباتول، يقول: «لست مع، ولست ضد، ولست لا شيء» أما ديبلر الآن فيبصر نفسه متدخلًا تقنياً بسيطاً. وكان المحللون يوحسون لمن سيقطع رأسه كلاماً يقول: «إنه إجراء شكلي، أيها السيد، وعلينا القيام به».

يظهر هذا النظام لدولاب العدالة، كحلقة أخيرة في السلسلة الرسمية، بقدر ما تكون الحركة البريدية للإعدام مقننة في الدولة أما أوسارس فقلما كانت تهمة وسائل إنهاء المشيوعين: الفرق أم التثاق أم رشة من مسدس رشاش، أم السقوط من الطابق السادس. مقابل ذلك، فإن نظام الرسمي هو الذي يعمل على ديبلر تقنيات القتل في أدق تفاصيلها وتأتي الحشود لشهدها. وفي

#### جرائم قذولة

النص الذي تضعه وزارة العدل يتحدد أن على المحكوم وأن يظهر مربوط اليدين والقدمين ومقوضاً عليه من قبل مساعدين، وسنداً إلى لوحة تأرجح تحت ثقل جسمه، وبعد أن يفقد السيطرة على نفسه يكون المحكوم عليه ظاهراً تحت عين المفصلة، في هذه اللحظة الحاسمة يكون الرئيس التنفيذي إلى شمالي الجهاز، ويده اليسرى على رافض عين المفصلة، ويده اليمنى يمسك الرافعة الكبيرة لشفرة المفصلة، وتحدد النذرة عنها أن على الحلال وأن يضغط في وقت واحد باليدين الاثنين، فتسقط عين المفصلة على عنق المحكوم عليه، وتمسك برأسه، بينما تقوم شفرة المفصلة بقطع الرأس على الفور. وأخيراً تؤدي «دعفة صغيرة لجسم المحكوم عليه إلى دحرجته إلى السلة. وفي السلة ذاتها يُفترغ السطل الذي سقط الرأس فيه، ثم يطبق الغطاء على السلة. ذلك هو نمط استخدام أتبع بشكل أعمى من قبل أناتول ديبلر في كل حالة إعدام قام بتوجيهها.

إن جميع الحركات التي يطبقها المنفذ للإعدام، قبل وبعد العملية، تكون مقتصرة بشكل رسمي: فيجب نقل المفصلة إلى أمانة التنفيذ، ويجب إعادتها إلى مكان حفظها، كما يجب صيانتها. هذه القوتنة الرسمية التي تكمل شرعية القرارات القضائية في الإعدام، تسمح للحلال بشكل رمزي ألا يعتبر قاتلاً، بل إنه عمل في الواقع كمساعد للعدالة.

سوليفان بوربر

ولم يكن أناتول ديبلر بصفته جلاداً، بحاجة لتبرير أعماله. وعلى استناد هذه الأعمال، لم يقل شيئاً من شعوره تجاه عقوبة الإعدام ولم يجب أبداً عن هذا السؤال عندما طرح عليه. «لا شك في أنه كان يقوم بعمله على أفضل وجه، لكنه ليس من الواجب أبداً أن يُطلب منه تبرير عمله أمام العالم !! فالمغفد للأعمال الكبيرة يجهد لإقامة عدالة تامة قدر الإمكان... لأن أناتول ديبلر مصير للعمل الجيد.

ولمّا كان أوسارس يحتفظ بمفكرة تذكيره، كان أناتول ديبلر يتغذ مدقة سجل تنفيذ الإعدام. كان الجلاد السري للجيش الفرنسي في الجرائز يسجل في آخر كل ليلة عدد ضحاياه، والجلاد الرسمي يقدم حساباً لمهمته قبل وبعد كل عملية إعدام. لكن أوسارس في هذه الأوراق المخصصة لترتيبته لا يقدم أي تطابق، ويحول الإعدادات بدون محاكمة إلى حالات هروب فاشلة، كان يكذب إذن، وكان أناتول ديبلر يقدم بياناته أداءً لحسابه الشخصي، وفي كل عملية إعدام يذكر بالجرائم المرتكبة من قبل المحكوم عليه وليس عنده ما يُشغل البال شرعية أو قانونية أعماله، ولا لمدلول الإعدادات التي يوجهها. هذا الغياب لروح من البحث عن المعنى هو الذي يميز أناتول ديبلر كمتعمد دقيق للعدالة، عن بول أوسارس القتائل السري للجمهورية الخامسة. ويشعر هذا الأخير بالحاجة لتبرير نفسه، ولم يوضع النظام القضائي لطروف استثنائية

للعامة. وقد كتب في هذا يقول: «العدالة منظمة حسب نموذج يتناسب مع البلد الأم في زمن السلم. ونحن هنا في الجزائر، في حرب قد بدأت». وحججه ضد العدالة هي حجج هتلر الذي كتب قائلاً: «لا يستطيع رجال القانون فهم أن قوانين أخرى تعمل في المراحل الاستثنائية. والأمر ذاته في تبريره للإعدامات بدون محاكمة». وعندما يطلب من العسكريين إعادة النظام إلى الجزائر، تكون السلطات المدنية قد قبلت ضمناً مبدأ الإعدامات بدون محاكمة. وكان هتلر قد قال: «لقد أعطيت الأمر إلى هيملر بتصفية كل من يوجد في معسكرات الاعتقال، في حالة الخشية يوماً من حدوث اضطرابات داخلية».

إن رجلاً يقوم بتعذيب سجين وتصفيته بعد تعذيبه يمكن أن يظهر وحشاً في نظر الرأي العام. ويعترف أوسارس: «كنت غير مبالٍ أمام وجوب قتلهم، هذا كل ما في الأمر، وقد قمت بذلك». ويزعم أنه تألم بعد التفكير: «فقد تعلمت أن أكون غير مبالٍ بالمي وبألم الآخرين». هكذا انتهى مع نيرات متصوف كبير آخر اسمه هيملر، قائلاً: «الجملة القصيرة: يجب إبادة اليهود سهلة للفظ، لكن ما يتطلب من الذين يكلفون تحقيقها عملياً هو الأمر الأكثر قسوة وصعوبة في العالم». أظن أنني أستطيع القول بأنه أحسن العمل معها دون إلحاق الضرر بمقول رجائنا وقادتنا.



القسم الثاني

الملهاة القضائية

العدالة الموهمة



كل مجتمع بشري يستلزم نظاماً عاماً، هو نظام عصابة. وهذا النظام في جوهره غير عادل لأنه يقوم على سيطرة فئة اجتماعية على الآخرين. وتشمل هذه الفئة القوى المسلحة والكهنة والسادة والبرجوازيين الصناعيين أو الماليين، وذوي النفوذ الآخرين لكن على عكس العالم الحيواني، فإن المجتمع البشري يتطور. لأنه يتدقق النمرة الحسنة والسببة، ولأنه يرى نفسه هي مرآة ما يطمح إليه، ولأنه وحده الذي يتساءل حول موقعه في الكون، والإنسان مدعو لإثارة الجدول حول النظام والطقوس التي تحكمه.

ولم يسبق أن تصوّرتْ عاملة في القفبر أنها تستطيع القيام بإضراب، في أحد المصانع، بلس. إنها مستفكر فيه، وإمكاناتها الاشتغال إلى التنفيذ رغم القانون الذي يحظر عليها ذلك واللبوة لا تستطيع أن تجهض، والمرأة ملء، رغم القانون الذي يحظر عليها ذلك. والذئاب لا تأكل بعضها، والرجال ملء.

القانون حرام يمسك الجسم، لكنه يمنعه من الترحل، فمأجلاً أو آجلاً تظهر التناقضات داخل المجتمع. فعندما تكون ثانوية، يأخذها القانون في الاعتبار، ويثيرها، ويتطور المجتمع. وما كان محظوراً السارحة يصبح مساحاً اليوم. الإضراب والإجهاض، يتكاملان مع النظام الاجتماعي. وتأتي لحظة تعارض فيها الحياة النظام السابق، ليس في تفاصيله بل في أساسه، وحيث لم يعد التناقض بسيطاً بل تناصرياً، وحيث يطرح مسألة السلطة.

#### جرائم الدولة

في هذه الأثناء، يمكن لمصلحة الدولة، التي تستوجب القتل الواسع، أن تستوجب القتل المنتظم ضد الشخصيات. هذا ما قام به ستالين للتخلص من ترونسكي في منفاه في مكسيكو لكن أعمال القتل السرية ليست ممكنة دائماً. ومن أجل استئناف هذا المثال، كان ستالين يتهم المارشال توكاتشيفسكي بالتحضير لعملية إغلاية. لكنه لم يكن لديه أي دليل، وكان من المستحيل القيام بذلك بسهولة في موسكو، فلجأ إلى حيلة تؤدي إلى الحكم عليه بالإعدام. بانهامه بالخيانة مع ألمانيا النازية، على أساس تزوير لا يمكن التحقق منه لكنه مقبول، ويستند إلى التورط بعلاقات بين كوادري في الجيش الألماني وأمثالهم في الجيش الأحمر.

وفي براغ، خلال محاكمات لقياديين في الحزب الشيوعي التشيكي، تذرغ الغضاة ضد آرثر لوندون بالعلاقات التي أمكن له أن يقيمها في المنفى مع منظمات تعاونية يهودية، وإقامة علاقات مع الدوائر الأميركية. ومن أجل مطاردة الشيوعيين كان هنتر قد اتهمهم بإشغال الحرائق في المجلس التشريعي الألماني. كانت هذه المحاكمات معارك في الصراع، وتميزت دائماً بشخصية الغالب الذي تنتصر فيها استراتيجيته، وكان على الغالب أن يضيف إلى معنى الدولة فدرراً كبيراً من الواقعية التي تقارب الواقعة، لأن الدعوى في جوهرها في كل حال نوع من الكذب.

#### المهابة القضائية

إنها المهابة القضائية التي ليست هي من اختصاص عصرنا، بل هي موجودة دائماً، كما تظهر ذلك القضيتان اللتان ستفحصهما. الأولى، دعوى فرسان الهيكل، في عهد فيليب لوييل، في عسق العصر الوسيط، والثانية دعوى المستحوذ عليهن في لودون، في عهد لويس الثالث عشر، في فجر العصور الحديثة. أما في قضية فرسان الهيكل، فإن الدول التي لا تستطيع قبول أن تغلت جمعية قوية من رقابته، تقرر تدميرها عبر دعوى هرطقة. وتقوم به اعتباراً من إشاعة تنسح وترسح استناداً إلى التعذيب أولاً ثم إلى الرأي العام بعد ذلك. وتتقدم العدالة موهمة. فلم يكن ممكناً لفيليب لوييل أن يعترف، أمام شعب مسيحي، بأن ما نلام عليه الجمعية هي ثروتها وطامعها المتجاوز للحدود الوطنية واستغلالها. وسيؤدي بالتالي إلى ملاحقة فرسان الهيكل بالفساد... وتشكل ذلك مساراً طويلاً لسبعة أعوام أدت إلى انتصار محرقة الجزيرة، حيث هلك السيد الكبير جاك مولاي.

أما قضية جماعة لودون المستحوذ عليهن، فإنها ذات طابع مختلف جداً. ويتعلق الأمر هنا بمصير فرد وليس بمصير نظام، ولا يستطيع ريشيليو أن يتأخذ على أوربين غراندبيه صداقته وكتابة نشرة محاثية مجهولة. وسيجت قضية لإداته في المحرقة بالتواطؤ مع الشيطان.

#### جرائم القولة

وللتنجاح في هذه المحاكمات، لا بد من إخضاع الاتهام إلى شروط.

1 - المتابعة بغير مشتركة، مما يرغم المتهم بالإجابة على هذا الأساس، فيضطر بالتالي للدخول في لعبة يجيد التحايل بها.

2 - إمتلاك قساعة هشة أو صلبة، مجرد إشاعة أم وقائع جيلة الثبات، ويؤدي الاتهام على أساسها إلى تمتع الرأي العام

وعندما أعلن رئيس الجمعية الوطنية في عام 1958، السيد لوتروكي أحاديث معينة بحق الجنرال ديغول، لم يطل الوقت حتى بدأت ملاحظته بسبب مشاركته في فرق رقص وردية مورطة للقاصرين وعيناً حاول أن يعرف أن هذا ليس هو اللوم الأساسي الذي توجهه له السلطة، وكان مرغماً على الرد على الأرضية المحددة من قبل الحصص. محامية القاصرين قيمة عامة في المجتمع الفرنسي، والاتهام مستند، وقد اضطر لقبول التحدي الذي يؤدي في النهاية، وهو يعلم ذلك، إلى إقصائه سياسياً.

في هذا النمط من الدعاوى التي تمثل فيها العدالة قناعاً، إذا اجتمع الشرطان اللذان تحدثنا عنهما أعلاه، حتى وإن كان أساس الاتهام ثابتاً، فإن المتهم لا يستطيع توجيه نداء إلى الرأي العام ضد فضائه، على العكس القساة هم الذين يستطيعون الاعتماد على الرأي العام.

## الفصل الأول

### فرسان الهيكل

في عام 637، استولى المسلمون على القدس وتسلموا خلال زمن طويل برسم مرور الحجاج المسيحيين إلى «الأرض المقدسة»، حتى تدمير قبر السيد المسيح من قبل الخليفة الحكيم في بداية القرن الحادي عشر. وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر 1095، دعا البابا أوربان الثاني للحرب الصليبية. وسرعان ما انطلقت أربعة جيوش: النورمانديون والفرنسيون من شمال ووسط فرنسا، واللورين والألمان، والنقوا جميعاً على البوسفور في ربيع 1097 واستعبدت «المدينة المقدسة» من «الكتف» في 15 تموز/يوليو 1099. وصار بإمكان الحجاج القيام بزيارة قبر المسيح من جديد.

كان لا بد من استقبالهم حينذاك. تلك كانت مهمة المستشفى الذي حدد نظامه في عام 1113، برعاية ممرضات راهبات السان جان في القدس. وكانت الطريق من بابا على الشاطئ إلى القدس منصوبة بالكمائن. وكانت كمان العرب

#### جرائم الدولة

والخصوص كثيرة. كما كان لا بد من تأمين حماية المسيحيين. ووقعت هذه المهمة على فرسان الهيكل، وكانوا القوة العسكرية الأساسية (مع الممرضات الراهبات والفرسان التوتونيين) التي كلفت بحماية الدول اللاتينية في الشرق خلال ما يقرب من قرنين، ويعود اسمها في الواقع إلى بودوان الثاني، الذي توج ملكاً على القدس في 11 آذار/مارس 1118، وأُنزل أوائل الفرسان في قصره الذي أُقيم على هيكل سليمان القديم.

وفي عام 1119، لم يكن عدد «فرسان المسيح الفقراء» وهيكل سليمان» بقيادة الفرنسي الشابينوا هورغ باين، يتجاوز عدد أصابع اليد. وكانوا قد نذروا أنفسهم بدافع الفقر والنفقة والطاعة تقليداً للنظم الرهبانية. وللغرض باعتراف الكنيسة كان لا بد من قبول نظام محتفظ من الرهبنة والخدمة العسكرية: المهمتين غير القابلتين للتوافق أولاً في المجتمع الإقطاعي. وكان لا بد من دعم المتعبد الكبير ورئيس دير كليرفو، فديس المستقبل بيرنار، من أجل الحصول على الاعتراف النهائي بميليشيا الهيكل في المجمع المسكوني في مدينة ترزوا في عام 1129: «إنهم مطعمون بشكل تام لرئيسهم، ويتجنّبون كل ما هو غير ضروري في الغذاء واللباس ويعيشون بشكل مشترك في مجتمع ودود، ومتششف، ودون نساء ولا أطفال، ودون ملكية أي شيء خاص، حتى إرادتهم... وكانوا يكرهون ألعاب الشطرنج والسرد والصيد وتربية الطيور... وعند



#### مرسان الهيكل

اقترب المعركة يتسلحون بالإيمان في داخلهم وبالحديد في خارجهم... ويثيرون بقوة على العدو دون خشية لعدد ولا غضب الهمجين، والثمن ليس نفوتهم، بل بقدرة إله الجيوش، هكذا كانوا يجمعون معاً وداعة الرهبان إلى شجاعة الحود...».

ووصع الجميع المسكوني لمدينة نروا نظام الهيكل. فالواجبات الدينية ونمط العيش، والتنظيم الهرمي، والسلوك في الحرب كلها مفصلة فيه بعناية. وسمح للفرسان ارتداء المعطف الأبيض الذي سيُزين اعتباراً من عام 1147 بالصليب الأحمر المشهور. وشدة الانضباط الملزم داخل الجمعية، كما شُددت العقوبات المرتقبة للمخالفين. وأصبحت المتاجرة بالأشياء الكهوسنية، إفشاء أسرار الهيكل والخيانة والسرقة والإنفلت والفساد واللواط، كلها تُؤذي إلى الإقصاء والنفي. وحدثت عقوبة فقدان الشوب لمدة سنة كاملة، في حالات العصيان والمشاكرات بين الأخوة ومعامسة النساء. وفي حال ارتكاب الأخطاء الأقل خطورة، حددت عقوبة فقدان الشوب لمدة ثلاثة أيام، والصيام والتوبة.

وفي مساحة المعركة، كان مرسان الهيكل يحصلون على شهرتهم كجنود مخيفين. ويرغمهم قانون قيمهم على عدم التراجع أمام العدو، وألا يطلّسوا أبداً منة عن ذلك وكانوا يتمتعون

#### حرائم الدولة

بامتيازات غير عادية وبإعفاءات منحت ببراءتين في عامي 1139 و 1145، وحصلوا على الإعفاء من الغشتر برعاية السلطة المباشرة للبابا، لكنهم كانوا يجنون جميع الرسوم العائدة لأراضيهم. وكان من حقهم أن يكون لهم كهنتهم وكنيستهم ومقبرتهم وبياء «بيوت» لهم ومقبرات، وعلى امتداد عشرات السنين اللاحقة، كان الهيكل يتلقى هبات هامة جداً - نقدية وعقارية وأموالاً - مقدمة من قبل أساقفة ورؤساء أديرة ونبلاء. واعتبر هذا النوع من الدعم للحملة الصليبية ضماناً لخلاص نفس الواهب الكريم. وتدرجياً أصبح الهيكل في أوروبا ملكية لعدد يتزايد أكثر فأكثر من ولاية الأمر. وفي بعض الأحيان يتعلق الأمر بمواقع مهمة تكون في الغالب مزارع كبيرة، مشتملة على كنيسة صغيرة ومسزل وحظيرة للحيوانات. وكانت مقرات أولي الأمر تصبح مراكزاً لأموالك زراعية واسعة، تنسج في الكثير من الحالات إلى أراضي مهمة أو مستنقعات، وتوفر المداخيل والمحاصيل الضرورية للحملة الصليبية، وترس فيها الحبوب الضرورية في الشرق. كما كانت تشكل ملاجئ للأخوة والفرسان المنتمين أو الجرحى، بعد عودتهم من الأرض المقدسة.

#### فرسان الهيكل

وخلال القرن الثالث عشر، كانت قوة وثروة الهيكل نستمران في النمو. ولم يمر ذلك دون إثارة أشكال من الغيرة، داخل الكنيسة في أول الأمر. وكان البعض، منذ بدايات تشكيل الجمعية، ينظر بعين تنقيح التواطؤ بين المهام الحربية والدينية من قبل «مليشيا الله» وكان الأساقفة الذين لا ينتمون بأية سلطة عليهم، يستأثرون من ذلك، لكن قسماً من رجال الدين كانوا يشعرون بالسوء من حرمانهم من مداخيل كنيسة محولة لصالح الرهبان – الفرسان. وظهرت أشكال من الحسد داخل طبقة النبلاء؛ كانت أملاك الجمعية تجلب في بعض الأحيان مدحواً أكبر من نتائج أملاك النبلاء. وكان ظل تحصينات جمعية الهيكل تصل إلى أبراج القصر المجاور. وبما لشماسة النبيل الذي يتندي على أملاك الهيكل: فيُترفع الأمر إلى البابا ويرفرف حطر الحرم الكنسي فوق رأس المتهور.

وفي قبض من الشماسة، يدخل فرسان الهيكل في نزاع مع السلطة الملكية. فقد شهدت نهاية القرن الثالث عشر في الواقع أوج ما وصلت إليه السلالة الملكية الفرنسية حينذاك. أما حالة أهل الهيكل، فلم يسبق أن كانت في وضع صارخ إلى هذا الحد، ولم تكن متوافقة مع أمامي الفقر للأخوة الذين اشتهروا بتفصيل الشرب وحياة الدخ على التأمل والحرب! وكانت عودتهم إلى فرنسا خياراً خاطئاً، في حين كانت الفرق العسكرية الأخرى لا

#### جرائم الدولة

تزال تواجه في إسبانيا مسلمي أوروبا وأفريقيا حينذاك: كان ذلك يعني عدم جدواها. وكانت الملكية تقلق من جمعية غنية وقوية وخاضعة لسلطة البابا وحدها، وطمحة لإظهار استقلالها والتصرف حسب اعتبارها الخاص. وفي محيط فيليب لوبيل، يمكن تذكر بعض الحوادث المزعومة. ففي عام 1191 رفض فيليب أوغست دخول سان جان. والأكثر خطورة أن فرسان الهيكل قد تأفقوا من دفع تكلفة المدينة (ثلاثون ألفاً!) التي طلبها سلطان مصر من أجل تحرير سان لويس: فقد وجب عليهم تحت الإكراه، فتح صناديقهم المحمولة على مراكبهم.

في هذا السياق تسلم فيليب الرابع، الملقب بـ«الوسيم» والمتحيز المباشر من هوغ كابيت، حفيد سان لويس، عرش المملكة الأكثر سكاناً في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1285. ويزواجه من جان دونافار، خُسم إلى مملكته متطقتي شاسياتيا ونافار. واعتمدت حكومته على المجلس الذي يسيطر عليه «القانونيون»، وهم رجال ليسوا بالضرورة من محند عال، ولا من أكثرية من رجال دين، بل يتميزون بمعرفتهم للقانون الروماني. وسيستل المششاورون الأساسيون وهم سيار فلوت، غليوم دون توغارت، وانصرايد ماريسي. وكان فيليب لوبيل بصفته وريثاً جديراً لجدته، وشديد الإيمان. وكان يزداد تقوى كلما تقدم به العمر، وأراد أن يتولى مهمة مقدسة، لا يتردد باسمها في التعارض مع الرأى

#### لرسال الهيكل

الحكومية الإلهية للبابا بونيفاس الثامن، وفرض عدالة الملك في وجه امتيازات مجلس الشيوخ الروماني وقد قام أسقفان بحساب نفقات ذلك، برنار سيبه المتهم بمؤامرة في عام 1295، وغشار مس مدينة تروا المتهم بالشعوذة في عام 1308. قبل أن يتسهي بناء الهيكل.

أما إحدى التفسيرات المقدمة لاعتقال بعض فرسان الهيكل فكانت تقول إن الملك يعمل لاحتكار ثروة جمعية الهيكل. لا شك في أن المبلغ الذي وضع يده عليه خفض في حينه عبء الصندوق الملكي، لكن «خزيته» جمعية الفرسان ستوزع على جمعيات أخرى بعد تسوية الأمر (في كل حال تصل نفقات الحراسة والصيانة إلى مبلغ 200 ألف ليرة). وفي الواقع، إن الرهان على شأن آخر: إن ثلوث الاستقلال المالي والعسكري والقانوني لـ «فرسان يسوع» غير قابل للتوافق مع التحول من «منطق الإقطاعي» إلى منطق الملك، حس تغيير جان فافيه، ولا يستطيع فيليب لوبيل التساهل مع سلطة مضادة داخل مملكته.

في صباح يوم الجمعة الثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر 1308، تقدم أسماء الملك وفضائه مع حراسة جيدة من أبواب «المقرات» التي يسكن بها إخوة في الجمعية. وكانت منتشرة في جميع الولايات، وفي الغالب في نقاط استراتيجية، وفي مراكز

#### حرائم الدولة

الغناء نيجارية، وسبها أكثر من ألف مركز في فرنسا (3468 قسراً وحصناً وملحقاً موزعة على جميع المناطق وفي أوروبا). وفي باريس بشكل «البيت» المقار المصور للهيكل الذي يسيطر برجه الرئيسي على العاصمة وينحدي أبراج حراسة المعنى. وهنا كما في كل مكان، لم تمارض أية مقاومة مع موفدي الملك الذين اعتقلوا بدون عشاء عدة مئات من الفرسان والأخوة والفائدة ومجموع أصحاب المقاصد الرقيقة في جمعيتهم. ووحده سيد الميليشيا جيرار فيلر هو الذي أفلت من حلقات الشبكة.

كانت هذه الصرية من تدبير غليوم نوغاريت. وهو ابن لأحد نبلاء نولور المانوي نوغاريت، وبعد أن عمل أستاذاً للقانون في موبيليه بدأ يعمل في دوائر الملك في عام 1296. وعين مستشاراً في عام 1302، ثم وزيراً للعدل الملكي في 1307، وظل في هذا المنصب حتى وفاته في عام 1313. كان ملكياً أكثر من الملك، وكاثوليكيّاً أكثر من الباباوات، وكان في قلب الصراع الذي تواجه فيه فيليب لوسيل والبابا بونيفاس الثامن. وكان صراعاً ثقيلاً من حيث نتائج على مصير فرسان الهيكل. وفي 13 كانون الأول/ديسمبر 1294، تخلى البابا سيبلستين الخامس الذي كان ضعيفاً ومرتبكاً في أداء مهامه عن الكرسي الرسولي للكاردينال بنوا كانياسي وكان هذا الأخير قد حثّ بمهارة الحبر الأعظم على

#### امسان فيلبي

الاستقالة، وأخذ اسم بونيفاس الثامن. وكان ذلك يعني انتصار الكاثوليكين على حساب جماعة سيلستين الخامس في إيطاليا الواقعة مريسة لحرب القنائل. واعتبر البابا الجديد سياسياً كما هو تسلطي، وكان يطمح لتثبيت تصديق روما في جميع الشؤون المسيحية، الموقع عبر المتوافق مع السيارة «العلمانية»، في مسائلتي المالية والعدالة، اللتين كانتا متبعتين من قبل الملك فيليب لوييل.

لم تكن حرب غويانا ضد المزارع الإنكليزية قد انتهت بعد. وبعد زمن قصير، كان لا بد من إخضاع بلاد الفلاندر. فأعداد الجيوش وصيانتها تكلف غالباً. وكان الملك فيليب قد لجأ إلى صربية «العشرة» على الإنكليزوس، من أجل تمويل حملاته ودعم حربه الصليبية، ولم تكن جبايتها ممكنة دون ضمان احتياطي من روما. فسار الملك في طريق أنحصر. وتفاوض مع المحامع المسكونية في المناطق، وجمع مجلساً من النبلاء والأخبار الذين منحوه صلاحية الجباية. وقام البابا بونيفاس بتذكير الملك فيليب لوييل بالنظام ولم ينتظر الجواب، بل قام بحظر كل حركة الرساميل - بما فيها رساميل البابا - في حدود المملكة. ورد البابا بدوره بإصدار براءة، ثم سראה ثانية في عام 1302: فكان خطر الحرم يحوم. وأخذ نوغاريت الأمور سيده وقام بحملة ضد الكرسي الرسولي مستهدفاً قلب الوضع: ووضع الملك نفسه في موقع الدفاع عن الكنيسة، متهماً البابا بأنه منحرف ومغتصب ومدنّب

بدفعه سيلبستين الضامس إلى الاستقالة، وكان الهجوم المضاد ماهرًا. لأنه يتناول شخصية بونيفاس وليس صغته وللتجريح، يجب أن يلقي الهجوم المضاد دعم الرأي العام. ذلك هو مغزى الدعاية التي كان يوجهها محام من كوتلس هوبار دويو! الكلبي الإخلاص لقضية الملك. وفي الثالث عشر من حزيران يونيو عام 1303، أجلس المستشار عليوم صد بونيفاس قراراً اتهامياً عتيقاً اتهامات بالهرطقة والأشياء الكهنوتية وحتى اللواطية المعلنه، ذاك اليوم تبرر الدعوة لمجمع مسكوني يتولى محاكمة البابا.

لقد بدأ سباق مع الزمن. ولا بد أن يصح إنهاء الملك رسمياً في الثامن من أيلول/سبتمبر. ولوقف تنفيذ يجب أن يمثل بونيفاس أمام قضائه قبل التاريخ المتوهم. وأورد موغاريت إلى إيطاليا. صدقة أم توطؤ؟ وفي أمانتي، مسقط رأس البابا حيث يقيم فيها في فصل الصيف، وقبعت نوغاريت إلى حانب سياركولونا، العدو اللدود لجماعة كاتباتي. ودام رجال كولونا باقتحام القصر البابوي عترة. وتهددت حياة البابا. لكن نوغاريت تدخل وتوسط وأوضح للبابا نظام المسئول أمام القضاء. وأقفل بونيفاس من القتل لكن الأحيال ثمفة ستجمل نوغاريت مسؤولية الإهانة. وسيمضي بقية حياته في تبرير نفسه، متكرراً أن يكون قد تعرض للضعف - إذا لم يكن أسوأ - والجبر الأعظم، بعد أن شاح وضعف توفي في 11 تشرين الأول/أكتوبر 1303. وخلعه



#### فرسان الهيكل

بينوا الحادي عشر، الذي توفي بدوره في السنة التالية بسبب سوء هضم للتين الأخضر ورأى البعض في ذلك تسمماً... وبدء نوعاريت.

هذا هو الرجل الذي فهم وأشرف على نهب فرسان الهيكل. وهو دليل على فعالية ووزارة مفوضي الملك. ولم يرشح شيء من الاستعدادات لعملية التي حرت في شهر أيلول/سبتمبر 1307. كان تأثير المفاجأة ساملاً. ولم يشك المعتبرون بشيء. حتى السيد الكبير للجمعية حسان دو مولاي، ففي الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر شهد مع البلاط تشييع الروحة الثانية لأخي الملك شارل دوفالوا فكيف عرف أن توقيفه كان مبرمجاً إلى ما بعد القصد؟ هم التالي رجال متشككون، وغير متقطين بالقدر الكافي، ألقى القس عليهم من قبل رجال الملك في الصباح الباكر ومع ذلك فإن تحقيقاً حريزاً بدأ اعتباراً من شهر آب/أغسطس 1307: بساء على حدث من فيليب لوبيل، كانت إشاعات مستمرة وحرى نهذهها بعناية، قد بذرت الشك في التكامل الأخلاقي والديني للفرسان.

في أسس هذه الإشاعات ما قام به عضو سابق في جمعية أخوية، إيسكين فلوريان، من إنشاء أسرار، وكان هو قد سجن في عام 1305 بسبب ارتكاب جريمة في تولوز، حيث أسر ليرجوازي،

#### جرائم الدولة

رفيقه في السجن، عن أشكال التهتك التي كان شاعداً عليها. ومن ضحاياها عند انضمامه إلى جمعية الفرسان. وقد حاول البورجوازي المحرر التفاوض في شأنها في أول الأمر مع الملك أراغون الذي رفض أن يثق بها. فتوجه البورجوازي حينذاك إلى ملك فرنسا الذي استقبله، دون شك بتوسط من بوجاريت. وكان فيليب لوييل، مضطرب المزاج حيال الفرسان، وصدم بحق بالأحداث التي سمعها. ونقل الوقائع إلى كليمنت الخامس، البابا الجديد، في ربيع 1307. وكان هذا الأخير رجلاً طموحاً لكنه لم يكن مستقراً. كان يدعى يرنالد عوث، وهو من نسل غاسكون المتبحرين. وكان قد رقي إلى رتبة أسقف، وتولى أسقفية بورغو في عام 1299. وقد خدمته حياديته في النزاعات السابقة في اختياره. في عام 1305 فكان يمكن لملك فرنسا الذي سادته آن بأمل منه المجاملة التي كان بونيفاس يرفضها. فضلاً عن ذلك لم يكن كليمنت الخامس بعيداً عنه في بواتيه، ولم يجرؤ أن يلحق به إلى إيطاليا حيث تحرك القبائل ضد بعضها البعض أكثر من أي وقت مضى. هي أبناغسطس ألخ مستشاران - غليوم بيزيان وجوفروا بليسيس - في الطلب وأرغما على فتح تحقيق. فأرسل كليمنت الخامس إلى الملك رسالة يعلمه فيها أن «ذوي المقام الرفيع في جمعية الفرسان الذين علموا بالوشاية، طالبوا بالعدالة ضد الوشاة، إذا كانت الشكوى ذات أساس سيء، وأنهم يرضخون لأشد العقوبات إذا دبتوا بالجريمة».

#### فرسان الهيكل

وداخل المجلس الملكي أوقف العمل بخطة صراع لوضع كليمنت الخامس أمام الأمر الواقع عند الحاجة. وصدر قرار إنهائي من مئة وسبع وعشرين مادة، وضعه كتاب العدل الملكيون بإدارة نوغاريت. وفي الرابع عشر من أيلول، وجهت رسائل مختومة ومحتوية على تعليقات اعتقال فرسان الهيكل ومصادرة أموالهم إلى جهات المملكة الأربع: وذلك أمر مؤلم، إنه أمر يرثى له، إنه أمر مرعب للتفكير فيه دون شك، ومرعب سماعه، وجريمة كريمة وتسيئة، وفضيحة كبرى مدهشة. وبمصل تقرير من عدة شخصيات جديرة بالثقة، دوت في آذاننا: أن فرسان الهيكل، بإحفاء الذئب في ثياب الحمل، كانوا ينضمون إلى جمعيتهم، فينكرون المسيح ثلاث مرات، وينفثون في وجهه بالقدر ذاته، ويقبلون من يستقبلهم، وهم عراة، في المؤخرة قبل كل شيء، وثانية في السرة، وأخيراً في الفم... لا شك في أن ضخامة الحرم تفيض لتكون إهانة للمرء الإلهية، وعاراً للبشرية، إنه مثال مفسد بسوته وفضيحة شاملة.

تلك هي الكلمات التي استعادها نوغاريت، نهار السبت في الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر، عدداً رمي الشبهة، في خطاب ضد جماعة الهيكل. وتوجه ذلك اليوم إلى كهان ولاهوتي الجامعة المحتممين في كيسة نوتردام. وكان التحرك يقوم على

#### حرارة الدولة

التأثير بشكل كاف على السلطات الدينية من أجل دعمها لدعم عمل الملك. ففي الخميس التاسع عشر من تشرين الأول/أكتوبر، في متحف اللوفر: سُلِّطَ فرسان الهيكل المئة والثمانية والثلاثون الموقوفون أمام القضاء لأول مرة، واستمعوا إلى الأعياء الثقيلة المباشرة ضدّهم. وفي الأسابيع اللاحقة، اعترف ذوو المقامات العليا والإخوة بكل شيء! فكانت منصة التعذيب والماء والملاقط تمكن من أشد الممانحين. وفي باريس مات ثلاثون فارساً في أشكال التعذيب التي بدأ السيد الكبير جاك مولاي قد سجا منها. وكان اعترافه العام أمام أساتذة جامعة باريس، في الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1307، أكثر قابلية للتصديق من شهرة أنه أمكن الحصول عليها بصورة تلقائية ومن اعترافات أطلقت لإنقاذ رأسه في تنصّلات ملائمة، كانت التحولات في رأي مولاي طوال المحاكمة تنقل صد جماعة الهيكل

#### محاكمة فرسان الهيكل

إن إهانة سيد الفرسان تقدم تسليماً غير متوقع لاعتراقات أخوة مدرجين في محاضر المحاكمة. فقد وافق جوفرا شارني، مرشد النورماندي قبل بضعة أيام، على أنه تنصل من المسيح عند استقباله من قبل رئيس الدبر، أموري لاروش. وفي التاسع من

#### مرسان فيليكس

تشريرين الثاني/توفير أكد هوع بيروود زائر فرنسا، تحت القسم أنه «كان يقول للذين يستقبلهم أنه إذا كانت الحرارة الطليعية تدعمهم إلى التهنئة، فإنه يعطيهم الحق مهدنة نفوسهم مع إخوة آخرين». أما وجود الرأس ذي ثلاثة وجوه حسب البعض، والتمثال النصف المتحوت في الخشب أو المعدن حسب البعض الآخر، فقد تأكد من قبل معلم أورليانس، ومحصل الضرائب في شامبانيا، وتكلم آخرون عن صنم ذي وجه مربع «يبدو كأنه وجه شيطان».

وتوالت الاعترافات وتشابهت، وتصريحات جوفروا غونفيل ومعلم أكتين: «الأخ روبرت تورنيل (الذي كان يستقني) جعلني أقسم في بادئ الأمر بأن أتقيد بالأنظمة الأساسية والملابس في الجمعية... ثم أطلعني في كتاب للقدس، على صليب وصورة يسوع المسيح، فارضاً عليّ أن أتصل من المسيح الذي وضع في الصليب. ورفضت مرعوباً وقلت له: «هذا أبها السيد، لماذا أفعل ذلك؟ كلا. لن أستطيع». عندها أجابني: «أنحمله بجرأة. أقسم لك أنك لن تستدم لا نفسك ولا صميرياً. هذه ممارسة في جمعيتنا». ورفضت أكثر من ذي قبل وطلبت أين هم، عني والآخرين الذي أتوا سي إلى هنا. أجابني إنهم قد انصرفوا وأمرني بأن أقوم بما طلب مني. ورفضت أيضاً، وأخيراً قال لي: «إنني على استعداد أن أقابلك بالحير إذا أقسمت لي بقديسي الإنجيل أن تقول لجميع

#### جرائم القتل

الأحوة الذين سبأولونك هنا في الأعلى، أنك قمت بكل ما طلبته منك، وعدته بذلك، وأعماني، بعد أن طلب مني أن أبصق في يده، بعد أن وضعها فوق الصليب.

وبعد استقبال فارس من اللورين في قبرص عام 1291، قال في إقامته: «قدّم لي صليب من خشب، وسلت إن كنت أعتقد بأن هذا هو الله، وأجبت هذه صورة من صليب». وقيل لي ألا أعتقد بشيء من ذلك. ليس هذا إلا قطعة خشبية، وسيدنا يكون في السماء. وأمست حينذاك أن أتصل على الصليب، وأن أدوسه بالقدمين. تفلت لكسي وفقت أن أدوس على الصليب... منهض أعوان وشعرا ثوب من كان يستقبلني، ثقيلته على الظهر، بين الأقمطة والحزام...». ويكون خط الدفاع المقدم في الغالب من الأخوة أنهم قاموا بذلك بالإكراه الذي يخضعون له في حينه «ليس من القلب، بل من القم فقطه أو أنهم قاموا بذلك تظاهراً بتنفيذ الأوامر التي تعطي لهم. ولا أحد يرد على الكذب.

ولم يعد لدى كليمنت الخامس إلا قبول «الديهييات». فأمر باعتقال فرسان الهيكل في العالم المسيحي كله. ولهذا، قبل شهر على الأكثر، كان جاك أراغون وإدوارد الثاني قد رفضا ما طلبه مسهما فيليب لوسيل بهذا المعنى. وفي 23 كانون الأول/ديسمبر وافق هذا الأخير على أن تكون حراسة السجناء في عهدة نايفي

#### مرسان الهيكل

البيبا، الأبريز الكنيس، بيرانجيه فريدول وإثنين سوسي. ويبدو أن هذا القرار المتعطف الأول للقضية، وكان لا بد أن يكون نموذجياً وسريعاً، لكنه أخذ بحر طويلاً ويحتفظ بعدة تميزات. وتمساعت حالات التنصل من الكلام. وقدم جاك مولاي المثال وحث رفاقه على أن ينحوا مثله، محارفاً تحمل مصير «المرتدين» الذين يفسفون، يعودتهم عس اعترافاتهم، الحث باليمين إلى الحرائم التي اعترفوا بارتكابها.

واندلعت معركة قضائية في شتاء 1308. وكان رمانها صلاحية الملك في مقاصة ما يعود للمجال «الروحي». في هذه المجادلة، استند الملك إلى أن عليه ملاحقة الحرائم الثانية التي تهدد توارن مملكته، كأرض مسيحية يمارس عليها مسؤوليته، وكان البيبا وحده الصامن للأرثوذكسية الكاثوليكية، ولم يكن باستطاعة العلمانيين التدخل في هذه الشؤون. فهل عاد الوضع إلى زمن يونيفاس؟ يمكن أن يُظن ذلك عندما استمداد كليمنت الخامس المبادرة برفع يد قضاة ديوان التفتيش ومطالب بإجراء تحقيق موجه برعايته. ومن جهة قام فيليب لوبيل بالتحقق من مدى اتساع وشرعية صلاحياته القضائية. وبعد دعوة أساتذة جامعة ساريس لإبداء آرائهم، تراءوا من رأي الملك! وأعلنت استنتاجاتهم في 25 آذار/مارس 1308، واعتبرته أهلاً للتثقيف، وليس لأخذ قرار قضائي، وأقل من ذلك للإدانة.

ففي 25 آذار/مارس، توجه الملك مباشرة، في هتاف إلى المملكة، إلى رعاياه وأشهدهم. أما البابا، ويضع العقبات أمام العدالة والمراغة، ألا يصبح شريكاً في جرائم فرسان الهيكل؟ وقد غفدت جمعية للنسباء والأخبار والوجهاء في الخامس عشر من أيار/مايو: تقدمت دعماً لمزاعم ملك فرنسا. أما الرسالة التي حددت في لقاءات جرت بين أبار/مايو ومتصرف حزيران/يونيو في بواتيه بين فيليب لوبيل وكليمنت الخامس، فقد كانت واضحة: لقد فقد الحبر الأعظم الثقة به بسبب عدم ثباته موقفاً حازماً. وأمام جمهور من الكرادلة، وفي حضور البلاط، كان غليوم مليزيان الساعد الأيمن لنوغاريت في كل هذه العملية، ومكلفاً بدرء المسمار. فذهب إلى ما هو أبعاد من الوثابة ضد فرسان الهيكل الذين اعتبروا متهمين بالتواطؤ مع المسلمين في الأرض المقدسة. وفي 14 حزيران/يونيو حمل بشكل مباشر على كليمنت الخامس الذي لم يحسن إخفاء ارتكابه: «لقد أجيتكم قدامكم بشكل عام، دون أن تقولوا شيئاً محدداً عن حالة خاصة. لقد رأيتم أن نفوس المستمعين الحاضرين كانت مفاجأة إلى حد كبير وشكل ذلك فضيحة خطيرة لدى الجميع لأن البعض يتهمونكم بإرادة محاربة فرسان الهيكل.»

كان غليوم نوغاريت يخوض حيال الرأي العام حملة خفية لتقويض سلطة البابا وكان يساعده يار دويوا، المحامي الواضح



#### مرسل الهيكل

لعدة أبحاث يؤكد فيها تفوق الملك ليس في مملكته فقط، بل في كل ما يمس العالم المسيحي. وفي رسالة هجاء نشرت بصورة مجهولة التوقيع، وتحت عنوان، إلتماسات وتمنيقات للشعب الفرنسي، يحدد الخطر وكيف يجب التصرف في هذا الشأن، فقد علمه موسى بسلوكه الخاص... حيا لردة مماثلة لبي إسرائيل الذين عبدوا المعجل الذهبي، قال «ليأخذ كل واحد سيفه ويقتل الأقرب منه»... لماذا لا يتخذ الملك والأمير المسيحي جدًا هذا الإجراء ضد رجال الدين جميعهم إذا كان هؤلاء، لا سمح الله، يشبهون هكذا أو يدعمون الضلال ويشجعونه؟. وفي صدى هذه النصيحة انفجرت في الوقت المحدد قضية أسقف تروا الذي كان يلاحق في قضايا الإفصاح والقتل واللواط والتجديف ضد الدين والسحر. إنها افتراءات: كان غيثار تروا التسليطي الجشع قد حتى أعداء لا يترددون في اللجوء إلى أسوأ الأساليب من أجل قتله. لكن هذه الاتهامات سواء صحت أم لا، تذكر بأخرى، وأدى هذا المثال إلى اهتزاز الفئة العليا من الإكليروس... والبابا. فقرر هذا الأخير أن يصفي بعمه إلى إخوة الهيكل.

ففي نهاية حزيران/يونيو، لجأ بمساعدة عدة كرادلة إلى الاستماع لإثنين وسبعين من فرسان الهيكل الذين اجتمعوا في موانئهم. وأحيل هؤلاء إليه بناء على طلب من الملك، وبعد فرزهم على الطاولة. فهل سيُسمعون حقيقتهم ويستظفون الجمعية من

#### حرائم الدولة

الانتهاسات التي تنقل عليها؟ وكرر المتهمون اعترافاتهم. واعترفوا مجدداً بأخطائهم في 2 تموز/يوليو 1308، أمام مجمع كرادلة عام في الواقع، فقد جرى ابتزاز في ذلك. الحياة تنفذ من الاعترافات الحاطة. وكان انتصار فيليب لوييل ووكيلاء، نوغاريت ويليزيان، في متناول اليد. ولما كان جرم الأنوة لا شك فيه، فقد أعيد توظيف قضاة التفتيش في الأبرشية، واحتفظ الملك بحراسة السجناء. وتقرر أن تجري المحاكمات في كل أبرشية وعلى مسؤولية رجال الدين المحليين. وسيرأس فيليب مارتيني، شقيق رئيس أمراء القصر أنغير أندماريني، المجمع الإقليمي الذي سينتقل محاكمة فرسان الهيكل في منطقة باريس. وفي الأخير تقرر عقد المجمع الكنسي من أجل أخذ القرار بمصير الجمعية. ولتحضير هذا المجمع، شكلت لجنة بابوية. وترأسها باسم البابا، جيل إيسلين، أسقف ناربون «المتخصص» في الشرع الكنسي لمجلس البابوية.

#### حل الجمعية

في شهر آب/أغسطس عيّن البابا ثلاثة كرادلة لسماع إهادات ذوي المقامات الرفيعة في الجمعية، في بواتيه، وكان نوغاريت يتولى زمام أمر السجناء في قصر شينون ويبدو أنهم كانوا يتألمون من التنقل. فقدم إلى شينون ثلاثة كرادلة لإجراء الاستجوابات وهناك، وفي عرق مهني لسر السمع، وقف نوغاريت ويليزيان

#### فرسان الهيكل

وراء القاصرين الرسولين. وبماذا يُعبدُ المتهمون؟ فهل استمر ريمبو كراون معلم قبرص، وجوفروا شارني معلم نورماندي، وجوفروا غونفيل معلم أكتيتس، وهوغ بيروود زائر فرنسا، والمعلم الكبير جاك مولاي بالاعتراف بالحرائم التي تعزى إليهم. وتوجه المتهمون الحمسة بالمناداة بالرحمة من الملك. ولم يكن أحد قادراً على الدفاع عن براءة الفرسان. وغادر كليمنت الخامس موأنتيه في 13 آب/أغسطس 1308، من أحل الدعاب إلى ألبيون حيث سيقيم بلاطه هناك.

في هذه الأثناء، بين صيف عام 1308 وخريف 1309، كانت القضية تتعقد. وترثت كليمنت الخامس كعادته على حساب الملك الذي كان صيره بفرع وعادت حجة سلبية التواطؤ مع البابا تفاعل على المطمح، وبعد أن خسر كليمنت الخامس مجدداً، عين المحققين المفوضين الذين عليهم إعداد ملف المجمع المسكوني القادم، بإشراف جيل إيسلين. وكان على الجمعية أن تحاكم بصفة شخصية معنوية، وسيجري ذلك في باريس. وساحتها الأساسية القصر الأسقفى الذي بني قرب كنيسة نوتردام. وفي 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1309: اجتمعت اللجنة البابوية الأولى واستدعت الشهود الأول. ولم يحضر أحد من فرسان الهيكل. تلك هي استراتيجية الكرسي الفارغة. وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر: أعلن هوغ بيروود الاحتفاظ بأجابته إلى البابا، وله

#### جرائم الدولة

وحده. وتلك هي استراتيجية الصمت. واشتكى بعض الأخوة، لكن احتجاجاتهم كانت ضعيفة.

وفي 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1309: بينما كان المفوضون المايويون يقرأون لجاك مولاي محضر الدعوة الموجه إلى شينون، احتج هذا الأخير بارتباك على الأقوال المنسوبة إليه. وكان مولاي يتراجع عن كلامه، وطلب مقابلة غليوم بليزيان.. ثم وقتاً للتفكير. فهل وعده المستشار بسلامة حياته، بل بالحرية ضد الالتزام بالألا يكون محاسي جماعة الهيكل؟ أم أنه دكره بكل بساطة بالمصير الحتمي المخصص للمرتدين؟»

27 تشرين الثاني/نوفمبر: الاستماع إلى يونسار جيسي. وحقوق معلم ولاية بين المفاجأة، فشجب أشكال التعذيب التي أحدثت بواسطتها الاعترافات: وكل ما اعترفنا به أمام أسقف باريس وغيره، أنا والأخوة الآخرون في جمعية الهيكل، كان غير صحيح. لم نعترف إلا سرعمون بالخطر والرعب، لأننا كنا نتعرض للتعذيب... إنني أحتج، وإذا خضعت ثانية للتعذيب، سأنكر كل ما قلته، وسأقول كل ما يرد مي.

28 تشرين الثاني/نوفمبر: مولاي يتعلم بحضور نوغارت: «لست عالماً إلى درجة أداء نصيح كبير والتزام مع حماية الجمعية.. ويبدو لي من الصعب تقديم دفاع ملائم عنها، لأنني

#### فرسان الهيكل

سجين السيدين البابا والملك...» ثم انطلق في رواية عن المصور المجيدة، مذكراً بالأجساد الماضية، والمعارك البطولية المخاضة ضد العدو المسلم العربي. وهاجم بوغاريت من التاريخ الحديث، ما عقد في اتفاق سري مع المسلمين؟ وأي قدر من المسؤولية تقع على حمية الهيكل في انهيار دول الشرق اللاتينية؟ واعتباراً من هذا اليوم لاذ مولاي بالصمت، وانتظر دون جدوى أن يقبل البابا شخصياً الاستماع إليه.

6 شباط/فبراير 1310: أعلن 15 أخاً أنهم مستعدون لتأمين الدفاع عن جمعية فرسان الهيكل. وانضم إليهم آخرون في الأيام التي نلت. وبعد ذلك أجمعوا على أن الاعترافات أخذت بالإكراه.

28 آذار/مارس 1310: اجتمع في باريس خمسة وستة وأربعون من فرسان الهيكل، في حفل يقع وراء مركز الأبرشية. وجرى استجواب في ضحيج غير قابل للوصف. فكان كل واحد يحتج ببراءته. وطلب جيل إيسلين الذي كان يرأس اللجنة، تحديد المتدوين. وخرج أربعة إخوة من الصفوف وقالوا إن الإخوة أشخاص جاهلون للوقائع التي لم يفهم معظمهم شيئاً من الدعوى المرفوعة ضدهم.

7 نيسان/أبريل 1310: استنكر تسعة فرسان صفوط الصباط الملكيين وطالبوا بسرية الاستماع.

#### جرائم الدولة

وفي بداية شهر أيار/مايو 1310، عثر خمسمئة وثلاثة وسبعون من فرسان الهيكل عن إرادتهم بإعطاء شهادة عن أشكال التعذيب التي تعرضوا لها، وأنكروا بصوت واحد اتهامهم بالذنب ولم يستطع القضاة البابويون إلا أن يكونوا مرتكبين في تأكيداتهم. فكان إيسلين معتدلاً، داخل المجلس البابوي. وهل سنشير الأمور نحو انقلاب في الأوضاع؟ ولا يستطيع الملك ونوغاريت قول ذلك: وسيأخذون المبادرة. وكان أسقف سينس فيليب ماريسي، رجل الساعمة. ومنحه البابا تفويضاً مطلقاً لمقاضاة الأشخاص الطبيعيين من قبله. بيد أن فرسان الهيكل الذين عادوا في عام 1310 عن اعترافاتهم لعام 1307 وقموا بشكل مباشر تحت طائلة ثبوت القرون الوسطى: فأعلنوا «مرتدين» وكانت العقوبة المطلوبة الموت على المحرقة.

وفي العاشر من أيار/مايو، رأس فيليب ماريني المجمع الكنسي الإقليمي لمقاطعة سنس، الذي تمتد سلطته القضائية إلى منهجي باريسي. وانهضت أحكام الإدانة. وفور ذلك صعد إثنان وخمسون فارساً إلى المحارق التي نصبت بعد باب القديس أنطوان. وسيسلك أربعة عشر آخرون الطريق نفسها في الأيام اللاحقة. وفي سيبليس وكركاسون أظهروا حماسة مماثلة.

وانقسمت لجنة التحقيق قبل نهاية السنة 1310. وجرى الاستماع لمتين وثلاثين شاهداً

درس الهيكل

### القرار الأخير

تبقى عدة أسئلة بدون إجابات. ما العمل بأمالك جمعية فرسان الهيكل؟ ومن جهة أخرى، فقد احتفظ كليمنت الخامس لنفسه بقرار أصحاب المقامات الرفيعة الذين ينتظرون في سجون الملك مقابلة بالوية. لقد مضى أكثر من سنة منذ المحارق الأولى لسانت أنطوان، عندما فتح في فيينا المجمع الكنسي الذي دعي من قبل كليمنت الخامس. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1311 حاء الأساقفة من إنكلترا وإسبانيا وألمانيا وفرنسا واسكتلندة والدانمارك وإيطاليا... من العالم المسيحي تواعدوا على اللقاء على نهر الرون. ليس فقط للتداول حول موضوع الهيكل. فكان جدول الأعمال يشمل إصلاح الكنيسة ومشروع حملة صليبية جديدة.

في الثاني والعشرين من آذار/مارس 1312، دخل فيليب لو بيل إلى فيينا رفقة حاشيته بأهبة كبيرة. وأقام مسلحوه على أبواب المدينة. وأصبح المجمع في وضع الرهينة.

وكانت البراءات البابوية المقدمة من قبل إينوسنت الثاني في العام 1145 تحدد القاعدة المتبعة من قبل فرسان المسيح الفقراء وهيكل سليمان منذ إقرارها الرسمي في عام 1129. وما أقامه البابا، فإن البابا وحده قادر على فكّه. وكان كليمنت الخامس أول بابا وات أفينسيون، رجلاً مندفعاً. كان ينفذ أمام إرادة ملك فرنسا،

وتنتجيه أكثرية الأخبار. فالبراءة الصادرة في 22 آذار/مارس 1312، تلغي جمعية فرسان الهيكل... وليس دون مرارة وألم، وليس بفضل حكمة قصائية، بل بأسلوب القرار أو الأمر الرسولي. وفي الثالث من نيسان/إبريل، سمع المجمع المسكوبي بعد اكتماله، بحضور فيليب لوبيل الجالس تحت البابا مباشرة، من قم هذا الأخير لائحة بيانية تبيّر الحيل: فالأسرار التي تحيط بالاستقبالات، والسلوك المصداق للمسيحية للكثير من أعضائها، وفقدان الثقة الملقاة على فرسان الهيكل، والفضيحة غير القابلة للإصلاح والناجمة عن ذلك، كلها تجعل كل خير مرهقاً والجمعية كما هي غير مجدية

لقد ماتت جمعية فرسان الهيكل وبقي توزيع ثرواتها. ستؤدي هذه القطعة الشائكة إلى تعبئة المجمع بعد شهرين. وطالب الملك بنفقات حراسة وإدارة الأملاك التي يضعها تحت الحراسة وكان المبلغ كبيراً، لكن فيليب لوبيل عدل عن وضع اليد على ثروة فرسان الهيكل. وستخصص بشكل أساسي لجمعية المعمرين، ويذهب الباقي إلى الجمعيات العسكرية التي تملك بالمراكز الأمامية في وجه المسلمين الغربيين في إسبانيا. وفي أيار/مايو 1312، سويت هذه النقاط بصورة نهائية.

وماذا يضيف جاك مولاي وذوي المقامات الرقيقة الآخرين؟ هم دائماً محصورون في باريس وينتظرون أن يُسمعوا



#### نرسنان ليهيكل

من قبل البابا. وكان هذا الأخير ينفر من القيام به. كما أنه كلف ثلاثة كرادلة، أرنو نوفيل، وأرنو دوش، ونيقولا فريوفيل الذي هو معترف ديني سابق للملك، بإصدار قرارهم. ولن يكون أمامهم إلا الاستناد إلى النتائج التي وصلت إليها اللجنة البابوية، قبل ستين وفي 19 آذار/مارس 1314، اجتمع المتهمون في ساحة كنيسة موتردام، وظهروا بناء على منصة ليستمعوا إلى قرار الحكم. الإفعال إلى الأبد! إن معلم الإكيتين، جوفروا غونفيل، وزائر فرسا هونغ بيرو، لا يتقدمان. وجوفروا شارني، معلم النورماندي، وذاك مولاي بنمردان ويعكس أي توفع، يقوم المعلم الكبير بتهدئة براءة الهيكل، ويستلهم من الجريمة الوحيدة التي يقرها. الجين، ويقلده شارني. ويعلق الكرادلة المدعوون ظهورهم أمام القضاء. وتحت صيحات الاستنكار من الجمهور، أعيد السحناء إلى زناناتهم. وقبل نهاية النهار قرر مجلس الملك المحتج بسرعة والمتعجل من قبل نوغاريست الغاصب، العمل لتطبيق القانون: فيستحق «المسردان» الإنسان الموت بالنار. وهو قرار تنفيذي. فقد نبت محرقتان في غرب المدينة. ويرتبط بهما مولاي وشارني. وتغيب الشمس عندما تنصاعد الروميات الأولى من اللهب. ويصف المؤرخون رجلين بلباس القميص والعينين منتنيتين في اتجاه الأرض المقدسة، ومصممين على تحمل عليهما والموت بكرامة.

### حقائق وأكاذيب

الأسوار المغلقة للاستقالات والأسرار التي كان الهيكل يحاط بها، لم يكن بإمكانها إلا أن تفتح الباب لجميع التقديرات وأسوأ الإشاعات. فالمؤرخون، في فترات مختلفة، علقوا بالكثير على تنظيم مواز داخل الجمعية. والخطر المفروض على أي كان بإقضاء المدلولات أو كشف أية معلومة حتى عن قبول أعضاء جدد يكون ضاراً بالجمعية الأخوية. وكانت عادات الأخوة الفرسا، إذا رجعنا إلى القاعدة العامة، محاطة بإطار دقيق وكانت قسوة ظروف الحندية تضاف إلى صرامة الدعوة للرهابية. وكان كل خطأ أو أدنى طيش يعاقب بقسوة، وخاصة مباشرة النساء. بهذه النظرات لم تكن الجمعية عرضة للهجوم عليها. لكن المحظورات بطبيعتها عرصة للمخالفة. والإجراءات ممكنة دائماً.

ولا شك في أن الميول المثلية للجنس لدى البعض، أمكنها أن تجد أرضية ملائمة للتعبير عنها: في الشرق لدى أفراد لا جندور لهم، ويمشون في اختلاط المخيمات والحصون، وفي الغرب لدى أناس مرغمين على المعاشرة الحصرية لجنسهم. ومن جهة أخرى كانت الفلقات الفحشية التي تُطبع تحت الكليتين، وعلى الصرة وعلى القسم، وتوصف من قبل المحتفى بهم خلال الاحتفالات، تحرك التفكير بالطقوس الوثنية التي تنتقل عبرها القوة الكونية من

#### فرسان الهيكل

المعلمين إلى المبتدئين في تقاليد كثيرة. كما يمكن أن نرى فيها تماثلاً مع ممارسات المناكدة المسلحة، فما هو نصيب الحقيقة في هذه الاتهامات؟

كما أن عبادة صنم من قبل فرسان الهيكل جدير بالتفحص. وهذه القطعة الخشبية أو المعدنية التي هي موضوع تساؤل في العديد من الشهادات، يبدو بالتناوب بشكل شيطان مفر أو تمثال نصفي مجوف يحتوي على عظام ميتة أو صورة بوجهين. فهل وجد مثل ذلك حقاً؟ أخيراً، لم يكن الاتصال مع المسلمين خلال قرنين من الحروب ليجري دون حصول بعض أشكال سوء التفاهم، ودون الإحباط المتبادل بمقاتلين متوحشين خدمة لديهم، مثل ما جرى بين الحشاشين وفرسان الهيكل في القرن الثاني عشر. ويقدر أكبر من الواضح أن التعايش القسري بين الأعداء يؤدي للقتال ثارة، وثارة لعدم الهدنات، واحترام الاتفاقات. لقد كانت جمعية الهيكل تضم بالتأكيد إخوة منحرفين وهرافقة وفلسفين. وكانت مهارة واحد مثل موغاربت أنه أحسن استثمار تصدعات التنظيم، وضعف بعض أعضائه، بدءاً بأعلى المواقع المسؤولة فيه، واستياء الذين كانوا يشعرون بأنهم مهددون أو معرضون للهب من قبل جمعية قوية.

## الفصل الثاني

### المستحوز عليهن في لودون

لقد بقي القليل مما كان يشكل قديماً فخر وقوة لودون فمن القصر الذي بني في القرن الحادي عشر من قبل فولك بيرار كونت أنجو، وأعيد تحصينه في القرن الثالث عشر من قبل فيليب أوغست وقد بقي البرج المربع الذي يطل من علو أمتاره الثلاثين، على الجبل المحاور بمنظر شامل استثنائي. ويعتبر باب مارترى المحصن ببرجين من الصعائغ الصخرية، أحد الآثار الأخيرة للصور القديمة. ويمكن للزائر المعاصر أن يطيل الوقوف على الساحة الصغيرة التي تناغم الصليب المقدس المجمع، وأن يمر عبر البوابة المنيئة بشكل قوس النصر لكنيسة القديس يار التي بيت في عام 1214، وأعيد بناؤها في القرن السادس عشر، وأن يكتشف المتحف الكائن في المنزل الذي ولد فيه تيوفراست ريتودو وجميع هذه الأمكنة شهود على الأحداث الخطيرة التي وقعت في لودون في عهد الملك لويس الثالث عشر ووزارة ريشليو

### الشیطان یدخل إلی المسرح

ليلة الحادي والعشرين - الثاني والعشرين من أيلول/سبتمبر 1632، أوقظت راهبة شابة من نومها، في المنزل الذي أقامته جماعة أورشوليين ديراً لها، في شارع باكين. وظلت الراهبة مارت أنها سمعت طقطقة على الدرجات المؤدية إلى الغرف. ثم أحسّت بنوع من التمتمة وحفظة القماش وخطوات... وميزت شكلاً معيناً: عبد قوائم سريرها كان يمشي رجل بتياب كاهن. وقدم لها كتاباً مفتوحاً، وأظهر لها صوراً، وأمرها بالاحتفاظ بالكتاب. وهزّت المتديعة المزعوبة رأسها علامة الرفض. ولما توصل إليها جانياً على ركبتيه، من أجل راحة نفسه، قامت بإيقاظ جارتها في المتامة. بعد ذلك، تبخر الشبح واستسلمت الفتاتان للصلاة، كما أحسّت الراهبة مارت على امتداد ساعة من الزمن، أنها تسمع صدى صوت حزين. وفي الصباح الباكر، استعاد مسكن جمعية أورشوليين الصمت والسلام

ومع ذلك، فإن القوى المغارقة للطبيعة لم تتوقف عن الظهورا وفي اليوم التالي تلقت رئيسة الدير الراهبة حان أنج ومساعدتها زيارة الشبح ووجه إليهما الالتماس داته: وصلوا إلى الله من أجلتي. وفي الأيام التالية، تعرضت الراهبة لوزير يسوع والراهبة كايرسان حان بدورهما لهجمة من الرؤى. كما عانت

المستخدوم عليهم في لومبري

الراهبات ورئيسة الدير من أزمات أدت إلى الحيرة والقلق. وتلوت أجسادهن في تشنجات رهيبة. وكان لا بد أن يُسَلَّم الأب مينيون الكاهن القاموسي لكنيسة سانت كروا ومعلم جماعة أوردولين، بواقع الأمر: إن تخطيطاً ينملك هؤلاء النسوة، وأنه لن يتركهن أبداً. وأمام خطورة الوضع، دعا إلى جانبه كاهناً من شيون، الأب باريه، ورجل دين من حممة كرمل لودون. وفي الخامس من تشرين الأول/أكتوبر، قام الكنسيون الأربعة بأوائل تعويضاتهم. ودونوا بعد ذلك الأحاديث التي جمعوها.

وفي ما يلي، مقتطف من محضر الدعوى الموجهة بعد سماع الراهبة رئيسة الدير والراهبة مارت، هاتهما أسمعنا أنه في الرابع والعشرين من أيلول/سبتمبر، بين الساعة السادسة والسابعة مساءً، ظهر في قاعة المطعم شيخ آخر بشكل كرة سوداء كلباً، وألقى أرضاً ويصنف الراهبة مارت، ورئيسة الدير على كرسي، ويأخذ كلاً منهما بالكنتين، وفي الوقت نفسه أحتت راهتان أخريان أنهما تلقتا الصرب على الساقين، حيث بقيت كدمات حمراء بحجم عملة التنتون<sup>(1)</sup> طوال ثمانية أيام... فضلاً عن ذلك، فقد قلن أنه لم تمر ليلة مما تبقى إلى آخر الشهر، لم يحصلن فيها على اضطرابات كبيرة وأشكال متعددة من الأضرار والرعب.

(1) عملة فرنسية من عام 1513 إلى عهد لويس الثالث عشر - المترجم

وحتى دون أن يرس شيئاً، كن يسمعن في الغالب أصواتاً كانت تنادي بعضهم أو البعض الآخر منهم وتلقى بعضهم لكلمات بقبضة يد، وأخريات تلقين صفعات، وأخريات كذلك أحسسن بأنهن دفعن إلى صحكات مفرطة وغير إرادية... وأخيراً قلن أنه في الأول من تشرين الأول/أكتوبر، عند الساعة العاشرة من كل مساء، تكون رئيسة الدير مستلقية والشمعة مشتعلة، وحواليها سبع أو ثماني أنصوات لمساعدتها بسبب ما كانت تتعرض له من هجمات، وكانت تحسنّ بيد تطلق لها يدها دون أن ترى شيئاً، وترك لها في يدها ثلاث شوكلات من الزعرون، لتوضع في اليوم التالي في يدي أحداً لأخذ الرأي في ما يجب أن تفعل بها. وبعد يومين، اعتبر من الأفضل أن تقوم رئيسة الدير نفسها بحرقها.. وكان الظن أن الشوكولات المرعومة كانت سحراً مؤذياً امتلاكها.. وبعد حصول تأكيدات غريبة واضطرابات في جسد الراهبة رئيسة الدير، وجدد الأخت لويسا والأخت كلير، اعتبرت ذلك امتلاك حقيقي، ويكون من التدبير إجراء ترميمات الكنيسة المقدسة عليهن...».

وفي صباح الخامس من تشرين الأول/أكتوبر، أجريت أول تمويضة على الراهبة جان، وجاء في التقرير عنها: «الأرواح الخبيثة لكونها مأمورة باللاتيني لتقول أسماءها لا تقول شيئاً آخر مرتين أو ثلاث مرات، إلا «أعده الله...» وكان شيطان رئيسة الدير يصرخ عدة مرات، نائفاً: ها! جان باتيست». ولثناء الترميم المعادة

المستوحذ عليهم في لوزين

على المدعوة رئيسة الدبر، يقول ثلاث سررات وهو يفصصها:  
«كهنوت...».

ويحد ظهر الخامس من تشرين الأول/أكتوبر، جاء في تقرير  
التعويذات الثانية والثالثة: «الشيطان المتعيط ليقول اسمه باللاتيني،  
يجيب بالفرنسية صارخاً: «ها، لم أقله لك!»، وبعد ذلك يقلل: «ها!»  
أيهما الخبيث! كان قد أعد للتعلي عن الجماعة كلها من أجلي». وفي  
التعويذة الثالثة، كانت رئيسة الدبر قد حرمت من الإحساس  
والعقل، والشيطان الموجه ليقول اسمه يجيب مرتين: «عدو الله،  
سم متعجلاً لعدم إبعاده، يقول: «ميتاقو» ومتحلاً يقول: «أنا  
أحترق»، وصارخاً بشكل دائم، ثم موجهاً ليقول واضح الميتاق،  
يقول: «كهنت»، كرامة؟ وفي اليوم التالي كشفت الرابطة لوزين أن  
الشياطين دخلوا إليها، تحت تأثير سحر قذفه كاهن. وتحت تأثير  
الاتحاد في الرأي يؤخذ المستوحذ عليهم بموالم التهج والهدايا  
وتتمتعهم الشياطين من ابتلاع خير الضحية الذي يحاولون إخراجها  
ثانية. وتكاد الراهبة حان أيج أن تختنق. من هو هذا الكاهن المرتد  
الذي يعذب بنات الله؟.

وفي الحادي عشر من تشرين الأول/أكتوبر 1632 كانت جان  
أنج تُسمع بحصور السلطات المدنية والدينية. وكان أسقف بواتيه  
قد أرسل إلى المكان رانجيه كاهن بينيه. وكان قاضي لودون،



#### جرائم الدولة

غليوم سيريزي، برفقة معاون له حاصرين إلى جانب معوزين باشيروا استجوابهم الضعف عن الشيطان. ووقعت المفاجأة فعلى عكس الأيام السابقة لم يقاوم إلا قليلاً وتخلّى عن اسمه: «أستاروت». وباستعجاله أكثر قليلاً حدد الشخص الذي يقوده: أوربين غراندييه، كاهن كنيسة سانت - بيار وهذه ليست إلا نصف مفاجأة: شخصية الكاهن كانت هدف الكثير من المجادلات.

#### ميدان كاهن

سيم أوربين غراندييه كاهناً لمسقطه بورديو في عام 1615، بعد تدريبه عند اليسوعيين. وقد لفتت مبراته العقلية ويسره الطبيعي، منذ زمن طويل، أنظار أساتذته. ففي 1617، كان يعود لجمعية اليسوعيين أن تقترح مرشحاً لمنصب كاهن في خوربة القديس بيار في لودون. ولجئ غراندييه في هذا المركز، وتولى مهماته في الأول من آب/أغسطس. في الساعة والعشرين من العمر، أصبح يشغل مركز كاهن، ويستفيد من مداخيل مغولة من الطوب إلى المركز، مداخيل يلائم أن يضاف إليها الدخل المقرر على أساس النقب الإضافي في الكنيسة المجمعية لجمعية الصليب المقدس مما يشير أشكالاً من الغيرة، وخاصة داخل الإكليريوس النظامي الذي يكبد لجمع الصدفات الضرورية لمعيشته، وكرجل

المستخرج: *عليه في لودون*

محبب نفسه، لم يكن أوربين غراندييه يقدم تنازلات. وتدفعه ذهنية المحاكمة، في كل أدنى ساسة للحديث عن حقوقه.

وقد شاركه عدة أشخاص بنصيب وافر في أداء مهمته. وفي أولهم أرماند بلبي ريشيليو. ووقع الحادث في عام 1618. وكان لويس الثالث عشر وهو بعد لممارسة السلطة، قد عمل لقتل كونسيي، المناصر الإيطالي الذي كان يتأثر في الطل ضد الملكة الأم أما ريشيليو المرشد الديني لماري مديسي التي دخل بغسلها إلى المجلس الملكي في عام 1616، وفقد هذه الحظوة، بعد نفيها إلى بلوا. واستعاد عمله كأقف لوسون - الأسقفية الأكثر ثلوثاً في فرنسا كما قيل حينذاك. وكان هو أيضاً رئيس دير كوساي الذي يرتبط بأبرشية لودون وبهذا اللقب شارك في شتاء 1618 في احتمال ديسي كبير في مدينة لودون. أما أوربين غراندييه فقد حظ من قيمة ريشيليو إلى موقع ثانوي، بحجة أن الكاهن الرعوي له حق التقدم على رئيس الدير! وقد انحنى هذا الرئيس وأخذ مكاناً في الصف الثاني في الموكب. وعندما أصبح ريشيليو كاردينالاً هل تذكر هذه الإهانة الدينية؟.

في غضون ذلك، تضاعفت عوامل الكراهية بين الكاهن وبعض أبناء رعيته. وفصلاً عن كون أوربين غراندييه متمجرناً، فهو أيضاً ريس تساء! وكان موسو فريسن، الممول المستقبلي لشارع

#### جرائم الدولة

باكيس الذي يقع فيه دير جمعية أوسولين، بينهم إقامة صلة جرمية مع زوجته. وكان يريد أن يتحقق من الأمر، وفي ليلة سوداء، فاجأ الثنائي ومجسم على الكاهن والسياف في يده. وقد تخلص غراندييه من ورطته بأعجوبة، ولم تذهب هذه القضية إلى أبعد من ذلك. وقد سارت في اتجاه مغاير كلياً مع المعاون هيرفيه، الذي يمجح غراندييه في إغراء عشيقته. وعندما صار عشيقاً مطروداً، لم يعد هرفيه ينتظر إلا فرصة تفجير حقده، وتوفر المبرر في خلاف حول أسر الدفع لاحتفال ديني. وتشجع المشادة. ويمسك غراندييه العدالة بيده. ويلام المعتدي لكنه ينتظر ساعة نأره.

ولم يحمل الكاهن الرعوي لكيسة القديس يار إلا على العلمانيين ونسائهم. وفي عام 1620 انفجر تضارب بالأيدي داخل الكنيسة. كان الكاهن القانوني رنيه موسيه المرتكب للعنف مع أحد الأخوة هدفاً لموعظة لاذعة ألغها غراندييه. وانتظرا الكاهن القانوني خوري الكيسة في أسفل المسير الكسي، وتضاربا سالايدي. وتفوق غراندييه، لكنه لم يعتبر ما حصل كافياً، فرفع دعوى إلى محكمة بواتيه... التي حكمت له بذلك. وكان يمكن أن تقف الأمور عند هذا الحد لولا حسابات امن شقيق الكاهن القانوني، رنيه بربيه الذي كان يبحث عن الانتقام لعمته. ووقعت مشاجرة أخرى، أدت إلى انتصار آخر لقيضات غراندييه. وبعد

#### المستعمرون عليهم في لومرون

فترة من الزمن، وقع امن الأخ في كمين، وتعرض للسلب والعنف من قبل عصابة من قطاع الطرق. وسارع موسيه بالحمله على عدوه فبدأ به على أنه الفاعل للاعتداء، وتولى التحقيق المعاون هيرفيه وطن أنه أمسك بانتقامه. ولم يتوفر أي دليل بسند الاتهام.

لكن إذا كان أوبيسن غراندييه قد أوجد كثيراً من الأعداء، فإنه نجح في إيجاد بعض الأصدقاء ومنهم حلفاء ذوو أهمية: القاضي غليوم سيريزاي والحاكم جان أرمانيالك. وكان هذا الأخير بروتستانتياً معتدلاً ودراشاً لدى لويس الثالث عشر، وكان يتمتع بالكثير من المحطوة في البلاط. كما كان لكاهن الرعية مداخله إلى المقامات الرقيقة المحيطة به. المؤرخ والشاعر والأمين السابق لصندوق الملك هنري الثالث: هو الظل الذي أنقذ المدينة من السلب والتدمير بتدخله لدى الراهب المحارب أنجح جوايوز عندما كان جيشه يهدد بأعمال انتقامية كاثوليكية لمدينة الهوغونوت لودون. حيث سارع شباب واعدون لمستقبل زاهر في التجمع حول البطريك إسماعيل بوليو الذي لم يلبث أن أصبح ملكياً مشهوراً، أو كذلك، تيوفراست رسودو الذي أسس «لأعازيته» في عام 1631، بامتياز ملكي. وشق غراندييه طريقه في المدينة التي كثر الحديث عنها منذ زمن طويل.

## لودون الصاخية

في الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر 1615، تزوج لويس الثالث عشر، آن النمساوية، ابنة ملك إسبانيا. ولم يرض هذا الزواج إلا إسبانيا، البروتستانت، كما أطلق بيلا الأرياف. وألحق الأمير كوندية حدوده الكاثوليك بجيوش الهوغونوت لدوقتي روهان وسوييز، من أجل محاربة الوصية على العرش التي فاضت للتحالف. وفي لودون، مقر الجمعية البروتستانتية، تم التفاوض ووقع عقد السلام في النهاية في عام 1616.

وفي الخامس من أيلول/سبتمبر 1632، سيم ريشيليو كاردينالاً وكان ذلك مكافأة لمهامه الدبلوماسية بين الملكة الأم ولويس الثالث عشر. وفي 23 شباط/فبراير 1619، كانت ماري مديسي، السفيرة في بلوا منذ مقتل كونسيي، قد هربت ولجأت إلى أنغوليم لتكون تحت حماية دوق إيرنون. وكانت الحرب الأهلية تهدد بالانفجار من جديد. وكان لويس الثالث عشر قد جعل مقره في أنغوليم ودعا ريشيليو. وفاد هذا الأخير المفاوضات التي أدت إلى توقيع معاهدة ومصالحة الأم والابن. وكانت المصالحة مؤقتة لأن حرباً جديدة كانت تمهد في تموز/يوليو 1620 وكانت ماري مديسي المتراجمة إلى أنجو تزوج الناز التي طالت الكثير من الأرياف: كان الأمراء الأساسيون في حالة تمرد مكشوف

المستعبدون عليهم في لودون

وشكلوا عصبة واحدة. وجند الملك جيشاً قمع به التمرد، من روين إلى أنجييه. ولعب ريشيليو ثانية دور السيد المعاصر الحديدة، وأعيد السلام من جديد داخل الحدود.

أما لودون فقد شاركت، خلال هاتين الأزميتين، بشكل مكشوف بـ «اضطرابات» المملكة. ففي 12 أيلول/سبتمبر 1619، اختار الحزب البروتستانتي المدينة لإعلان معارضته للملك وأدى دعم لويس الثالث عشر لـ «فرديناند الثاني» من آل هابسبورغ في كفاحه ضد البروتستانت، في بوهيميا - حيث بدأت حرب الثلاثين سنة - ومشروع إعادة العبادة الكاثوليكية في بيرون لإغضاب الهوغونو. وبعد حوالي سنة لفتت لودون الأنظار بنفسها مع المدن المتمردة، وعزز حان أرمانياك دفاعات المصير وأعد الكاثوليك عن جميع المراكز الأساسية. مما أغضب لويس الثالث عشر وأعلم حاكمه بذلك. ولم يطل الوقت حتى سقطت الأسوار.

#### سوء سيرة كاهن

انتشر المذهب البروتستانتي في القرن السادس عشر بسهولة أكثر مما أظهرته الكنيسة الرومانية في كل مكان، من مثال في الحرية والفساد فسي وجه اللوثريين والكالفينيين الخاضعين لتوجيه لاهوتيين متشددين في الفكر والمبادئ، ما هو ورن، وجل

#### جرائم الدولة

دين كاثوليكي غير متقف ومتحرف؟ ومن أجل قلب هذا الوضع، كان المجمع المسكوني لمدينة ترانت (1545-1563) قد حدد قواعد الإصلاح - المضادة، والهدف: استعادة مؤسسين، والوسيلة: استعادة سيطرة رجال الدين. والأسلوب: تعليم الكهان وإصلاح الأخلاق. وكان اليسوعيون مدعويين بصورة طبيعية للقيام بعمل كبير في هذه المعركة. وكان زملائهم مشهورين. وكان غراندييه لأمعاً، ومعداً في هذه المدرسة الحديثة، وخطيباً ممتازاً، ومدركاً جيداً للنصوص المقدسة. وكان يحسن إعطاء الصورة الحديثة عن هؤلاء الخدم لله الذين سعيدهم الحاج الضالة إلى داخل القطيع. والصورة خادعة: إنها لا تظهر الحماسة والاستقامة اللتين يتظاهرها أسياده معه. وإذا خالط الهوغونو في الغالب، لا يحاول حقاً دفعهم إلى الدين، وإذا خالط بشكل دائم بعض المعترفة - له، لا يكون ذلك، كما يبدو، من أجل إعادتهم إلى الطريق المستقيم!

لقد تكوّنت دائرة المجتمع الكاثوليكي الجديد في لودون حول النائب العام، لويس تريتكانس. ويعتبر أوربين غراندييه موافقاً على المنزل، واستغل ذلك لجعل ابنة القاضي حاملاً. تم خنق الفضيحة. لكن الكاهن الرعوي، اعتبر الأب عدواً لدوداً. فهل كان يحب ألا يقع اختياره على مادليس، الالة البكر لمستشار الملك، ريسيه بروج؟ ولعدم مسروبه من تحول نمياته - كانت

المستشرقون: طوبى لمن لا يعرف.

ستدخل إلى الدير - كتب بإرادته رسالة تتهم وتشكك بعزوبة الكهان. ولم يظل الزمن حتى تسرب سر هذه العلاقة. وجرت الشرثرة. وكان آدم الصيدلي هو الذي نقل الأمر إلى الساحة العامة وأدين الصيدلي بتقديم أعداء إلى الكاهن الرعوي وتسييد غرامة بـ 640 ليرة. وأخضبت الإهانة إلى الحراب. والإنسان لا ينسى أبداً

فهل يقيس غراندبيه نتائج أفعاله؟ ودوت طلقة الإنذار الأولى هي خريف عام 1629. وهي أصل القضية أن إحدى هذه المشاجرات التي كان معتاداً عليها مع جاك تيو، معلم الملك للفروسية، والمقرب من ترينكانست الذي لم يكن يغفر لـ «غراندبيه» الأشكال العرامية الطلقة، ويلحق الهزيمة به أمام العامة. ويستخدم بالثسكوى، لكن أعداءه يسبقونه ويأعاز من ترينكانست وجهت رسالة إلى أسقف، لاروس بوزاي، لشجب «السلوك المعيب» للكاهن. وحاصت الشهادات المضنية لكاهن معاون في الأبرشية، ولكاهن مجاور، تمزج الاتهام. وقاد الأسقف في أبرشيته معركة التشدد الأخلاقي. وأمر باعتقال غراندبيه وأودع في سجن موآتيه. وفي 3 كانون الثاني/يناير 1630، حُظر على الكاهن الرعوي الأداء في لودون مدى الحياة.

وبدأت معركة الإجراءات. ولم يوفر سيريزاي وأرماليك جهدهما من أجل الحصول على إعادة الاعتبار لأصدقائهما وإدانة



#### حرائم الدولة

تبر. ومن جهتهم ترينكانت والمعاون هيرفيه والمحامى ميتو قاموا بكل شيء من أجل الخلاص منه بصورة نهائية. ومرة أخرى تخلص كاهن الرعية من ووطته، بتداعيات تشفع: فقد تراجع شهود الإنبيات عن أقوالهم وحررت ملاحقة ترينكانت وهيرفيه بسبب التبليغ الكاذب وحمل الشهود على الإفادة زوراً. وتدخل صاحب السيادة مسورديس أسقف بورديو والذراع الأيمن لريشيليو في الشؤون البحرية، لصالح غراندييه... الذي عاد إلى مهامه. وكان الجميع في محيطه قد نصحوه بمعادرة لودون حيث هي عرضة للكثير من المخاطر. وهو لم يكن يريد أن يعرف شيئاً. والأسوأ أنه كان عازماً على إرغام تيو على إعادة ما سرقه، ثم الحصول على تعويضات للسيدتين، ترينكانت وهيرفيه. وحقق غايانه! حقاً، إذا كان يتمتع بفن التخلص من المكائد، فلم يكن يخشى أن يحلب لنفسه أحقاداً غير قابلة للاختزال، ولا حتى أن يختلف مع الذين طالتهم هذه الأحقاد. وفي عام 1631، فاتحته الراهبة جان أنج في أن يصبح المعلم المعتمد لجمعية أورسولين، ورفض ذلك واستخلصت رئيسة الدير من ذلك نوعاً من المتاكدة.

#### العدوى

في نيسان/أبريل 1632، انتشر الطاعون في لودون، وصاعب الوباء أجواء الحرارة الصيفية. وطرده الخريف الأخيرة البقية، لكن

المعرض عاد وتابع اجتياحه حتى أواسط سنة 1633. وكان الموت يأخذ واحداً من كل أربعة: فبلغ عدد الموتى ثلاثة آلاف وسبع مئة. وفي هذه الظروف لم يوفر غراندبيه جهده بل سارع إلى أسرة المصائب، وشارك في خطة الطوارئ وهي أعمال التجدة المنظمة من قبل سلطات المدينة. ودعا البعض جلاد فقراء أورشوليين.

واتخذ غراندبيه الاحتياطات من الخطر، ودعا القاضي غليوم سيريراي الذي اغتاز مس أوامر السلطة الملكية بإحالة الكاهن الرعوي إلى القضاء. وخلال ذلك كان الوضع يرتدي طابعاً شديداً المخطورة. فكانت الراهبة جيان أنج واقعة تحت نكس فرقة من الشياطين الذين قبلوا خلال تعويذة جديدة التعريف بأسمائهم: استاروت، رابولود، شام، نيفالون، أشاس، أليكس، أوريل. وخلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر، قدمت عدة راهبات إشارات الاستحواذ عليهن. وأبلغهن كلهن عن تعاقد بين الشيطان وغراندبيه. ومن جهة، كان غليوم سيريراي يقصد صمان انتظام الإجراءات. وطلب بالفصل بين جماعة أورشوليين اللواتي اعترفن بأنهن واقعات تحت الاستحواذ عليهن، وبين الجماعات الأخرى، وأن يكن في حراسة أشخاص تكون استقامتهم فوق أية شبهة. وعارض الأب باريه هذا الطلب بالذبح لعدم سماع الدعوى، متذرعاً بصلاحيات منحت له من قبل سيادة كاهن لاروتس - بوزاي. وفي صباح الرابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، حصر القاضي إلى الدير برفقة

#### درائم القردة

كاتب محكمة وعدة أطباء. وأثناء القداس، يذب الراهبة جان أنج مشسّجة الوجه وجاحظة العينين، وتتلوى بذراعيها. فور ذلك قام الأب باريه بالتعويذة. ووجه السؤال إلى الشيطان باللاتيني. كما تعرض القاعدة الطقسية، ولم يكن الشيطان بحاجة للرجاء بطلب الإجابة باللغة نفسها. لكنه كان يشوّء الكلمات ويرتكب أخطاء لا تغفر. ويخطط بين موقع المضاف وموقع المفعول! وكانت الموهبة في اللغات الأجنبية لدى أشخاص لم يتعلموها أبداً معهسة من قبل الكنيسة كملافة كامة في القدرة الشيطانية. فطالب سيريزاي بالتالي أن تستجوب رئيسة الدير باللاتيني. فور ذلك لاد الشيطان بالصمت واستؤنعت الجلسة بعد الظهر. وكانت جان حبيها في أرومة جديدة. وكان الشيطان يتمتم حين كان يُسأل بلا توقف. وكانت الاحتجاجات تتوقف دون أن يتمكن كاتب المحكمة من تدويس شيء مفهوم. والتبديد راهبتان أحمر ياد كانتا نظهران أعراساً محيفة إلى الأظساء. فكانتا تفحكان ضحكاً خافتاً، ونهزهراون وتطلقان بعض الكلمات دون تشمة منها اسم عائلة الكاهن الرعوي.

وأعيد الأمر في الخامس والعشرين. وفرض القاضي على الأب باريه طرح أسئلة باللغة السكوتندية، ثم بالعبرية. وكان كل شيء كما البارحة، وظل الشيطان معانداً بالصمت. وعرض القائم بالتعويذة تفسيراً: «لا يعني هذا أن الشيطان لا يعرف (هذه اللغات)،

بل إنه لم يرد أن يقول: «لا شك في أن لدى الشيطان القدرة على كشف الأشياء الخفية أو العبدية»، بل ينتج كذلك بفن الإخفاء. وهذا ما يشت أن شياطين رئيسة الدين، الذين تجمعوا بعد الظهور لتحديد اسم الأسقف الذي سأم غراندبيه كاهناً أو كذلك تاريخ ولادة كاهن الرعية، رفضوا الاستجابة لدورهم. وفي اليوم التالي، خضعت حان لاختبار آخر: فطلب القاضي منها عبر ياربه تحديد مكان وجود أوريسين غراندبيه في هذه اللحظة. وفي النهاية كان غراندبيه في منزل السيد مورات. وكان بإمكان عدة أشخاص أن يشهدوا أنه لم يغادره منذ ساعتين. فقد وقع الشيطان في الخطأ.

أما الأطباء، ونظراً للظروف التي بين أيديهم، فقط وصلوا إلى الاستنتاج بأنه، في غياب علامة الراهبات التي تضمّن تحت الرقابة الدقيقة وبعيداً عن أي تأثير خارجي، يكون من المستحيل عليهم الحكم على حقيقة الاستنحاد عليهم. وفي رأي القاضي أنه لا شيء في المشاهد التي حضرها، يدعو إلى الاستنتاج أكثر مما في أحاديث الراهبات التي سمعها. فبعضهم على يقين بأن الأمر يتعلق بنوع من الخداع. وآخرون يلتصقون دون تحفظ بما يفسرونه على أنه دلالة على الظهور الإلهي. وقد أخذ أوريسين غراندبيه في الكماشة والدعوة الملاحق فيها تعادل الإذانة وبأمل من عدالة الملك عدم التحير الذي يتظّره دون جدوى من أعدائه المحلفين. ما يعبر عنه الانتماس الذي وحده، في تشرين الأول/أكتوبر، إلى

#### حرقام الدولة

غليوم سيريزاي: «... ليسمح لكم بنوحيه أمر بحجز المراهبات المدعيات الاستخواناد عليهن، ووضعهن في منزل آخر بشكل منفصل، وحراسة أشخاص غير مشبوهين، تحت النظر وبرعاية الأطباء، وبحضور أشخاص من الكنيسة غير مشبوهين».

وهي الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، أوفد أسقف لاروش سوزاي إلى لودون، معودين مكلمين بمساعدة مينيون وباريه. ومن جهته، فقد باشر المعاون هيرفيه استقصاءاته من وراء ظهر القاضي الذي وجد نفسه يُمنع من الدخول إلى الدير من قبل باريه. ووجه أوريس غرابدييه مرة أخرى الدعوى على جان أرماسياك لتحدثه وتوسط الحاكم لدى الملكة أن التماساوية: فأرسلت الملكة مرشدتها إلى لودون. لكن حضوره لم يغير شيئاً من تصميم الأب باريه. وحامت الجدة من أسقف بورديو الذي تدخل لصالح غرابدييه في النزاع الذي كان يتقابل فيه مع نيو. ويدكر الأمر الذي أصدره في 24 كانون الأول/ديسمبر 1632، بناء على طلب من كاهن الرعية، بشكل ملاتم بالقواعد المتبعة بشأن الاستخواناد: عزل الصحاباء، والمراقبة الطبية، والبحث عن الحقيقة بواسطة إلزامات مادية، إذا لزم الأمر. وكان لا بد أن يرتبط هذا البحث بشكل خاص بالمظاهر فوق الطبيعية المعروفة في حالة مماثلة، والمفهرسة وجوباً من قبل الكنيسة: القدرة على التنبؤ، والموهبة في اللغات، والقدرة على الاسترقاع. أما الإجراء المطبق

المستخدوم: علي بن مكي لومبري

على جماعة أورشوليين فإنه يُحرّف النظام الأساسي في عدة نقاط. وفضلاً عن ذلك، إن معايير الاستحواذ سيئة التطبيق فعندما يصل الطبيب المعين من قبل أسقف بوردو إلى الدير للقيام بتشريعه، لا يكون قد بقي ما يمكن النظر إليه. وجميع الشياطين يكونون قد عادروا الأجساد والموقع.

وبعد أن أصبح غراندبيه متنبهاً، طلب إلى أسقف سوردريس مسح هباريه وميسيون ومؤيديهما العلمانيين كما المنزعين، في حالات استحواذ جديدة، أن يتم التعرّيف في المستقبل، وتولي الأمر كما فعلوا نهائياً وليلاً خلال حالة المزعومات المستحود عليهم...» وكان مينيون متنبهاً وليس باريه، وهي كل حال كان في أجواء الأب إسكافي، وهو يسوعي من بوانييه، والأب عو، وهو من رهبانية نور. أما هيرقيه، فكان مدعواً لوقف ملاحقة غراندبيه بشأن عقابه. وتنفس كاهن الرعية الصعداء! لكن جان أنتج، إذا صدقنا سيرتها الذاتية، لم تعد الراحة وتبدو للخارج أنها شفيته. وفي الواقع، أصبحت الإنسنة الطليعة للشياطين الذين استمروا في الاستحواذ عليها. وكان أسموديه وإسكرون يحثانها على الترف. وكان ليجانان يشدها نحو منحدر التكثر. ويحرفها بيهيموت بمكر عن واجباتها الدينية... وقد جاء رأي أساتذة في السوربون، في 11 شباط/فبراير 1633، يؤكد واقعة الاستحواذ.

### ساعة المحرقة

كان أوريس غراندييه يعرف أنه ليس بمعزل عن عودة العضا. ومع ذلك، فإنه بدأ يظهر من جديد في مقدمة المسرح، إلى جانب ظهيره جان أرماتياك، في المعركة التي يخوضها الحاكم صانة لقصره وتحصينات لودون التي كان لويس الثالث عشر، قد أقرّ بهدمها في كانون الثاني/يناير 1630. وطبق ريشيليو بعد أن أصبح رئيس المجلس الملكي، البرنامج المنشئ الذي كان دائماً يرامجه. «تقويض حزب الهوغونو، والحطّ من كبرياء الدول الكبرى، وإحضاع جميع الرعايا لواجباتهم، ورفع اسم لملك بين الأمم الأخرى إلى الدرجة التي يجب أن يكون فيها؛ وعلى الجهة الخارجية، يجب النظر إلى الإنكليز باحترام، ومن ها ضرورة تجهيز فرنسا بحرية جديدة بهذا الاسم وفي الداخل، بنهي تحطيم القدرات العسكرية للبروتستانت وتفكيك مواقعهم.

في الثامن والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1628، سقطت لاروشيل الموقع العالي للبروتستانتية منذ 1571، ومعقل الهوغونو منذ براءة نانت. وكان سكانها قد فُتِك بهم الجوع، لكنها تحولت بعد أن فارقت خمسة عشر شهراً إلى مقر يقوده الكاردينال شخصياً. وكانت المدينة قد تواطأت مع العدو الإنكليزي وبعد أن دُكَّت حصونها، فقدت بلديتها كل امتيازاتها

وعندما تلقى جان أرماتيك الأمر بالقيام بتدمير قلعة وأسوار لودون، صفق الكاثوليك وممثلو الملك مثل النائب العام لويس ترينكانت أو المحامي بيار مينو. ومن جهتهم الهوغونو قاموا بتنظيم أنفسهم في لجنة دفاعية: ووقف الكاهن الكاثوليكي أوربين غراندييه في صفهم في بادئ الأمر ساعد الحاكم في الخطوات المتخذة من أجل الإمساك بممول الهدم

وبعد ذلك، عندما رُسيخ هذا الأخير، بعد الحصول على نتائج الهدم وملكية الأراضي تعويضاً، أخذ يسهر بنوع على مصالح صديقه، مطاردًا الذين يقومون بأعمال السلب دون تراخ، ومما حداً باستمرار مع المعوص المكلف من قبل لويس الثالث عشر بقيادة ورشة العمل وكان هذا المفوض يدعى جان مارتن وكان هذا الرجل واعدًا بمستقبل زاهر. ووضعه مهمته في علاقة منتظمة مع الكاردينال. وفي عام 1633، هنأه الملك كتابةً: فأبها السيد لومار ديمونت، بعد أن علمت بالهمة التي وضعها من أجل هدم قصر لودون، وتنفيذ الأمر الذي كنت تلقينه من قبلي، أردت أن أكتب لك هذه الرسالة لئنشهد على الرضى الذي أكنه لك من الخدمة التي أديتها لي في هذه المناسبة...e. ويعيد ذلك كلف بالتحقيق في دعوى السحر ضد أوربين غراندييه.

وفي عام 1631، حصل ريشيليو على رخصة إقامة مدينة جديدة تحمل اسمه، على أرضه المحولة إلى دوقية لأحد أعيان



#### عنوان الدولة

فرنسا وطمح ريشيليو لجعلها مركزاً لإدارات لودون، وفي مقدمتها محكمة لمخازن الغلال. وحصل على إنشاء سوق وإقامة أربعة معارض سنوية. وكانت الأعمال تحت رقابة هنري سوردس أسقف بورجو. وفي الزمن الذي قُتل لهدم قلعة رودون، أعد الكاردينال تصاميم قصره المستقبلي. أما ريشيليو الكلاسيكي فقد رحل عن هذه الأرض وأخذت لودون القرون الوسطى تفقد جذورها. وفي خريف 1633 كان لويس ديمونت عائداً إلى لودون. وبقي أمامه هدم البرج الرئيسي، وتردد عدة مرات إلى دير جماعة أورسولين. وله في ذلك مبررات شخصية. فكانت حان بيلسيه قريبة لأمه. والراعيان المحصنان الصبيان من دامير، كانتا أختين له بالزواج. وفي الأخير كانت كلير رازيلي قريبة للكاردينال، هي كذلك من أهل البيت الكائن في شارع ماكين تحت اسم الراهبة كلير سان جان.

بيد أنه في أيلول/سبتمبر، عادت الشابات من جديد. فالراهبة جان وبعض فتيانها وقعن من حديد ضحايا للتنشجيات والهولوسات، وكانت أفكار إجرامية تدفعهن للقيام رعباً عهن بحركات فحشية. ويصيب الشر حتى المعلمانيين! إليزابيت بلانشار وسوزان همسون شقيقة مصلحة أهدية الملكة واضطر لويس ديمونت للتدخل. فالتقى الأب باريه ثم الأب جوزف. وكان هذا الأخير يقيم الأمر بجدية كافية لعرشه على ريشيليو الذي يهتم بها

#### الاستحواذ عليهم في لودون

منذ البداية. وفي مذكراته، كتب الكاردينال: «منذ عام 1632، ظهرت بعض متدينات أوسولين في مدينة لودون أنهن في حالة استحواذ عليهن... فأرسلت بضعة أشخاص ذوي جدارة كنيسية وتقوى لكي يضعوا لي تقريراً حقيقياً، فعملت بإفادة الراهبات المشار إليهن أنهن سمعن بشكل منفصل، أثناء الليل، أن بعضهن سمعن أبوابهن تفتح، وأن بعض الأشخاص صعدوا ودخلوا غرفهن مع بعض الضوء المعتم الذي يتسبب بنوع من الرعب. واتفقت جميعهن أنهن رأين في غرفهن رجلاً كن يصغى دون أن يعرفته، كما لو كان الكاهن الراعي لكنيسة سان بيار في لودون، وكان يكلمهن عن الدنس، ويكثر من القناعات الكافرة، وكان يحاول احتذاب قبولهن بهاء.

وفي الثلاثين من تشرين الثاني/نوفمبر، أرسلت ريشيليو بالمجلس الملكي. وتلقى لوبارد ديمونت مهمة إعادة فتح ملف غراندييه. فقدم السيد لوبارد ديمونت، مستشار الملك، بنصائحه العامة والخاصة، إلى لودون وأمكنت أخرى حسب الحاجة، وكان عليه الإعلام... عن كل ما جرى منذ البدء، في أشكال التحويل كما في غيرها، عن مسألة الاستحواذ.. وعلى الأخص، أصدر وعلم وعمل وأكمل الملف للمدعو غراندييه، ولجميع الآخرين الذين سيوجدون متواطئون في الحالات المزعومة، حتى الحكم النهائي بشكل حصري، بالرغم من التعارضات والتسميات، والردود

المتنوعة، ومن أجلها ودون إخلال بها، لا يكون مؤجلاً بل مستقراً نوعية الجرائم، دون مراعاة للرد الذي يمكن أن يكون مطلوباً من قبل المدعو غراندييه «. وقد جرى اعتقال الكاهن الرعوي لسانت بيار على باب حجرته المجاورة للكنيسة، في السابع من كانون الأول/ديسمبر 1633. ووضح في السجن في قصر أنجيرز.

كان لدى لويسار ديمونست صلاحية مطلقة لتوجيه التحقيق وقد أتاح التفتيش في مقر كاهن الرعية إيجاد وثائق مثيرة للشفية: رسالة حول العزوبة وصمتها مادلين برو، في قطعة شعرية ذات محتوى إباحي، كل مراسلات غراندييه، وسسعة من رسالة الإسكافية. ويعود تاريخ هذه الرسالة إلى عام 1627 ويتعلق الأمر بمحرقة ضد ريشيليو موجهة إلى السيد بارادات، أول معلم فروسية للملك، واعتبرت أنها بقلم كاترين هامون، من سكان لودون، الإسكافية لدى الملكة الأم. فهل سيكون غراندييه هو الكاتب الحقيقي؟

واستؤنف التوجيه من البداية. وأعيد الاستماع إلى واهيات أورسولين وكان عددهن سح عشرة لإنتاج الرواية ذاتها تقريباً: «كان غراندييه يدخل إلى بيتهن في أي وقت من النهار أو الليل، وحلال أربعة شهور، دون أن يتمكن من تفسير كيف كان يستطيع الدخول، فكان يتقدم إليهن عندما يكنّ واقفات ويتفرغن للصلاة؛ وكان يلصق عليهن بالسوء، وكن يتعرضن للضرب بشيء لم يكنّ

يرونه... أما الآن، فلم يعد كاهن الرعية يستطيع الاستناد إلا إلى دعم عائلته. أما أرماتيك فقد قاطع لودون، ولم يرد التورط في الإجراءات الجارية. أما أسقف بوردو المدعوم من الكاردينال فلم يستطع أن يكون المدافع عن المتهم. بينما وحدهم أم أوريين وجان إستيفر وإثنان من أبنائهما، القانوني رينيه. والكاهن المعاون في لودون، وفرانسوا ضاعفوا المساعي، وحاولوا الحصول على رد لويار ديمونت. أليس فيه جزء مرتبط بالمتهمين، بالمخالطة الشخصية والاتصالات العائلية؟ ألا يبدو معادياً للمتهم؟ وانهمت جان إستيفر لويار ديمونت بتوجيه العساء وإغراء الشهود وتزييف الشهادات، ولم يكن المستشار الملكي يملك علاجاً لذلك. وغضل دعم الأب حوزف وريشيليو تمزرت صلاحياته المطلقة.

في الرابع من شباط/فبراير 1634، ذهب لويار ديمونت إلى أنجرز للاستماع إلى غرانديه. وحاول جعله يتكلم خلال أسبوع، لكن دون جدوى. والكاهن السرعوي يعترف بأن رسالة العزوبة فقط هي من كتابة يده وفي نيسان/أبريل عاد لويار ديمونت إلى لودون دون الحصول على اعترافات حاسمة. وتحول غرانديه في مكانه واحتفظ بالسر. وفي الرابع عشر من نيسان تواجه مع راهبات أورشوليين. معرفن فيه دون تردد، الشبح الذي يضطهدهن. واستدعي الجراح مونوري للتحقق مما إذا كان غرانديه يحمل التوقيع الذي يطبعه الشيطان على أحساد مخلوقاته في بقع غير

حساسة بالألم. وقد كشفت تمويده على رئيسة الدير أن كاهن الرعية كان موسوماً «قرب الشرح وفي الخصيتين». ويتزود مونوري بحرية كان يجرح بها كاهن الرعية في كل حسمه تقريباً. وكان هو يشنقض ويصرخ من الألم... إلا عندما يعمل الجراح في الأمكة المعصية. وكان غراندبيه يبدى احتجاجه. إذا لم يشعر بشيء فإن ذلك يعني التظاهر «بحظه» وتختبر التجربة، مرة ثانية. ولم تقنع صيحات الألم من غراندبيه قضائه. والثابت أن الشيطان قد طبع علامته على جسد المنهم

ثم قُتل الميتاق الذي عقده كاهن الرعية لكنيسة سانت يار مع إلميس وكان أسموديه أحد الشياطين العديدين الذين يستحوذون على الراهبة حان، قد قبل توفير نسخة عن ذلك الميتاق: «سيدي ومعلمي، أعترف بك من أجل ربي وأعدك بأن أحملك أثناء حياتي، ومنذ الآن إنني أعدك عن جميع الآخرين، وعن يسوع ومريم وجميع قديسي السماء، وعن الكنيسة الكاثوليكية والرسولية والرومانية.. وأعد بالقيام بأكثر قدر من السوء أستطيع تحقيقه.. وأن أجذب إلى السوء أكر عدد ممكن من الأشخاص.. إني أقدم لك جسدي وروحي وحياتي كلتي أعذت كل ذلك عنك، وأترك كل ذلك إلى الأبد دون أية إرادة من الندم. هكذا وقع أوربين غراندبيه بدمه. وتأكيذاً للوقائع، كان أسموديه يعلن، دائماً بقم الراهبة جان، أن الدم ينشأ بقطع للإهمام

المستحود عليهم في اليوم،

الأيحس. وقد وجد أثر الجرح على الإبهام الأيمن لغراندبيه، الذي كان يقسم أنه جرح هناك وهو يقطع الخبر. ما هي جدوى ذلك؟ السبب مفروغ منه.

وتوارد الفضوليون، فكان باريه يطرد الروح الشريرة بكل قوة من المستحود عليهم وبعد ذلك يحل محله الأنوان غيتو ولاكتانس، بمساعدة أربعة رهبان كيوشيين. وتكون الحلقات عامة ومن أجل لا شيء في الدنيا لا يخيب المسمى. وأمام حشد يستتار، يستفيد الكهان من ذلك لأداء الوعظ بالإيمان الكاثوليكي، ملوحين بالمقاب الشامي لجميع الذين يتأمررون ضد الله والملك. ولهذه المناسبة تستقبل لودون شخصيات نبيلة. ويعود الكثيرون مقتنعين بالطبيعة الغريبة للأمر التي شهدوها. ويؤكد أحدهم أن جان أنج قد أقيمت في ضحا خبر الذبيحة ساعتين دون أن تتلاشى. وشهد آخرون تمويده المشيرين من أيارلمايو التي غادر خلالها ثلاثة شياطين جسد رئيسة الدير تاركين فيه ثلاثة جروح ظاهرة للمعان! وأدى الحدث الذي أعلن من قبل أسموديه، إلى ظهور تجمع مؤثر. فقد شهد أطباء على تلقائية الحروح. ومع ذلك فقد صاح أحدهم مخادعاً أنه شهد شجرة في يدي رئيسة الدير! كما عبر أحد قادة جوقة الشرف عن شكره. أما بروتستانتو المدينة، فقد طلوا بعيدين عن الاحتفال.

#### جرائم القردة

بين المتشكك والكافر، لا وجود إلا لخطوة: فقد هدد لوبار ديمونت بملاحقة المكذبين الذين يحاولون الرهان على الخداع. وهكذا في نهاية أيام، اضطر طيبيان للهروب تجنباً لصواعق المستشار. وبفصل اللذين يحاولون دائماً الدفاع عن قضية كاهن الرعية: إثنان من رهبانه، رنيه وجان، أودعا في السجن. وذلك دفاع محاسي جان إستيفر كهرسخة في واد وكانت مادلين برو قلقه، وخضع منزلها لتفتيش دقيق. وخلال التعميقات الأخيرة، نردد اسمها عدة مرات. واعتبرت متواطئة مع الساحر. وأخيراً أفلتت غليوم سيريزاي وزوجته من المكيدة التي كانت تستهدف توريظهما بالسحر وشعر أصدقاء غراندييه برائحة الكبريت.

في 23 حزيران/يونيو 1634، بلغت الحمى الجماعية ذروتها وكان لا بد أن تحصل مواجهة أخيرة بين أوريسن غراندييه والمستحوذ عليهن. وحان الموعد لذلك، وطاف حشد كبير المدينة قبل التجمع في كنيسة الصليب المقدس. وكان أوريسن غراندييه في الجوفة، برفقة حارسين. وكان كاهن لاروش - بوزاي يرأس الجلسة. وكان الأب لاكتانس يرأس الاحتفال. فقدم كومتين صغيرتين من الفغار والرماد وتركيب غريب من أشياء لا أهمية لها وبهذه الحيلة كان غراندييه قد فنس الراهبات. ما يثبت الصفة الجهمية التي عقدها مع الشيطان وتمجّل لوبار ديمونت لإحراق هذه الموائد الثوتية، على قدم المذبح وقد حان الوقت لإدخال

المستحود: *الطوبى لى لودون*

المستحود عليهن إلى صحن الكنيسة. وخطرت الفكرة الأصلية للأب لأكسانس سالدجوه إلى التعميد من قبل غراندييه نفسه. وحاول المنهم التصل، لكنه اضطر في النهاية للتعميد تحت خطر تفاقم حالته. وما كاد باشر قراءة كتاب الطقوس حتى تحولت الراهبات إلى شريبات شقات. ومعهم البعض منهن على كاهن البرعية، وأخريات مزقن قصائهن وانصرفن بصدورهن العارية إلى حركات بهلوانية شهوانية، ورجفن على الأرض بشكل فجئ. كانت المستيريا في أوحها. وكان بحب قطع الاحتفال وتعريق المؤمنين.

لقد حان الوقت للانتهاء من ذلك معي لودون، كما هي كل المملكة. كان لا بد من وقف الفوضى. وفي كل مكان صارت الأحكام تؤخذ بسرعة، وسقطت القرارات. وكانت الإصلاحات الأهداف الأولى للسلطة. وفي عام 1620، وكادت حروب لويس الثالث عشر الدينية قد تركت شرشاً من الدم بين بو وموبيليه وتميزت سنوات 1630 بتعميد إعدام المتأمرين على رصيد أم أو نسقي الملك. في أيار/سايو 1632، المارشال ماريك، وفي نيسان/أبريل 1634 نيكولاس غارغنت وأديان بوشار، شافانيك وتسانتوب في السنة نفسها. وقد فتحت «أبام الأحاد والأعياد في بوانتييه» من جديد الملاحقات ضد البروتستانت. وجاءت محاكمة لودون في العوجة ذاتها وشرح ذلك ريتشليو في مذكراته: وهكذا



#### جرائم الدولة

قدم جلالته بعدائه العلاج لأعمال القوضى التي تسبب بها حيث الأشخاص في دولته، وكان مرغماً على استعمال سلطته من أجل تقوية الكنيسة ومساعدتها في العلاجات التي كان من الضروري وضعها في الاضطراب الذي كانت الروح الشريرة قد عرضت عليه منذ بعض الوقت، في الكنيسة في شخص بعض راهبات لودون.

وفي الثامن من تموز/يوليو وضعت لائحة القضاة الذين سينتقلون المحكمة المكلفة بمحاكمة غراندييه. وقاموا، من تموز/يوليو إلى آب/أغسطس، بالتدقيق في ملف من خمسة آلاف صفحة لا بد من تأسيسها لتثبيت واقعة الاستحواذ والانتفاع بإدارة غراندييه. وكان هذا الأخير يحضر دفاعه وكتب لأمه ووجه التماساً إلى الملك، مستعيداً الحجج ذاتها بلا ملل وكان يتكلم على «جهل هؤلاء الشياطين المزعومين الذين لا يفهمون إلا لغة بلدهم وبعض الكلمات اللاتينية» وعجزهم «عن رفع مستوى الكائنات المستحوذ عليها» كما «مس كشف الأمور الخفية والمخفية». ويشرح غراندييه بعد ذلك واقع أنه من المستحيل الاعتماد على قول الشيطان ويطعن فيه كزيف. وفي الأخير يحمل على قضائه. ويندد بنحيزهم حيال ما يحصه. ويتهمهم بتحريك الشهود والضحايا. ويميد هذا الدفاع كلمة بكلمة في 15 و 16 آب/أغسطس أمام المحكمة المنعقدة في دير الكرملين: فلم يعترف بشيء. وهو بريء. وفي 17 آب/أغسطس كسرت له ساقه.

المستخد: عليهن في لومرون

وخطاب أمل الذين كانوا يأملون منه أن يخون شركاءه المحتملين. وقد تحمل غراندييه الأسم واستمر في نفي كل شيء، ما عدا علاقته الأئمة مع عدة نساء في المدينة. وكانت الساعة الخامسة، عندما رُفع كاهن الرعية على المحرقة، في ساحة الصليب المقدس. وبعد أن أُنذر للمرة الأخيرة لاستنكار الشيطان، قال هذه الكلمات الأخيرة: «أذهب بكليتي في هذه الساعة إلى الجنة. وتقدم الأب لاكتانس حالاً محل الجلاد، ووضع النار نفسه على حزمة الحطب.

#### الخاتمة

في اليوم التالي، كشفت الشياطين في رثية الدير، أن غراندييه قد وصل إلى الجحيم وفي 19 آب/أغسطس قدم الأب لاكتانس الدلائل الأولى على نخل عميق. وفي اليوم ذاته أصدر لويسار ديمونت الأمر باعتقال مادلين برو، المتعذرة الوجود. وأعلن أنه حقق هداية عشرة من الهوغونوت، وفي 22 اكتملت أعجوبة أثناء تعويد إليزابيث بلاشار، حيث تلوت قطعة نخر الذبيحة التي كان الكاهن يرضعها على ابتلاعها بالدم على لسانها، في حين لم يظهر أي جرح، فقد قبل الشيطان بذلك لأن الأمر يتعلق بدم المسيح، تكذيباً للبروتستانت الذين لا يعترفون بسر القديمان المقدس. وفي 3 أيلول/سبتمبر اعتقلت مادلين برو. ولم يكن الأب

#### جرائم الدولة

لاكتانس قد وجد الراحة مطلقاً بعد إعدام عراندبيه، ثم مات فجأة في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر. وبعد زمن قصير، تعرض الأب تراتكيل الكوشبي الذي غطى المحاكمة، لحالة قلق ناتجة عن أشكال من الهلوسة. ومات مجنوناً في 31 أيار/مايو 1638. أما لويار ديمونت الذي كان يرى معه يفقد سواعده المنتظمة، فقد طلب من الأسقف يواتيه مشعورين جدداً. أما ويشيليو الذي كان محجوزاً عليه من قبل القضاء، فقد أوصى بترك مادلين برو بسلام، وأطلق سراحها في تشرين الأول/أكتوبر وبدوره تعرض لوياس شوفيه، معاون القاصي، لسوء من الجوع، ثم تعرض الحراح مونوري لرؤية شبح عراندبيه. وأصيب بالهذيان عدة أيام ثم مات. ولم تعادر اللغة مدينة لودون.

وفي نهاية كانون الأول/ديسمبر، تقرب الأب سويريس اليسوعي من الراحة جان أنج. وكانت بدايات علاقتهما صعبة، لكن الثقة بين الكاهن ورئيسة الدبر ترسخت شيئاً فشيئاً. وفي الثالث من كانون الثاني/يناير 1635 اعتقدت جان أنج أنها حامل - كما كان الأطباء مقتنعين بذلك - وأرادت أن تنتحر. وظهرت معجزة جديدة. حيث أمسك يسوع ذراعها، واختفت إشارات الحمل وقام لويار ديمونت بإفراغ الممهد البرونستاتي من مستأجره، وخصصه لحمية أورسولين وفي بيسان/إيريل، حرق

المستخدوم: علي بن علي لودون

جان أرمانيك من قتل سكرتيره لوك الذي حاول قتله. وتوفي الحاكم في الرابع والعشرين. وفي الوقت ذاته، انطلقا لويس شوفيه، وأصيب غليوم سيريزاي بأزمة السكتة

ونقل إلى لوبار ديمونت، حبراً يريحه على الأقل. فقد عثته ريشيليو في شهر أيار/مايو ناطقاً أرياف مين وأنحو وتودين ولوداني. وكان يتبع له القلب الجديد مواجعة مصابقيه، مثل الكونت لود الذي كان يدعي إحباط خداع المستحوذ عليهم. وأصبح شقيق الملك، غاستون أورليانس شاهداً رئيسياً في قضية الانتقال إلى لودون. ففي الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر خرج ليجياتان، تاركاً شارة صليب مدمى على جبهة جان، لمدة ثلاثة أسابيع. وفي 29 كان دور لعمام، وطهر اسم «جوزف» على اليد اليسرى لرئيسة الدبر. وفي السادس من كانون الثاني/يناير اقتبس إيسكارون الطريق ذاتها. وتعني السمات بأحرف M.A.R.I.A. ويُنسك الأب سورين، ويترغم على مغادرة لودون بسبب العرض، ويحل محله الأب ريسيس. وتتوالى المعجزات: في السابع من شباط/فبراير 1637، تصل حان أنج إلى ساعة الاحتشاد. ويرورها القديس جوزف ليلاً وتستعيد صحتها فجأة، ويستعيد الأب سورين موقعه إلى جانبها في تموز/يوليو.

وتذهب دوقه إغنيون، ابنة شقيق ريشيليو برفقة رئيس دير أوبينيك، إلى لودون في أيلول/سبتمبر. ولم يحطيا بتعاطف

#### جرائم همدلة

عاستون أورليانيس. وشكاً بالخداع، بصحان متطلق حملة وشاية يغرق فيها المغلاتيون. ويؤدي إعلان طرد الشيطان الأخير، في 15 تشرين الأول/أكتوبر 1637، إلى وضع حد نهائي سعيد للاستحواذ. وفي المناسبة، تحول اليد اليسرى لرئيسة الدير إلى رسم حقيقي: فإلى السمات السابقة تضاف أسماء يسوع والقديس فرانسوا سال...

ويكون بيهيوت قد رحل، لكنه كان قد طلب من جان أن تؤدي حجاً إلى قبر القديس في أنيسي. وتنطلق رئيسة الدير في طريقها وتقوم بجولة في باريس، وتبقى ساعة الكرسي. وفي 11 أيار/مايو تستقبل من قبل ريشيليو، ثم من قبل الملكة آن النمساوية التي تحمل في بطنها وريث العرش الذي طال انتظاره. وفي 29 أيار/مايو، منح لويس الثالث عشر مقابلة لصاحبة أعجوبة لودون وفي الخامس من أيلول/سبتمبر، تلد أن النمساوية عطية الله لويس الصغير. وفي تموز/يوليو 1642، يضع كولبير حداً نهائياً لمحاكمات الساحر بقرار منه.

القسم الثالث

الملهاة القضائية

العدالة المكشوفة: دعوى القطع



في هذه الدعاوى تنزع العدالة قناعها، ويحتفي المتهم بئيم  
أخرى غير قيم فضائه، ويرفض محصل الاتهام وحتى شرعية  
المحكمة. وعلى العكس فإنه يتحمل بكبرياء مسؤولية الجرم الذي  
يلام عليه والمحاكمة توفر له فائدة معينة. فينادي بكسر علاقته مع  
القانون، باسم قانون غير مكتوب، أو باسم المستقبل (تلك هي  
الثورة). وعلى عكس ما يجري في المحاكمات المموهة، تكون  
مصلحة المتهم هنا بالتوجه إلى الرأي العام، بينما ينتهت منه  
القضاة، حماسة النظام العام، لأن المناقشة العامة يمكن أن تنير  
الجدل حول قيمهم، وفي الوقت ذاته، تؤدي إلى فقدان الثقة بها.  
ويتقلب موقف البعض والبعض الآخر. تلك هي استراتيجية الدفاع  
عن سجناء جهة التحرير الوطني اعتباراً من معركة مدينة الجزائر.  
أما في المرحلة الثورية، فيكون النواب العامون هم القادرون  
على الإحساس بالرغبة في تأكيد الكسر مع النظام العام، في مناسبة  
إحدى المحاكمات. هذا ما شكل، عند محاكمة لويس السادس  
عشر، إرادة نواب الجبل، وفي طلبتهم، سان - جوست وروسيبار  
وميرلين تيونفيل وباريز.



## الفصل الأول

### دعوى تدنيس المقدسات

الدعوى الأجل في التاريخ والأغرب أيضاً، وبالتأكيد الأكبر بالرسالة الدامية للأمل الذي تطلقه في العالم، وهي دون أدنى شك دعوى لويس السادس عشر. ولم تكن لدعوى نورسرخ ذاتها هذه الأهمية، لأن المنتصرين والمهزومين فيها تظاهروا باحترام القيم ذاتها. بينما تضيء لنا محاكمة الملك بنورها المأتمني. وتتواحه فيها أكبر العقول وأشرفها، والمسكونة بأحلامها، أمثال ماليرب وسان جوست وفيرنيو ورويسبار، كأنها في حالة رويضة، وموجهة من مفاجأة إلى أخرى بحكم الواقع. وفي اللحظة التي فُتحت فيها كان لدى الجمهورية الفتية قواعد غير مطمئة على الإطلاق. فكانت لا تزال نظرياً تحت نظام دستور ملكي (لم يلقَ دستور الجمهورية الأولى إلا في 24 حزيران/يونيو 1793) وكانت السلطات موزعة هي الغالب بشكل غامض بين المؤتمر الوطني ووحدة باريس الإدارية. وكان الشارع الباريسي، ممثلاً بفروعه، في حالة تمرد شبه دائم، والسوداي في حالة اضطراب، والمؤتمرات تتكاثر، وكانت

#### جرائم الدولة

إرادة الجيرونديين بـ «تصدير» الثورة بالحديد والبنار تحارف بأن تستثير ضدها تحالفاً من القوى الأوروبية.

وبعد سقوط وسجن لويس كاتب في الهيكل، ولم تعد لديه أية وسيلة للتأمر ضد أحد كائنات من كان. وفي الواقع كانت قضيته الأساسية السعي إلى «تدميره» كما أمكن أن يقول ذلك مركز منطقة ساد، في مدى إجراء أقله أن يقال عنه ما عرّض، ويظهر في حو في غاية العراة. يكون ممثلو الشعب في الواقع مجمعين على التكوّن في أن معاً كمنهمين وفصاة ومحلفين.

ولخص عضو المؤتمر الوطني ميرلين توبنيل الوضع جيداً، في الأول من تشرين الأول/أكتوبر: «حان الوقت أخيراً بعد صدور قرار إلغاء الملكية، لينتدّن للمؤتمر أن ملكاً خلع عن العرش، ولم بعد يتمتع بصفة مواطن، لا بد أن يسقط تحت ضربات السيف الوطني، وكل الذين نامروا معه سيلحقون به إلى المقصلة حسناً، إن أدلة خيالاته وحيانات عملاته توجد في لجنة الرقابة. إنني أطلب أن يحاكم الأثم الذي كان يريد إهراق دم شعبه بكثرة، من قبلكم، لأن المؤتمر، بالسبة له، يجب أن يكون مشفوعاً بالانهاام ومشفوعاً بالحاكم». ورغم «الأدلة» والمتذرع بها ميرلين توبنيل، فإن الجملة الأولى تظهر بوضوح أن لويس لا بد أن يموت لسببين: أولاً لأنه كان ملكاً، وبالتالي لأنه لم يعد ملكاً، بل ليس هو

مواطناً، مما يعني من تجاوزها بإجراء نظامي. وكان يرى ظهور مفهوم فسرهم آخرون: لكونه ليس «مواطناً، فإنه يصبح متغياً من البشرية بشكل معين.

كان الملك لويس السادس عشر قد «علقت» صفته الملكية في 10 آب/أغسطس 1792، تم أبطلت في أول قرار صدر في 21 أيلول/سبتمبر 1792، من قبل المؤتمر الوطني المنتخب، وقد جاء في هذا القرار «يقرر المؤتمر الوطني بالإجماع إلغاء الملكية في فرنسا». وبناء على ذلك، إذا حوكم المواطن لويس كابت، فيكون ذلك بسبب أعمال لاحقة لتاريخ 21 أيلول/سبتمبر، وإذا حوكم بصفته الملك لويس السادس عشر، يكون ذلك متعارضاً مع دستور 3 أيلول/سبتمبر 1791 الذي لم يُلغ بشكل رسمي وبقيت حصانه وعدم مسؤوليته أمام الجمعية الوطنية. ولم يتف ظهور هذه العقبة سواء أمام المدافعين عن لويس كما أمام متهميه. ولهذا السبب نشبت الأولون بالدستور والقانون بينما اعتبر الآخرون أنه لا بد من رفع الأمر إلى أرضية أخرى: فإذا حوت محاكمة، فإنها ستكون فعلاً سياسياً، وليس، إذا صح القول، «فعلاً قانونياً». ويكون ذلك فعل قطع لا سابق له، يطليه مبرر الدولة، أو بدقة أكثر، فعل ضروري لتأسيس الدولة الجمهورية.

#### جرائم الدولة

لكن محاكمة، حتى الأكثر إنصافاً، يمكن أن تنقلب صد المحرضين. هذا هو السبب الذي جعل روسبيار معادياً لها بشكل عميق، وفي رسالة إلى مفوضيه، كتب النائب في كاتون الأول/ديسمبر 1792: «ستكون المحاكمة المزعومة للملك لويس السادس عشر كما كنا نوقعا: حجة للاضطرابات والتمرد، ووسيلة معينة للروح العامة، في أيدي مديري الدساتير، وأثر تذكاري للضعف والأحكام المسنفة والنشاز». إنها محاكمة مثيرة للفصحك مثل محاكمات شارل الأول وملوك آخرين كانوا قد قتلوا من قبل أمثالهم كان يجب محاكمته كطاغية أدين بانتفاضة الشعب. فأجريت له محاكمة كما لمواطن منهم بحرمة مشكوك فيها. وكان يجب توطيد الثورة بعمقه، وإعادتها معها إلى قضية خلائية. وكان يجب محاكمته على أساس مبادئ حقوق الأشخاص، فيحاكم بقواعد لا تعود إلى القانون الطبيعي ولا للقوانين السابقة، بل هي خليط ملتبس وممسوح عن البعض والبعض الآخر يحاكم ليس حسب روح الجمهورية، بل حسب القواعد المسيقة للملكية.

ففي رأي روسبيار أنه لا بد من إعلان مصلحة الدولة أمام الرأي العام. لكن اليقويين لم يكونوا إلا فئة. وما لم يدركه المخلصون البيدون عن الفساد أن أفضل مكر للصوت من أجل الثورة إنما هي محاكمة قطع تجعل المحكمة متبراً لمجاهة أفكار التبرير الأعلى لمن هم أكثر قوة. فأنشاء حزب الجزائر، كانت

دعوى تقييد القسطنطين

الاعتداءات العمياء لجهة التحرير الوطني تثير غضب الرأي العام الفرنسي، لكن محاكمات مرتكبيها المفترضين كانت تثيرهم.

#### مصلحة الدولة المقنعة

لم يصغ أحد إلى رويسيار، فكانت هناك لجنة تدعى «لجنة الأربع والعشرين»، وكانت تحت سيطرة الجيروديين، ومكلفة بالشقاعة، بينما كانت هناك لجنة تحاول تحديد الإطار القانوني للمحاكمة. وعرضت تقريرها في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر 1792 أمام ممثلي الشعب من قبل مقرر اللجنة جان باتيست مايل، وهو محام تولوزي كان في الثامنة والثلاثين من العمر. وكان قانونياً فطناً ومقتنعاً بإدانة لويس، وبضرورة محاكمته، وتغادي بمهارة العقبة المثقلة بالحصانة الدستورية شارحاً أن اللجنة أجابت بأن «جميع المحاكم القائمة حالياً قد تأسست بالدستور، وأن تأثير حصانة الملك إما يكون في عدم إمكانية خضوعه للمحاكمة من قبل أية سلطة من السلطات الشرعية؛ وأن هذه الحصانة لا تزول إلا أمام الأمة، وللأمة وحدها حق ملاحقة لويس السادس عشر في جرائم دستورية، وبالتالي يجب أن يقرر المؤتمر الوطني ذاته شأن حرائمه، أو يحيلها إلى محكمة مشكلة من قبل الأمة كلها».

وبعد مجادلات حادة، وصلت اللجنة إلى نتيجة الأخذ بالحل الأول. وحرصاً على ألا يذهب بعيداً جداً، فقد عرض مايل دعوى

تكون فيها مصلحة الدولة مقننة: فليس الهدف محاكمة نظام الملكية، بل محاكمة رجل يدعى لويس كاست، قبل الملكية، عن جرائم إدارته. ومثل هذا الحل لا يمكن أن يتلاءم مع الذين يعتقدون أن مصلحة الدولة يجب أن تكون معلقة. وقد طرحت مسألة الحصانة وبالتالي شرعية الحكم من جديد على المؤتمر من قبل شارل موريسون نائب فينديه: وعلى المؤتمر الوطني بالتالي أن يبدأ بأن يقرر في مسألة سقوط لويس السادس عشر، لكنه ورغم اقتضائه بحق بأنه لا وجود للحرية والازدهار العام حيث يوجد ملوك، أعلن إنشاء الملكية؛ حيث أنك لم يبق وجود للملوك، وأنتهت، خيراً، ولن يلوثوا أرض الجمهورية أبداً. لكن هل كان لا يزال على المؤتمر الوطني مهمة محاكمة لويس السادس عشر؟ إنني أدمم مقولة أنه لم يعد يستطيع القيام بها، لأن الحكم هي النظام الاجتماعي ليس هو إلا تطبيقاً لقانون موجود سابقاً، وأنه لم يكن هناك وجود لقانون إيجابي يمكن تطبيقه على لويس السادس عشر، ولا وجود لعقوبة يمكن إقرارها ضده... لويس السادس عشر الآن لا يمكن إسقاطه إلا بسلاح القانون، والقانون لم يقرر شيئاً بشأنه، وبالتالي لا يمكننا محاكمته.

### مصلحة الدولة تتجلى

كان لا بد من العودة إلى المسألة الأساسية: لماذا لا بد أن يموت لويس؟ كان يمكن لروبييار أن يكون رجل الساعة، لو

كان يمتلك موهبة خطابة كافية للفوز بتأييد أكثرية رملاته، لكنه لم يكن يمتلك هذه الموهبة لذا، فقد توجه ضد موريسون نائب تنه محمول، والأصغر بين نواب المؤتمر، لويس أنطوان سان - جوست. كان يعرف د - سان - جوه، وفي تمام الحامسة والعشرين من العمر، إنسن المجدد لـ يكون متتخياً.

وكانت قلة من «ثوريين» من ميشليه إلى مالرو، مصدر وحي لثغرس من الانطلاق الفئائي، كما لما سمي «ملاك الرعب». ومع ذلك، فقد دلت التجربة أنه لم يكن لدى نائب إيسن شي، مما لدى المايو هي الأحلام. ذلك أنه رجل للأرض والعمل بشكل معين، وتكون بشكل واسع لوحده، ودون أن يكون عصافياً. ومنل كثيرين آخرين، كان يشهد بالشمراز نهاية النظام السابق، ومنل كثرين آخرين أيضاً، كان يصفق للثورة التي أمكنه، في أسن، اختيار مقدار الصعوبة لإدخالها في وقائع الحياة. وقد صارع بلاء مقاطعته لإثبات حقوق شعب كان يقدر له استحقاقاته، ويعمل لمعالجة أشكال بؤسه، لكنه لم يكر تنوعها أبداً. كان سان - جو من أب صايط، وربما قد ورث منه ميلاً لا جدال فيه للنظام وحسن السلوك. وكان يرغب في أخذ موقع جيد، وليس دون أن يدفعه للشكوى من الأصول الأرستقراطية، والإشتياء بيارات مترددة أو فاسدة. ويقدر ما هي المترايات، يقدر ما هي أساطير فكان سان جوست بكل بساطة رجلاً في غاية المحذر، وذا قدر

#### دراسة الدولة

كبير من الاحتشام، ولم يكن يترك شيئاً يكشف من مشاعره الأكثر حميمية.

وقبل الظهور بشكل مكشوف على ساحة السياسة الوطنية، كان سان - جوست قد قرأ كثيراً وتأمل وكتب. فقد أعجب بموتسكيو وروسو، لكن آراءه كانت تباعد عن آراء جينيفوا في نقطة أساسية: لم يكن يؤمن بحالة طبيعية أصلية نزعت يدها عن الاستحواذ عليه، بل على العكس كان مقتنعاً بأن الإنسان هو حيوان اجتماعي في جوهره.

وفي 19 آب/أغسطس 1790 كتب إلى روبينيان: «أنت الذي تدعّم الوطن المترنح في خضم السيل الجارف من الاستبداد والدساتين، أنت من لا أعرفه إلا مثل الله بالأعاجيب، أتوجه إليك، يا سيدي...» في هذه المرحلة، لا زال سان - جوست بعيداً عن مواجهة إلغاء الملكية، حتى ولو سخر منها في قصيدة هجائية في عام 1789. لكن كم كان عدد الذين يريدون في عام 1790، هذا الإنقاذ؟ قليلون جداً في الحقيقة، وكان لا بد من انتظار الهرب إلى فارين، في 21 حزيران/يونيو 1791، وخاصة في الماشر من آب/أغسطس 1792، لكي يتقلب عدد كبير من أنصار الملكية الدستورية إلى جمهوريين شرسين. وقد كان في المؤتمر بشكل دائم، كما في نادي اليقويين حيث كانت بلاغة سان - جوست



متينة وهادئة ومتشددة، وأصبح شريكاً لروبييار الذي لم ينس رسالة 19 آب/أغسطس 1790.

وعندما أخذ الكلام ليرد على موريسون، في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1792، أثارته جملة الأولى دهشة سامعيه بشكل فوري: «أبدأ بتقديم الدليل على أن الملك يمكن أن يحاكم، وأن رأي موريسون بالحفاظ على الحصانة، ورأي اللوحة التي تريد أن يحاكم بصفة مواطن، كلاهما خاطئ، وأنه يجب أن يحاكم على أساس المبادئ التي لا تقود للرأي الأول ولا للرأي الثاني... كان الهدف الوحيد للجنة إقناعكم بأنه يجب أن يحاكم الملك كمواطن عادي، وأنا أقول أنه يجب محاكمة الملك بصفة عدو، وأن ما لدينا لمحاكمته أقل مما لدينا لمحارته، وأن صيغ التواعد القانونية، ليست واردة أبداً في القانون المدني، بل في قانون حق الأشخاص». وفي كل حال أبدى سان - جوست أسفه مثل روبسييار، لهذا القتل الضروري، لكن المؤسس، الذي يستعيد بشكل لا يمكن دفعه أورده، مقتل ريموس من قبل رومولوس، الذي جرى بصفته محاكمة. «ما يدهش أنه في القرن الثامن عشر كان التقدم أقل مما في زمن قيصر، حيث قتل الطاغية في وسط المجلس ودون أية شكلية أخرى غير الاثني والعشرين طعنة صبحر ودون قانون أخير إلا حرية روما». محاكمة ملك كانه مواطن! وستدهش هذه الكلمة الأحيال القادمة. وتكون لفظة حاكم

#### جرائم القوالة

نعني طبق القانون. ويكون القانون علاقة قضائية. فما هي العلاقة القضائية بين البشرية والملوك؟ وهذا سؤال أساسي. فإن سان - جوست ينكر على لويس الصفة الإنسانية، ويفرّ قتل بصفة عدو للحسن الشري، الأسر الذي يعتبر ويشكل مفارق، شكلاً من الاعتراف للملكية بطابع «فوق الطبيعة»، بل «فوق البشري»... وبعد إعلان جان مول سانت أندريه، عند استئناف المناقشات، أن دكايت قد حكم في العاشر من آب، وأن إعادة محاكمته إلى ساط البحث، نعني إجراء محاكمة للتور، ويكون ذلك بمثابة إعلان أنكم مستردون، أخذ الكلام وروسيبار، فقال: «ماذا ينتج مما يعنيه هذا القول؟ لتلق العدالة والسياسة الحكيمة في الإصلاح على طلب الإصلاح المتوجب الأداء لنشرية من قبل لويس السادس عشر، ويبقى الآن أن نتفحص كيف يجب أن حاكم. ولن نكون هذه المسألة أكثر صعوبة في القرار من سافانها، إذا عدنا للبيد الحقيقية. ويكفي تجنب أحد المصادر الأكثر خصياً بأخطائنا السياسية، ويكفي هذا المصدر، كما أشار إليه مونتيكيو، في تقرير ما يرتبط بقانون الأشخاص أو القانون الطبيعي، بواسطة قواعد القانون الوضعي... ومن جهة أخرى. هنا يتقرر الأمان الوطني بمحاكمة لويس السادس عشر. فيجب أن يعاقب أو تكون الجمهورية الفرنسية وهماً. ويصبح كل تأخير فحاً، أو حتى إخلالاً بالواجب الوطني. وأخلص إلى القول بأن على المؤتمر الوطني أن

يعلن لويس خائناً لوطنه. ومجرماً تجاه البشرية، ومعاقبته على هذا الأساس.

وبعد روبيسيار لم يتكلم أحد. لكن جيلياً يدعى بيسون أثبت أحداث عام 1793 أنه كان مبالاً للجيرونديين، طلب التصويت في 3 كانون الأول/ديسمبر على قرار بغضله «سيحاكم لويس السادس عشر من قبل المؤتمر». وشكل ذلك هزيمة جديدة لروبيسيار وأصدقائه. لكن الخسائر في السياسة كما في ألعاب الشطرنج تحضر للانتصار.

#### محاكمة شكلية

وفي اليوم التالي بدأ جدول إجرائي حول تنظيم المحاكمة، بينما كان ميرلين تيوتفيل يكشف عن خيئته بإعلانه: «لو كان عندي شيء أؤم نفسي عليه، فهو ألا أكون قد اتهمت، في العاشر من آب/أغسطس، الإلهام الأول الذي كان يؤكد لي أن أحبت نفسي متاعب محاكمة لويس السادس عشر». ويعيد روبيسيار الكرة باللعب على التباس قرار إحالة لويس إلى المحاكمة. فلم تقرر الجمعية الوطنية أن الدعوى ستكون شكلية؛ قررت فقط أنها تقرر الحكم هي ذاتها أو الحكم المتوجب على الملك. إنني أدعم، إستناداً إلى المبادئ، أنه يجب أن يحكم بالإعدام على الفور، وسبب التمرد.

#### جرائم الدولة

وفي النهاية، ستكون هناك دعوى «طفاً للأصول»، وكانت من أكثر الأمور غريبة. فقد فرضها الجيرونديون بقدر كبير من السهولة بالأكثريّة التي نصحّت في زرع الشك في أهداف الجيوفييين الذين اتهموا بالتطلع إلى الديكتاتورية بالعمل لصالح إعادة الملكية في شخص دوق أورليانس الذي كان يأخذ موقعه في المؤتمر باسم فيليب العدالة. وكان هذا الاتهام منافياً للعقل لأن فيليب شخصية غامضة ومترددة ولا يعرف هو نفسه أي هدف ينبغي... وفي 6 كانون الأول/ديسمبر تبنى المؤتمر القرار المعد من قبل كينيث ممثل إيس (مثل سان - جوست) وكان يتطلع بشكل أساسي إلى تشكيل لجنة جديدة من 21 عضواً لتكثف تقديم قرار الاتهام وإعداد «جملته الأسئلة» لترحيلها على لويس كانت، ومتولّيه أمام المؤتمر ومحاكمته بالمناداة بالاسم. فيظهر كل عضو على المبر على التوالي.

في غضون ذلك، تميز الاتهام باكتشاف خيانة جديدة في نويفري، في 19 تشرين الثاني/نوفمبر، وتعود إقامتها إلى أيار/مايو 1792 من قبل صانع الغالات للملك، فراسوا غامين، وكان لويس السادس عشر قد أختفى في هذه الخيانة بعض الوثائق التي ستقدم كأدلة إثبات ضده، وخاصة حول المسألة الأساسية للحياة والدعوة لقوى خارجية لضرب الثورة، رغم أنه لا شيء فيها حاسماً حقاً. وقد كشف غامين نفسه وجود هذه الخيانة إلى وزير الداخلية

دعوى تدمير المقدسات

الجيريوندي رولان الذي هو مدين بكل شيء لسبوع روجته المسموعة الرأي بين الجيريونديين، وقد تركت هذه الأخيرة ذكريات جميلة ومؤثرة قبل أن تعدم بالمقصلة.

### متهم مخيب للأمل

في العاشر من كانون الأول/ديسمبر، قدم تقرير لجنة الواحد والعشرين من قبل نائب منطقة أور، روبرليندت، وهو في الواقع قرار اتهامي ملفت بناؤه، يختصر «جرانم» لويس منذ عام 1789 بحماسة مفرطة لدرجة أن جيليين، منهم مارت نفسه، بين الأكثر تطرفاً كانوا يحركون الحاجبين تأثراً بهذه المبالغة ولا تقدم ها من هذا التقرير إلا الاستنتاج التالي: «لويسى مرتكب لجميع هذه الاعتداءات، وقد أدرك القصد منها منذ بداية الثورة، وحاول عدة مرات تنفيذها، مستخدماً تحالف القوى والحرب الخارجية وشرارات الحروب الأهلية، وخراب المستعمرات والاضطرابات الداخلية، كلها كانت من الوسائل التي استخدمها لإعادة بناء عرشه أو ليدفن تحت حطامه».

وبدأت المحاكمة في اليوم التالي في إحدى الصالات الرئيسية للمؤتمر، برئاسة بارير الذي تحول في الوقت المناسب من جماعة الجيريونديين إلى جماعة رويسيار اليساريين. وخلقت

#### جرائم الدولة

قراءة الاستجابات خلال دقائق الانطباع بان لويس لم يسقط فقط بل أنه استسلم ذهنياً، فلم يطمئن حتى بصلاحيه المحكمة المكونة من قبل المؤتمر، وكان متواضعاً ومحترماً والتقى باستقامته متذرعاً بحقه وبالدستور أو محملاً مسؤولية بعض الأعمال لوزرائه، وليس بغير شيء من المهارة هي بعض الأحيان. أما الوثائق التي قدمت له، فلم يكن يعرفها، رغم أن بعضها يحمل توقيعه. وما تبقى لم يكن يتذكره، حتى وجود الخزائن الحديدية وفي كل حال ظهرت عنده دلالات صدق حقيقة عندما كان تذرّع بطيئة قلبه، ويحرصه على سعادة شعبه. وأظهر لفترة قصيرة صورة ملك «فيلسوف»، إن لم نقل صورة ملك مشنور وكان ينبغي قد لاحظ بحق أنه، عندما يصبح ملك «فيلسوفاً» (بالمعنى الذي يعطيه عسر التوزيع لهذه الكلمة) يكون متأكداً أنه يحفر قبره بإيجاد «فيلسوف» أكبر منه. وتلخص هذه الجملة المختصرة مصير لويس السادس عشر.

وبعد الاستجابات، استقر لويس أن يعاد إلى الهيكل. وبقي في صالة المحاضرات برفقة شوميت وكيل النائب العام الذي لم يكن متديلاً، بل كان أحد التوريين الباريسيين الأكثر هياجاً. وكان لويس تعباً وحائماً. وعندما رأى شوميت يستعيد قواه مقطعه من الخبر، طلب منه بخجل وصوت منخفض أن يعطيه قطعة. فرد شوميت:

دعوى شليس للمحكمة

وأطلب ما تريد بصوت عال أيها السيد.

- أطلب منك قطعة حيز...

- بكل طيبة خاطر. خذ انصرف! هذه وحية إسرائيلية.

لو كنت أملك جذراً، لقدمت لك نصفه.

ثم تلقى شوميت أمراً بمرافقة لويس إلى الهيكل، بالسيارة  
وتحت أنظار جمهور غاضب يصرخ بالموت الطاعي. وفي السيارة  
أكل لويس قطعة الخبز. لكن الفتاة أريكته، ويادر شوميت بلمها  
ورميها خارجاً، رغبة في إلزامه.

لويس: «ويا هذا صبي، أن يرمى الخبز هكذا، خاصة في  
لحظة يكون فيها نادراً».

- كيف عرفت أنه نادراً؟

- لأن ما أكله فيه رائحة التراب؟»

وبعد لحظة من التفكير قال شوميت:

كانت جدتي تقول لي دائماً: «يا صغيرتي، علينا ألا نفقد أبداً  
قوة الخير، ولن نستطيع الإيمان بقدرها».

- أيها السيد شوميت، كانت جدتك، على ما يبدو، امرأة  
ذات إحساس كبير»

#### جرائم الدولة

وسمح المؤتمر لويس إمكانية الاستماع بالرأي والصبح في الدفاع عن نفسه، بيد أن أحد القانونيين ورجال السياسة الأكثر احتراماً من النظام السابق، كريتيان غلوم، كان قد كتب إلى باربر ليطالب منه إخبار مسجين الهيكل بأنه كان مستعداً لتأمين الدفاع عنه. «لا أطلب منك أبداً إطلاع المؤتمر على عرضي، لأنني بعيد جداً عن الظن بأنني شخص هام من أجل الإنشغال بأمري. لكنني استدعيت مرتين إلى مجلس من كان سيدي في الوقت الذي كانت فيه هذه المهمة مطمحاً لكل الناس. فأنا مدين له بالخدمة ذاتها، عندما تكون المهمة لدى كثير من الناس مهمة خطيرة»

وفي ذلك فعل جريء غير مسوق، قياساً على ما كان ينظره مالبرب حساً في العودة إلى فرنسا بعد أن كان قد عادها في بداية الثورة، في محاولة لمعالجة حالة الضيق في وضع الملك. هذا الرجل الذي بلغ الوحدة والسعين من العمر، وأعجب به فولتير وقالت عنه سانت - بيوف أنه مقيم د «الحرية القديمة»، وكان يثق كثيراً بالحق السليم الحديث، لم يكن من الذين يمكن للمؤتمر أن يحقرهم بسهولة. وكان ظهيراً للموسوعيين ورائداً لحرية الصحافة، ومدافعاً عن الحريات الدينية، وعضواً في مجلس الملك، ونادى بإصلاحات تستهدف بشكل خاص إعطاء الأمة تمثيلاً منتظماً. لكنه لم يستطع تخفيفها، وتحت تأثير الدساتير، قدم استقالته عد فصل تورغو. وأرادت الأسطورة أن



يقول له لويس السادس عشر، وهو يتلقى استقالته. «لا أستطيع  
مثلك، أن أعادر مكاني؟».

وقبل لويس عرض ماليرب الذي انضم إلى المحامي فرنسوا  
ترونتيت الذي كان في السادسة والستين من العمر. وهي السادس  
عشر من كانون الأول/ديسمبر كتب الإثنان ماليرب وترونتيت إلى  
رئيس المؤتمر: «اسمحوا لنا أن نبدأ بالقول أنه من المستحيل مادياً  
على رجلين، أحدهما في الستينات والآخر في السبعينات، أن يمدتا  
في مهلة قصيرة جداً، دفاعاً ضد تهمة مقسمة إلى أكثر من أربعين  
عنصر اتهام، ولدعم هذا الاتهام قدمت مئة وثلاثي وخمسون من  
الأجزاء المتناثرة وغير المصنفة في معظمها، ولا يدل بعضها على  
الاستنتاج الذي يراد استخلاصه منها... ونحن بحاجة لقدر كبير من  
المساعدة بعمل هيئة ثالثة، وقد اختار من عهد إلبا الدفاع عنه  
رجل القانون دوسيز الذي نحن متأكدان من موافقته».

ولم يكن رومين دوسيز أي شخص كان. بل كان محامياً  
لامعاً، دافع عن قضايا جعلته مشهوراً. وبذلكاء. نصح ماري  
انطوانيت في قضية العقد. وخاصة أنه كان قد أوصل الحمرال  
بيستفال إلى البراءة، بعد أن كان البلاط يتهمه بعدم معرفة أو إرادة  
قمع تمرد الرابع عشر من تموز/يوليو 1789، الأمر الذي كلفه أن  
يستجوب أمام القضاء. وتعاقم حالته، حاول بيستفال الهرب إلى  
سويسرا. وكانت قصيته تبدو لا أمل فيها، لكن دوسيز أجاد

استغلال ضيائية الظروف وواقع أن كل الناس كانوا ضده، بمن فيهم الباريسيون الذين كان هو يميل إليهم.

### دسائس اليمين والضغط الشعبية لليساار

وسرّت خمسة عشر يوماً طويلة بين المتول الأول والثاني أمام القضاء. وأخذت المحاكمة تجر طويلاً، خاصة بسبب مناورات التسوية من قبل الجيرونديين، وقد لاس بعضها إمكانية استبعاد المؤيدين عن المادة بالاسم، بحجة أنهم أعلنوا تأييدهم لموت لويس أو أنهم يعدون لانقلاب عسكري لصالح فيليب العدة. وكان الوضع في الحالة القوي من الارتباك: فمن جهة تهتز بعض الفروع بشكل خطير، ومرهقة بالكثير من البطء، ومن جهة أخرى ترتفع الأصوات أكثر فأكثر لصالح الرافة، وخاصة في السريفة؛ وفي باريس نفسها، ظهرت كتب في التداول بنجاح بإيعاز ملكي، وقام الجيرونديين بحملة لإحالة الحكم إلى الشعب الفرنسي مع الأسئل بقرار مناسم. أما روبيار وسان - جوست وأصدقائهما فقد طهروا فريقاً متمسكاً. فضلاً عن ذلك فقد عقد الملكيون والجمهوريون المعتدلون علاقات مع إنكلترا وأسبانيا من أجل شراء الثواب المتردد. ظهر ذلك بشكل خاص مع الإسبان لأن إنكلترا لم تظهر إجراء آخر يتعلق بمصير لويس...

في صميم هذه المحاولات من الرشوة، من نجد؟ دانتون.  
كان هذا الرجل قد استقال من مهامه كوزير للعدالة، بعد انتخاب  
هيئة المؤتمر، واتخذ موقفاً له على مقاعد الجمعية مع الحيليين  
معتقداً أن موت لويس سيكون خطيئة لا يمكن إصلاحها. وكان  
دائم البحث عن الوسائل التي تنقذ لويس وقد باء بالفشل لدى  
الإنكليز، لكنه حصل من المصرفي كولتو كاستلو على مبلغ  
2343811 فرنكاً بواسطة ممثل ملك إسبانيا في باريس الفارس  
أوكاريس. فهل كان ذلك حقاً نتيجة لإجراءات دانتون الذي قال له  
سان - جوست، في 31 آذار/مارس 1794: «دانتون، لقد خدمت  
الاستبداد!» في كل حال المبلغ نفسه كان قد طلب دون جدوى  
من البلاط الإنكليزي

### دفاع مئيب

في 26 كانون الأول/ديسمبر، مُثِّل لويس من جديد أمام  
المعتقلين فهل سيلقي دوسير مرافعة المحلة التي يمكنها وحدها  
إنقاذ الملك من السقوط؟ كان دوسيز حزيناً، لكنه صمّ فريق.  
ومرافعته مهيبة لكنها مخيبة، وحتى طائشة ويأستاده إلى دستور  
1791، أنكر ضمناً على المؤتمر حق محاكمة لويس وإدانة. وليس  
من طبيعة هذه المصادرة على المطلوب أن يخيف المؤتمرين،

#### جرائم الدولة

والنيل من شرعيتهم: فأبها المواطنين، سأحدثكم هنا بصراحة رجل حر. إنني أبحث عن قضاة، ولا أرى إلا منتهين. . وأصبح لويس بالتالي الفرنسي الوحيد الذي لا وجود لأي قانون بالنسبة له ولا أية صيغة ولن تكون له حقوق مواطن، ولا امتيازات ملوك.

وانغمس في حطية مديح مبالغ فيه للغاية، بملكية لويس السادس عشر، تؤدي إلى التساؤل إن كان حقاً مدركاً للحالة العسكرية لحشد جمهوري بشكل عميق، ورغم خلافاته العميقة. وكان لويس قد تولى العرش في العشرين من العمر، وفي هذا العمر أعطى للعرش مثلاً للسلوك، ولم يدخل إليه أي ضعف أتم ولا أي ميل إفسادي، وكان اقتصادياً سليماً وصلباً، وظهر فيه الصديق الثابت للشعب. وكان الشعب يرغب في إلغاء صرية وخيمة كانت تنقل عليه، فألغاه، وكان الشعب يطالب بإلغاء نظام الخدم، فبدأ بالغاءه هو نفسه في أملاكه، كان الشعب يلع في المطالبة بإصلاحات في التشريع الجرمي من أجل التخفيف عن مصير المتهمين، وقام بهذه الإصلاحات.. كان الشعب يريد الحرية، فأعطاهما لها ومع ذلك، باسم هذا الشعب نفسه يطالب اليوم.. أبها المواطنين، لم أنته بعد.. إنني أتوقف أمام التاريخ، تصوروا أنه سيحكم على حكمكم، وأن حكمه سيكون حكم القرون.

### معركة إجراءات

وامستؤنفت المحاكمة في 14 كانون الثاني/يناير 1793. وأراد الحيرونديون دعوة الشعب، خلال جمعياتهم الأولية. ومنذ اليوم التالي أعاد ساند - جوست بعض إحدى حكم الماضي العائنة: «إذا كان الملك بريئاً، يكون الشعب أثماً». ودعا نائب إيس «كل عضو إلى اعتلاء المنبر وإعلان رأيه: لويس مدان أم لا». وعليه أيضاً الانتظار حتى يستجاب: لقد فاز جيل الأقلية لكن في نهاية معركة منهكة.

في 28 كانون الأول/ديسمبر، ألقى روبسار خطاباً مطولاً خصص لإشارة حمية التعوس الأكثر فتوراً وبعد التذكير بأن «الحكم الحقيقي لملك معين، إنما هو في الحركة الثقلانية والشمالة لشعب أنهك من الظلم، لنحطيم الصولجان بين يدي طالم يفسطهده...» ويعلم: «أستطيع أن أضيف أنني أشارك الأضعف بيتا بجميع العواطف الخاصة التي تستطع إثارة اهتمام مصير المتهم. وعندما كان ينبغي إجراء حسابات مجردة لدرجة الدقة التي على عدالة القوانين أن تنشرها ضد أعداء الشربة، شعرت بتأرجح الفضيلة الجمهورية في قلبي، ويحصر المتهم المستند أمام السلطة المطلقة: إن لكرامية المستبدن والحب الإنساني مصدر مشترك في قلب الإنسان السليم الذي يحب بلده.

#### جرائم الدولة

لكن، أيها المواطنون، إن الدليل الأخير للإخلاص الواجب على مثلي الشعب تجاه الوطن، هو في التفجعية بهذه الحركات الأولية من الحساسية الطبيعية لصالح شعب كبير والإنسانية المضطهدة! أيها المواطنون، إن الحساسية التي تضحي بالبراءة لصالح الجريمة إنما هي حساسية وحشية، والرحمة التي تتصالح مع الظلمين تكون ممجية.

ورأي رويسيار أن نظاماً بقود المؤتمر للتخلي عن حق محاكمة لويس، من أجل إحاطته إلى «محكمة مؤلفة من 44 ألف محكمة خاصة» يكون من الأكثر ضرراً؛ ولقد قدمت الأدلة على أن عرض إخضاع قضية لويس كابيت إلى مجالس أولية يؤدي إلى الحرب الأهلية. فإذا كنت لا تستطيع المساعدة في إنقاذ بلدي، أبذل على الأقل في هذه الظروف جهوداً تنفادي الكوارث التي تنهلات. إنني أطالب المؤتمر بأن يعلن لويس كابيت مجرمًا يستحق الموت.

ورد عليه فيرنيتود، في 31 كانون الأول/ديسمبر، والجباليون لديهم كل شيء للشك به. فهو جمهوري لا جدال فيه - هو الذي أعلن بصفته رئيس الاجتماع العام، سقوط الملك - وكان خطيباً لا نظير له، ولم يكن يكتب خطبائه أبداً، بل يرتجلها بسهولة مذهلة، وكان الأكثر تألقاً بين الجيرونديين، وكان يلاحق بحقد دفين عامية

باريس واليهقيين، وفي المقدمة دانتون ومارات، وخاصة منذ مجازر أيلول التي كانت ترعبه لقد كان رجل ثقافة واسعة، وفارثاً شعوراً بمونتسكيو وفولتير وروسو، وموهوباً بإحساس حقيقي، وكان هذا المجد السابق لنقائه محامي يوردو يجمع الفكر المتين إلى سمات فكرية كان رويسيار يشترك فيها في عام 1793. «أستطيع أن أجيبه دون تردد، لست بحاجة مثله للفن. تكفيني روحي»، أطلق ذلك رداً عليه. وما هي سيادة الشعب...؟ إنها القدرة على وضع القوانين والأنظمة، بكلمة واحدة جميع الأعمال التي نهم سعادة الجسم الاجتماعي. ويمارس الشعب هذه القدرة، إما نداته، وإما عبر مثليه وفي هذه الحالة الأخيرة، وهي مهمتنا، تكون قرارات ممثلي الشعب مغفلة بضميمة قوانين، لكن كيف؟ لأنها مفترضة أن تكون تعبيراً عن الإرادة العامة. من هذه القرينة وحدها تصدر قوتهم، ومن هذه القرينة يشأ طابع احترامها.

«وما تقدم يستتج أن الشعب يحتفظ بحق التأيد أو عدمه، كحق ملازم لسيادته، فإن الشعب يحتفظ بحقه الملازم لسيادته، يعني بحقه في التعبير عن مشيئته، وبأنه في اللحظة التي يحصل فيها هذا التعبير تكون الإرادة المعترضة قد تحولت ولم يعد لها وجود، وهذا يعني قرار التمثيل الوطني. ويصبح حرمان الشعب من هذا الحق، وهذه القدرة سرعاً لسيادته، وتحولها، بالسلب

#### جرائم الدولة

الإحرامى، إلى رؤوس مثليه الذين اختارهم: وهذا يعني نحول مثليه إلى ملوك أو علفاء.

ويستنتج فيرنو، على عكس روبينبار: لكل قرار صادر عن مثلي الشعب إنما هو اعتداء على سيادته إذا لم يكن خاضعاً لتأييده الرسمي أو الصمي. والشعب الذي وعد لويس بالحصانة يستطيع وحده إعلان أنه يريد استخدام حق العقاب الذي كان قد عدل عنه.

لقد حاول الجيليون نزع الثقة من فيرنو بالكشف عما كان قد حاوله من التفاوض مع الملك، قبل العاشر من آب/أغسطس، مع نواب جيرونديين آخرين. ولم يلق فيرنو أية صعوبة لتبرئة نفسه وإثبات أن ذلك التفاوض لم يكن له أي هدف آخر غير إقناع الملك بأن يلتزم بوضوح أكبر بمصلحة النظام الجديد. واقتنع أكثرية النواب بهذا التوضيح لأن هذه الأكثرية كانت قد رفعت هذا الأمر إلى رئاسة المؤتمر، في العاشر من كانون الثاني/يناير 1793، ولا يمنع أن يكون عنف الحملات، إلى جانب التدخلات الإنسانية والتهديد بعمل عسكري إنكليزي، قد روع شبيهاً قشياً لغة الجيرونديين الذين كان موقفهم غير مروع على الأقل: كان الجيرونديون بالتأكيد مقتنعين في معظمهم بإدانة لويس، لكن في الوقت نفسه كانت مناوراتهم التأجيلية والمرتبكة تعطي الانطباع



بأنهم يسمون لإتقاده. هذا الوضع المرتبك أتاح للحيليين الذين كانوا على علم تام بما يريدون، تحقيق الخرق الحاسم وجمع أكثرية يابية حول آرائهم.

ويعود لمرحل أكثر مهارة وأقل جفاء من روبيسار القيام به. ففي 4 كانون الثاني/يناير 1793، رد باربر على فيريو بقدر من الذكاء السياسي، وأكثر دهاء أيضاً مما ظهر عند الخطيب الجيروندي في الرد على روبيسار: «إن لرأي فيريو الممتد إلى قدر من البلاغة نوعاً من الأنصالية الطبيعية على الرأي المعاكس، وهذه الأنصالية كاسنة في نفوس أولئك الذين يصنعون إلينا. وقد جمع فيريو لصالح رأيه كل ما يمكن من الميول النيلة والمنعشة في القلب الإنساني، من كرم النفس وتخفيف المتاعب، والصفة الأجل للسلطة العليا، والفضل الذي يروق لكل مواطن أن يرد لسيادة الشعب. كان عند فيريو كل ما هو ملائم ومؤثر، ولم يبق لرأيه إلا ما هي القوانين من قسوة وتصلب. وليس في جمعي إلا التشنف الحمهوري، وقسوة المبادئ، وأمانة التفويض والرعب الضروري لإزالة الطغيان من أجل كل أمل بالعلم»

وفي مواجهة فيريو «الحداث»، طرح باربر - والجيليون عبره - نفسه حمهورياً نقياً، واتخذ صورة جانبية لميدالية عن صورة الأبطال الرجال في العصر الروماني، العزيز، على قلوب أعضاء

#### حزب الدولة

المؤتمر، ورسمها بقدر كبير من الموهبة النائب الجبلي دافيد. كما استعاد بارير عدم تماسك المناصرين للدعوة الشعبية، فهم متفقون على المبدأ، لكنهم منقسمون على أسلوب تطبيقه: فإن التغييرات من خطباء النظام الواحد تؤكد أن اللجوء إلى الأمة غير مستند إلى قوانين صارمة، ومبادئ لا جدال فيها، عندما يتعلق الأمر بعنصر تأسيسي متلبس لجميع الصلاحيات، في مسار ثورة شكلت منشأه. إن المؤتمر هيئة تأسيسية، يعني مكلف بصياغة دستور جديد مدعو لخلافة دستور عام 1791، ولما كان الدستور لم يوجد بعد، فمن المستحيل على المشاهدين اللجوء إلى الأمة لتأسيس اقتراحاتهم على «قوانين متينة ومبادئ لا جدال فيها. لأنها لم ترسخ بعد» وأعاد بارير قضية فيرنو متشدداً أعضاء المؤتمر ألا يتدخلوا عن السيادة الشعبية التي هم مؤمنون عليها لصالح «هذا الثلاثي الخطر» وهذا «التحدي الجبان»، وهذا «التحدي الثنائي» وهذا «الإضعاف لمهمتهم» الأمر الذي تمنيه إحالة محاكمة لويس إلى تصديق الشعب. وبإطراء اعتزاز زملائه الأقل اطمئناناً، كان بارير يحضر تحالف أكثرية حول آراء روبيسيار وسان - جوست: «مستقلون أمام تمثال بروتس، وأمام بلدكم، وأمام العالم بأسره» ومحاكمة آخر ملك للفرنسيين. يدخل المؤتمر الوطني في باب الأجيال القادمة.

## المحاكمة تتأرجح

يوم الخميس في 14 كانون الثاني/يناير 1793، تبنى المؤتمر اقتراح الجيروندي، جان - باتيست بوابيه فونفريد، حول محرى التصويت عبر المسداة بالاسم. ويكون الواب مدعويين للإجابة على ثلاثة أسئلة على التوالي:

1. هل لويس مذنب؟

2. هل سيخضع فرارك لتصديق الشعب؟

3. أية عقوبة يستحقها؟

في اليوم التالي، طرح السؤال الأولان. وأجاب النواب على السؤال الأول بكلمة «نعم»، بأكثرية ساحقة: 691 من أصل 749 (مهم 31 غائبون). وكانت الإجابة على السؤال الثاني أكثر إشكالية، ومن سيجمع الأكثرية في الواقع، الجيرونديون أما الحيلون؟ وحصل الحيلون على 424 «لا» مقابل 287 «نعم». ومن المؤكد أن المحجج التي صمها روسبار، والقطعة التي وجهها باريس، متنباً ليس فقط تصويت عدد من النواب، بل حتى من الجيرونديين، مما أظهر مرة أخرى فقدان وحدتهم السياسية. إذا كان فيريو قد صوت بـ «نعم»، فإن عدداً من أصدقائه قد صوتوا بـ «لا».

أما الدعوة: حول السؤال الثالث، فقد بدأت مساء 6 كانون الثاني/يناير، وتوالت حتى اليوم التالي. هنا أيضاً أظهر الحبرويديون تفكّكهم بوضوح. أما فيرنو فقد صوت للموت، وآخرون صوتوا للسجن أو الإعدام. ولم يكن مفاجئاً بقاء الحبل متمسكاً بإرادته، ومصوتاً بجرأة للموت، ومتلاتماً في بعض الأحيان مع الدقة وفي الساعات الأربع والعشرين». وصوت دانتون، رغم دسائسه لإتقاد لويس، مثل يقية الجليلي، وفيليب العدالة أيضاً تحت تأثير قدر معين من التحرج كما يبدو... وحامت النتيجة من 721 منتخداً، صوت 366 للموت، و23 للموت مع مناقشة حول تاريخ التنفيذ، و 8 أصوات مع وقف التنفيذ حتى طرد آل بوربون، وإثنان للموت مع وقف التنفيذ ومع التخلي عن هذا الموقف في حال التعرض لغزو خارجي. القضية كانت مقررة، فإن 366 صوتاً كانوا مع الموت بلا قيد ولا شرط، ما يتجاوز الأكثرية المطلقة (361 صوتاً). وفي نهاية فترز الأصوات أعلن فيرنو. وباسم المؤتمر الوطني، أعلن أن العقوبة التي قررها ضد لويس هي عقوبة الموت.

وبعد ذلك أعطي الكلام لمحاميسي لويس الثلاثة فصاع ترونشييه في نزاع مع الأكثرية المخلوبة، ولم يستطع مايرب إلا أن يتمتم ببعض الكلمات، تحت تأثير اختناق بالاعمال. أما دوسيز فقد اكتفى بقراءة رسالة من لويس رافعاً استئنافاً به فنداء إلى الأمة نفسها لقرار حكمه مثليها، نداء زحف على الفور ومنطقياً بفصل الرد الذي صاغه المؤتمر على السؤال الثاني.

وفي 18 كانون الثاني/يناير، لجأ فيرنو إلى مراقبة اقتراع البارحة، حيث كان بعض الناخبين قد قدموا جملة اعتراضات. ولم تؤد هذه الرقابة إلى التشكيك بالاقتراع، لكنها خلقت إرباكاً أدى إلى ساداة رابعة بالاسم، إذ كانت أكثرية الأصوات المؤيدة للموت قد تحولت من 366 إلى 387، فإن 26 صوتاً قد توافقت مع طلب مناقشة حول المسألة لمعرفة ما إذا كان لا بد من تأجيل التنفيذ من أجل المصلحة العامة: 387 - 26 = 361 أي أن الأكثرية المطلوبة بدرجة مؤيدة للموت دون أية مهلة ودون إبطاء. مما أتاح لـ «مايل» الحصول على محاولة وتصويت على مسألة وقف التنفيذ. وجرى ذلك في اليوم التالي، وتولى باربر الرئاسة بدلاً من فيرنو الموضع، ولـ «آلت» مهمة إنهاء الأمر. فبدأ حجج بريسو الذي كان يتلوع به «حرب عالمية» في حال تنفيذ حكم الإعدام واستنتج بهذه المعايير: «الجمهوريات لا تولد إلا بالجهود المبذولة، ويهدم التعلق بالملكية، ولا بد من القدرة على الكفاح ضد حكومات أوروبا». وقد رفض وقف التنفيذ بـ 380 صوتاً ضد 310 أصوات، وجاء إعلان هذه النتيجة بعد تلاوة باربر للقرار التالي: «يقرّ المؤتمر الوطني أنه لن يكون هناك وقف لتنفيذ الحكم بالموت الذي أصدره في 17 من هذا الشهر ضد لويس كابيت آخر ملك للفرنسيين». وبعد ثماني وأربعين ساعة كان لويس قد أُعدم.

#### جرائم الدولة

هكذا قطعت فرنسا حبل السرة الذي كان يربطها مع الكابيتيين، أي جماعة الملك كابتيت. كان ذلك هو القطع الذي كان يريده سان - جوست وروبييار، حتى أنهما كانا يفضلان أن يكون هذا القطع قد حصل بشكل أكثر وضوحاً وصراحة وجدوية وأقل اهتماماً بالإجراءات القانونية وكانا قد فرضا نفسيهما - وكثيراً ما حل محلهما الانتهازي باربر - كرجل عهد جديد، حيث يبقى كل شيء للتحقيق، وحيث كان لا بد من إزاحة كل آثار العالم السابق. وكان ينتظرهما مصير عظيم ومرعب.

## الفصل الثاني

### محاكمات جبهة التحرير الوطني

عندما اندلعت حرب الجزائر في تشرين الثاني/نوفمبر 1954، كان رد فعل السلطات الفرنسية إنكار طابعها الوطني، والادعاء بأن الجزائريين هم فرسيون، وبالتالي فإن أعمال المقاومة من قبلهم هي جرائم الحق العام الناتجة عن قمع قانوني صافي، وكان القضاء العسكري هو المطبق، وكان هو الإطار الذي حاولت الحكومة الفرنسية فرضه من أجل حل النزاع. وخلال ثلاث سنوات، كان المدافعون الفرنسيون عن السجناء الجزائريين يتجهون لقبول هذه القاعدة، لكن اعتباراً من عام 1957 هي الجزائر، ومن عام 1958 في فرنسا، رفض وجه جديد للدفاع هذا الحدل القضائي، وانتشر محاكمة بعد محاكمة، القناع عن حرب لم تكن تنجرأ على ذكر اسمها. ويمكن اليوم تتبع هذا المسار عبر وثائق المرحلة التي أصبحت تحت المناول أخيراً: تقارير للشرطة أو لجبهة التحرير الوطني، ومقالات صحافية بوصفها في أفقها الصحيح أو أبحاث جامعية.

#### حرائم الدولة

في المحاكمات المقامة من قبل السلطة الملكية في قضية فرسان الهيكل أو في قضية أوريين غراندييه، لم يكن للجذور الدينية ضد المتهمين أية علاقة مع النزاع السياسي الذي لم يكن يُستخدم إلا لتنظيمه. فكان يمكن لهذه المحاكمات أن تلعب دورها التضييقي. ولم يكن بإمكان المتهمين أن يرفضوا الرد على المآخذ الموجهة لهم سواء كانت مسندة أم لا. وفي المحاكمات المقامة ضد المكابحين الجزائريين، كانت الوقائع المنسوبة إليهم مرتبطة بشكل لا ينقسم بنزاع سياسي كانت السلطات الجمهورية لا تريد طرحه. بالطبع كان ذلك من جانب هذه السلطات وهاتاً، ولم يكن غريباً أن يشفق التركيب القضائي المصنع لإخماد النزاع السياسي الذي تفاقم أثناء معركة مدينة الجزائر في عام 1957. وفي بحث أعدته «سيلفيا تينو» تحت عنوان «عدالة غريبة»، وصف لهذا الانفجار للعنف القضائي.

إضافة للصنوط المبدولة في اتجاهات مختلفة، كما في حزيران/يونيو 1956، تراوح النسل الرسمى للإعدامات مع التسلسل الرسمى للحرب، وكانت كل مرحلة في تمعين النزاع تترجم برفض طلب العفو في الدعاوى الحاربه. وفي سطر الحكومة كال النص باستوجب التشدد. غير أنه في 4 شاط/أبريل 1957 وقّع ثلاثة وزراء، روسير لوكوست وموريس موريس مونوري وفرانسوا ميران، قراراً بتسريع إجراءات دراسة طلب العفو.

واعتباراً من ذلك الوقت حدثت إدارة الدرك والقضاء العسكري في وزارة الدفاع، مرجعاً مركزياً لأراء الدوائر والولايات المعنية قبل



#### ملاحظات جبهة التحرير الفرنسية

كتلة مذكورة مجملة للمجلس الأعلى للقضاء وأحدث الإجراء الجديد تأثيراً كبيراً بالسبب للحالات السابقة وبفضل جهود الدوائر المختلفة. تمت المهل القضائية كثيراً رغم المدة المتصاعد للقضايا، ورد ذلك في تقرير وضع بعد سنة ونصف.

واستنتاجاً من نص هذا القرار، كانت سنة 1957 سنة اشتداد الحرب. وكذلك السنة التي أصبحت الإعدامات فيها الأكثر عدداً، ما يقرب من سنة حلال هذه السنة، وثمة حوالي أربعين إعداماً من كانون الثاني/يناير إلى أيار/مايو 1958

كانت الإعدامات تتم بقطع الرأس أو الرمي بالرصاص. حسب تقرير العقيد لونسور، الذي طرح تكاثرهما مشكلة تقنية: من ناحية التقنية، حصة إعدامات تشكل حداً أقصى للنظر فيها.

لكن الأقوال الأخيرة للمحكومين بالإعدام، وأغاني رفاقهم تحية لرحيلهم لم تكن مسموعة في فرنسا وفي العالم.

عندما عهد إلي مسؤولو جبهة التحرير الوطني في الجزائر، الدفاع عن فتاة ماضلة مهددة بالموت، وطلبوا مني كسر الصمت، وشككت هذه القضية منعطفاً جديداً

بدأ هذا المنعطف في تموز/يوليو 1957، حيث فرضت عقوبة الإعدام عند انتهاء المحاكمة المسماة «دعوى القاتل»، ضد حميلة بوحسرد وجميلة بوعزة وعبد الرحمن طالب وعبد المني قرشلي، كسؤولين عن اعتداءات مختلفة، وأحدثت محاكمتهم تأثيرها بسبب حضور تاتين، والاستراتيجية المقررة من قبل المحامي جاك فريرجس الذي وضع المحاكمة بالأحداث. وأدى الفارق بين العمل الإرهابي وصورة تاتين منهنتين إلى إثارة الفصول الصحافي.

#### جرائم الدولة

لم تتردد صحيفة «لوموند» في الكتابة أن الأمر يعني «القضية الأكثر أهمية» التي عرفتها المحكمة العسكرية في الجزائر. ونسبت الصحيفة لحملة بوجيرد وتأثيراً أخلاقياً جعلها روح الإرهاب. وناشر حالك فيرجس في حملها رمزاً لصحابا القمع، والقناة الشابة التي جرحت عند اعتقالها ثم تعرضت للتعذيب.

وتراقت التحولات، جامعة المحاكمة شبه مستجيبة. فعادر المحامون الباريسيون قاعة المحكمة، واستبدلوا بأخرين استُخدموا بدون طلب، وخصصوا من قبل المتهمين، ومن هنا كانت عودة السيدتين غونيرات وفيرجس تحت الشتام والتهديدات من مطلقين كانوا حاضرين في القاعة. «هل يصح هنا في محكمة عسكرية أم في اجتماع للقتل؟» قال حينذاك جاك فيرجس، مما كلفه تحذيراً من الرئيس روبرت. وفضلاً عن الأحداث، فقد أثرت حملة الصحافة الرئيسية من الجمهور: «تحت صحبات الاستهجان من قبل حوالي مئة من الأشخاص غادر المحامون الباريسيون القاعة». ونحت تأثير «الصحرات العدائية للجمهور المحتشد حول المحكمة» كان لا بد من حمايتهم من قبل الشرطة من أجل العودة إلى منازلهم.

وبعد الحكم على حملة بوجيرد بالإعدام، مثل كثيرين قبلها، كان لا بد من منع تنفيذ الإعدام، وعدم التصرف مثل المتدفعين الآخرين: طلب العفو للزبون استناداً لحجج لا تسيء لأحد، أما نحن فقد كان علينا ألا نطلب هذا العفو، بل أن ننتزعه في نهاية حملة توسط وطنية ودولية دون تنازل.

ملاحظات جبهة التحرير الفرنسي

من هذا التوسط، احتفظ بثلاث وفائع بارزة.

1 - بث فيلم حملة بوجيرد للمخرج المصري يوسف شاهين في الشرق كله.

2 - الرسالة التي وضعها لنا الجبال ديغول، بعد تلقي نص دفاعي الذي قدم له جورج أرنو، واختار ورثته نشر هذه الرسالة، وفي ما يلي نصها، كما وردت في مجموعته التي صدرت في منشورات بلون تحت عنوان، مدونات ودقات:

رسالة إلى السيد جورج أرنو وجاك ميريس، في 8 كانون الأول/ديسمبر 1957.

«أيها السيد»

أتوجه لكما بالقول أسي فرأت باهتمام وليس دون تأثر، كتابكما الصغير من أجل حملة بوجيرد

إنني أعلم - هل أشول بالتحريه؟ - أن كل مسألة فرنسية هي عالم من الأسس البشرية وغير مفيد إحتفاظها أو نشويها، في هذه النظرة على الأقل، لا يمكن لصراحتكما القيمة أن تدع أحداً دون مبالاة.

تفصلاً أيها السيد، بفرول شاعري الفصلى والمميز: جداً.

شارل ديغول

للك متي، أيها السيد ميريس، ذكرى وفيه

#### حزب الدولة

3 - وأخيراً تمّ انتزاع استبدال عقوبة الإعدام لجسيمة بوحيرد، من الرئيس كوتي، بالآلاف من الرسائل المرسلة من جميع زوايا الكرة الأرضية، من الشخصيات السياسية أو من عالم الثقافة والغابات والمنظمات السائية أو الشبابية من أوروبا وآسيا وأفريقيا أو من الأميركيتين.

أما في فرنسا فقد طرحت المشكلة مع فارق في الزمن، وكان القمع يسير في طريق التناقص.

ففي الأشهر الأولى لانطلاقة الصراع المسلح، كتب علي هارون، مسؤول للدفاع في الاتحاد الفرنسي لخدمة التحرير الوطني، وكان الماضلون المعتقلون بوجهون الداء إلى الدافعين التقليديين منهم من المحاربين الفرنسيين من اليسار واليسار المتطرف لكن موضوع دعاء هؤلاء المحاربين لم يكن يتوافق مع ما كانت تحدد المنظمة وكانوا يستفرون من الوقوف في خط المواقف التي يتخفيها دعم الكفاح من أجل استقلال الجزائر.

حينذاك رجعت في هذا الشأن إلى الحرب الشيوعية الفرنسي، وبدأت تتطور فكرة إنشاء هيئة دفاعية جماعية.

ولدت هذه الهيئة رسمياً في 19 نيسان/أبريل 1959، وكانت مؤلفة من محاربين حرازيين وفرنسيين، ثم ملحقين ومنذ نهاية 1959 صار بإمكان علي هارون وضع ميراثه لهذا الدفاع الجديد.

وفي نهاية هذه السنة 1959، نجحت هذه الهيئة الدفاعية المرتبطة بجهة التحرير الوطني في فرنسا في الإكثار من الحديث عنها. لكنها

#### محادثات جديّة لتحرير الفرنسي

أصبحت موضوعاً لتهمك الصحافة اليمنية وهي ما بعد ستصبح  
الوحش الذي يجب قتله. وظلّت ثلاثة في العمل باستمرار أمام  
المحاكم.

كان الاتهام يوجه للجزائريين بصفتهم فرنسيين حملوا  
السلّاح ضد فرنسا. وبالأمانة لواجنا فقد دافعنا كرملاء في نقابات  
المحامين في باريس وليون وغرونوبل ومرسيليا عن رباثنا على  
الأرض حتى يتم اختيارها من قبل الاتهام. وقد أظهرنا  
للمحكمة أنها لا تستطيع في أن معاً، الاعتراف لجيش التحرير  
الوطني بصفه جيش أجنبي في حالة حرب مع فرنسا، وأن ترفض  
لأعضاء هذا الجيش الجزائريين حنيتهم الجزائرية.

وكان على الدفاع أن يبرهن كذلك كيف وصلت القضية  
الرسمية على الصعيد القانوني إلى وحشية ملعونة بتناقضات  
أساسية:

- إما أن السجناء الجزائريين هم أشقياء، وينبغي بالتالي  
منحهم جميع الضمانات الشرعية الممنوحة لجميع الأشقياء،  
وبشكل متساو، حينذاك يصبح القمع مستحيلاً.

- وإما أن تطبق الحكومة الفرنسية على الجزائريين تشريعاً  
استثنائياً عنصرياً، لكنها بهذا ذاته، تنكر أن القضية عملية بسيطة  
للتشرطة موجهة ضد مواطنين، وتؤسس عليها صلاحية محاكمها.

#### حرائم الدولة

- وإما أن تعترف السلطة التنفيذية والبرلمان بوجود نزاع مسلح في الجزائر، وأن الجزائر ليست فرنسا، وعليهما بالتالي إبطال جميع النصوص الاستثنائية بدلاً من توسيمها، والاعتراف للسجناء الجزائريين بوضع المحاربين، بدلاً من معاملتهم بأقل من الحقوق العامة.

واعتبرنا غير مسؤولين في نظر زملائنا من اليسار واليسار المستطرف، وخونة متحولين إلى العدو في نظر زملائنا من اليمين الذايس كان هؤلاء وأولئك يطالبون بمقويات ضدنا - وكنا نعرض لضربات بعض المسؤولين والدوائر.

وجاء الرد مباشرة وقاسياً. ففي الواحد والعشرين من أيار/مايو، بعد شهر واحد من تأسيس الهيئة الجماعية، قتل عمقرا ولد عوديا من قبل الأجهزة الخاصة التابعة مباشرة لرئيس مجلس الوزراء. وكان منظم الضربة العقيد ريمون موني، قد ذكر، في كتاب صدر في عام 1994 تحت عنوان «حرب جبهة التحرير الوطني في فرنسا»، بصفتي التنفيذ كما يلي:

في الطابق الثالث مكتب رقم 180، والاسم على الباب: السيد عمرقان ولد عوديا، حمام... وفوق الباب أنسوية تقيء عندما يكون «الربو» هناك... وعلى سطح الدرج بيرت خلاء مفتوحة دائماً ولا شك في أنها محصنة لاستعمالات الطابق. ويمكن الاختباء فيها بسهولة، وتنفصل من داخلها... وباعد المحامي مكتبه ما بين 19.30 والعشرين ساعة.

#### محادثات جهة التحرير الرئيسي

ويكون سبب سبوت الخلاء نصف ممتدح، والأنسوية مضادة،  
والدمري هنا ويكفي انتظار خروجه شرط أن يكون وحده القاعدة  
شكليه لا شهود ولا شائنة وفي حالة وضع غير ملائم للخطة المقررة  
تؤجل العملية.

ويتنفس الرجل مهدوء عدة مرات لتنظيم التنفس وصرجات القلب  
ويخرج للتنشقة من تحت إبطه، ويدخل سائته اليمنى في أحد  
الثقوب ويعيد محفظة الوثائق وينتظر.

وتنطق الأنسوية، سيخادر المحامي مكتبه، ويصنع باه، ويكون  
وحده، إنه شائب، يرتدي بدلة وربطة عنق فائتي اللون ويشتم  
لحظف عندما تلتقي نظرتة بذلك المجهول على سطح الدرج المفتر.

كذلك يتشم هنري لاميير، ويقع تعديرات بصوت مخوق،  
ويطوي المحامي مكتبه، ويرتمي مستنداً إلى إطار الباب دون أدنى  
أسن.

ويترقب مطلق السار دون حراك، جميع الاتجاهات تحت  
المرصاد. وينظر إلى الجسد الذي لا حراك فيه، وفي العيسى  
المفتوحتين، ويضطرب من النظر إلى ضجينة، واختمت ابتسامة دون  
أن تظهر عليه هيئة القلق والألئناك. ويدون استحال يضع محفظة  
الوثائق بين فخذيته، وسحب معظمه المشمع وقلبه ويلسه من  
جديد. يبدأ الثوب كستائياً، مزوداً بحزام ويخرج من جيبة قلنسوة  
بضغها على رأسه ولا يصح نظارات على عينيه ولم تظهر المشعة  
غير المرتبة تحت المشمع المررر.

#### جرائم الدولة

وينزل الأدرج بخطوة عادية، ويدها في جيبه، مثل منزه لا شيء.  
يضغط عليه، وعصر ممر فيدو يصل إلى ملهى شارعى فارتيه وفيمين.  
ويتوقف هناك متظاهراً بأنه يتمشط، ويخطر حوله، ويحلس في  
المقهى الأساسي لسيارة رمادية مسجلة في سين - وار، كانت تمر  
بمحاذة الرصيف.

- كانت الساعة 40 د 19 تماماً ولاخط السائق الذي أبقى عينا  
على المرأة العاكسة خلفه رغم إنكابه على قيادته للسيارة  
وأمام صمت راكبه، انتهى إلى طرح السؤال:

- ماذا بعد؟

- ماذا بعد؟ كل شيء، حيد، المهمة تعطلت

.. واكتشفت البجة التي برحت دهما سطة، في اليوم التالي، السبت  
هي الساعة الثامنة من قبل حارس البناية حين كان يوزع البريد. ولم  
تكن السيدة دوريه تعلم شيئاً، ولم تكن قد رأت شيئاً، ولا سمعت  
شيئاً. وكانت الفصحى قد نلقت رصاصتين أطلقتا من قريب جداً.  
إحدهما هي الكتف الشمالي، والأخرى في صميم القلب ولم يزد  
تفتيش رجال المفوض بوفيه في المكتب، ولا زيارة مرل المحامي  
في شارع، مانورين - مورو 42، إلى الحصول على أي مؤشر.

واستنتج العقيد موبيل أن تجمع المحامين المؤيدين لجبهة  
التحرير الوطني - أوسيديك، وفيرحس، وبين عبد الله، وكرووحه،  
ويوسيار، وراذرفسكي، ورافسريان - أعلنوا أنهم نلقوا في 13  
أيار/مايو، رسائل تهديد بالموت، وكان ولد عوديا قد حصل على  
الرسالة نفسها مكتوبة بحرف طباعي، وبعد إيداعها لدى حارس قصر



#### محاكمات جبهة التحرير العربية

المعدل. وكانت تقول «إليك ستموت». وفي 26 أيار تلقى المحامون السبعة مرة أخرى رسالة مجهولة المصدر، ولم تكن تحتوي إلا على كلمتين: «أنت أيضاً». وكانت الرسائل مرقمة من 2 إلى 8.

لقد تلقيت الرسالة رقم 2 كان القاتل قد منح وساماً من حوقلة الشرف، ولم يجد الفصاة شيئاً، وكانت اعترافات العقيد مويل تخص جريمة مستفيدة من العفو العام.

وهي تقرير الإدارة العامة للأمن الوطني حول تجمع المحاميس «الهدف: إعلام فضائي متابع ضد الأستاذ فيرجس وآخرين»، في تاريخ 2 أيار/مايو 1960، الذي نقلته وزارة الداخلية إلى قاضي التحقيق المعني، يمكن قراءة التقييمات التالية:

إن الظروف التي يقوم فيها المدافعون عن المتهمين الجبهويين بمهامهم ليست «نقية» بالمعنى الاستقصائي للكلمة. والفاوق كبير بين الأساليب المتبعة في كل حالة، وخاصة السرعة والتميز، وبين أساليب الأستاذ فيرجس المتماثلة دائساً، والمستخدمة في عقيدة نسلورت بشكل متطابق مع غلط هام من الجوهر السياسي الذي ترسخت قواعده من قبل منظمة: نجيع المحامين. وكان اسم الأستاذ فيرجس قد ورد، كما أمكن أن يكون كذلك اسم الأستاذ أوسيديك، أو الأستاذ نسيان وإحدى السمات الخاصة لعمل هؤلاء المحامين كانت هي الواقع هي وحدة العمل (مهما كانت القضية المطروحة للحدول، وكانت الخطأ الدفاعية مستوحاة من المواضيع نفسها، وتحري المشاكلات حسب المسار ذاته، فيمكن القول العرف ذاته).

#### جرائم الدولة

وساهم كل ذلك في خلق «مناخ» محدد، وأظهر الانتماء المراد والمتنظم للمحاكمات.

مكثتوا يادون ويرددون حق الجرائر في الاستقلال، ويوجد أمة ودولة جزائريين، وعدم صلاحية المحاكم الفرنسية، وصعفة «المتاحيل» للمتهمين، وكانوا يبدلون الجهد، في كل مناسبة، في التشديد على المرامم المتناقضة القائمة بين سياسة رئيس الدولة وموقف القضاة، وإجراء المفاصلة بين المفاصلة الفرنسية والثورة الجزائرية. وتسم الإمساك بجميع الفرص الاتهامات بسوء الفية الموحية ضد السلطات الإدارية والإصلاحية للسجون التي «تفيد أداء» هيئات حتى الاتصال مع المعتقلين، واعتراضات النيابة العامة، ومضامعة طلبات تأجيل التفتيش، ومضادرة قاعات المحاكمة ومضامعة القامسي بلا قيد ولا شرط. في هذا الخصوص الحدثان الأكثر حداثة بالذكر هما المقلتان اللتان جرتا في كانون الثاني/يناير 1960 بين الأستاذين بن عبدالله وفيرجس مع معوض الحكومة المراد جوير.

وتحدث الأستاذ فيرجس المراد جوير في مناظرة وقدم له شاعديه الأستاذين غامبييه وكورييجيه

وفي شباط/فبراير 1959، كان الأستاذ فيرجس قد جذب الإنتباه خلال محاكمة منتهين بالاعتداء ضد السيد سوسيل وكان قد ألقى دفاعاً عريضاً اتهم فيه الحكومة بتعاير مشيرة للمقاومة بشكل خاص وقد كلفته أجادته تحذيراً من المحكمة الدائمة للقوى المسلحة في باريس.

#### محلّكات جبهة التحرير الوطني

من الديهي أن مثل هذه الوقائع لم تمر دون أن تنسب بظهور.  
مفالات متعددة في الصحافة وتعليقات مؤيدة ومعرضة. وقد تحققت  
الغاية المنشودة: حوصار الكلام بتناول ذلك.

وتشارك جماهير التجمع في هذه السياسة التورية بـ «إزاه الرأي  
العالم في السطد الأم، على الصعيد الوطني، كما على الصعيد الدولي.  
وتندرج بعض التصرفات التي يمكن أن تبدو صادرة عن مجرد  
السلمة اللغوية أو من حدة في الطبع، في الواقع عن وعي أو لاوعي،  
في خط متناسق، وفي الحكم على ذلك بغضابا جديدة، مثل قضية  
«شبكة دعم» عمالة تستهدف التهيئة العامة للأوساط المعنية، كل بما  
يخصه «على الصعيد الوطني» تصرف المحامون بالكلام وقلم.  
وكانت جميع الاجتماعات، والمظاهرات العامة حيث يمكن التعبير  
عن الآراء، تستخدم لطرح المشكلة وعرض مخطئها في الاتجاه  
المشود للجهة وهكذا جرى إلغاء القمص على الأستاذ مبرحي، في  
الربيع من شباط/فبراير عام 1958، ثم أطلق سراحه من قبل دوائر  
الشرطة عندما كان يظهر في شارع سان ميشال وفي المساء ذاته،  
تناول الكلام في نفس التعاون استنكاراً لأشكال نصف المحكمة  
العسكرية في الجزائر، وأشكال التفتيش غير الشرعية والتعذيب  
والاعتقالات التعسفية. كما أعلن في المناسبة ذاتها أن الجزائر  
متصبح مستقلة وأن الحكومة ستضطر للتفاوض «قبل أن يصبح  
مدفع ديان بيان مو مسموعاً».

وقد أظهرت بعض المنشورات الصادرة في الخارج من قبل  
محاميي التجمع التأييد لسياسة الحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية،

#### جرائم الدولة

والمتطلع إلى تحريك الرأي العام الدولي والفرنسي في أن معاً. وفي  
العاشر من آب/أغسطس 1959، وجه الأستاذان زانجيران وفيرجس إلى  
رئيس الصليب الأحمر الدولي ما اتفق على تسميته «السجل الأحمر»  
لحالات الاختفاء الذي نشر في العدد رقم 163 لمجلة «الأزمة»  
الحديثة. وكان هذا السجل لائحة بأسماء 150 شخصاً اختفوا من  
اعتقالهم في الجزائر وطالب المحامون تدخل هيئة الصليب الأحمر  
الدولية.

مثل هذه الكتابات التي كانت تضاف إلى مظاهرات أخرى عامة  
ومساحة مثل المحاضرة التي ألقاها الأستاذ ميرجس في بروكسل، لم  
تكن لتظهر دون أن تعطي نوعاً من الرضا عند داعليها. وهذا ما لم يكن  
أن يلتصق على مسر حنيف بشأن التقرير السابق ذكره وتصريح الأستاذ  
فيرجس في جنيف حين قال: «هذا الموقف المتطرف يرتبط بالطبع  
بوضع استثنائي لا يعطي المتهمين الجزائريين ضمانات الحق العام  
ولا ضمانات اتفاق جنيف». وفي مثل هذه الوقائع ما يشكل عذمة  
للضمير العالمي.

ومن المؤكد أن النشاط الميدول هكذا صار للناية على الصعيد  
الوطني. وقد شهدنا ذلك سواء أمام القضاء عند الاجتماعات أو  
المظاهرات العامة. أو في نشر المظاهرات أو الكتب، حيث كان أعضاء  
التجمع يريدون بكل الوسائل تقديم الحد الأقصى من الاعلان  
للقضايا التي يقاتلون عنها بهدف تمهيد الدعاية لجهة التحرير  
الوطني وجذب قسم من الرأي العام الفرنسي لصالحها.

#### ملاحظات خفية للتقرير الفرنسي

هوالسألة أن يُعرف ما إذا كان يمكن اعتبارهم مساعدين للمدانة أو للدين كانوا في صراع مع فرنسا.

وعندما طلب مني الإجابة على هذه الاتهامات للأعضاء الفرنسيين في تجمع المحامين، وبموافقة زملائي، وبصفتي بصيراً سابقاً لفرنسا الحرة، بعثت إلى السيد مونزين الرسالة التالية:

باريس، في 10 تموز/يوليو 1961.

السيد القاضي التحقيقي،

قلت لكم عند أول مثول في أمامكم أنني كنت سعيداً بأن أكون متهماً. فعندما يكون الشرف ومراييه لا يسيران في اتجاه واحد، يجب أن أعترف في الواقع كيف أفضل اجتماع أن أكون وزيراً ويعني اتهامي على الأقل أنني لست متواطئاً مع النظام الاستعماري الذي يسيطر اليوم على الجزائر، وفي أفريقيا الجنوبية وأنغولا، والذي هو في نظر شعوب أفريقيا طام عام قاتل.

إنني لا أحاول بالتالي أن أنتحب مسؤولياتي، بل على العكس أنني أقصد تحميلها بتبريعها بشكل أفضل وأكمل. إن زمن الوشاية المحدودة قد مضى. عندما كانت الجمهورية الرابعة لا تزال في الرابعة من العمر، كان المسؤولون فيها يتكبرون وجود التعديس، ولا شك في أنه كان من الضروري أن توضع جروح حميلة موحيدة تحت أبصارهم.

أنا ممنهين للقانون، وأحمل عبء السجنا من أجل حياتهم وحرمتهم وآلامهم، فلا أستطيع بالتالي البقاء دون تصرف. ولهذا

#### جرائم القذرية

السبب قُبرت منذ سنة مع بعض زملائي أن أراسل اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

ودعينا إلى حنيف وبقينا فيها شهراً مشغولين بإجراءاتنا. وقدمنا للصليب الأحمر لوائح لا نهاية لها من المحتجزين القتلى لدى قوات النظام الاستعماري، وعالوين دقيقة لفيور حمامية في مدينة الحرائر نعتسها، مدينة بالجنت والسجناء الذين أعدوا دون مراعاة لجميع الفواتير الدولية، وأبلغنا عن معسكرات التعذيب، مثل مزرعة أبيريان مي فسطاطية، وعرضا أسماء شهود من أجل لجنة تحقيق، وقد أوصحنا كيف كان قانون 16 آذار/مارس 1956، وقرار 8 تشرين الأول/أكتوبر 1958، ومرسوم 12 شباط/فبراير 1960، كلها كانت تلقي كل الضمانات العديدة للحرائرين وتسمح لسلطات العسكرية منظمهم وتدمير قراهم وتذيبهم، وحصر الحرائر في شبكة ضخمة من مراكز المرور والاستخبارات. وقد قرأنا على وجوه مملوينة الضيق والحجز مهل علينا أن نصلح؟ لم نتبع بذلك...

وكان التعريف المطلق في القانون رقم 10 تاريخ 20 كانون الأول/ديسمبر 1945، تحت توقيع الجيرال كولتر مسئلاً الجيرال كوسيج، لجرائم الحرب والحرائر ضد الإنسانية، لا يزال ملاناً للمرحلة الحالية

تلك هي الحرائر التي اتهم بها مسؤولو المصالحة في الجزائر، على أساس القانون الجزائري بين الدول الصادرة في يوم...

ويعود لك وحدك، أيتها السيد قاضي التحقيق، أن تعارض نشأته وأن تثبت ليس فقط أن العدالة الفرنسية ليست الذراع

#### محاكمات جبهة التحرير الوطني

العلماني للدولة كما زُعم، بل إنها تستطيع حماية القوايين والحريات الفردية. ومن أجل هذا، يكتفيك أن تستمع إلى الشهود الجزائريين الذين سميحهم لكم، بعد أن ثبت لي بأن ذلك لم يكن يعمل أمر من أي قاض.

ولما كانت الوثائق الواردة في كتيب نورديع من أجل الجزائر قد تأكدت من صحتها، أطلب إليكم أن تربطوا بين جميع تقارير لجنة الحماية والاستماع إلى الجنرالات ماسو وبولادير وألارد والمقيدين بجار ونينكيه، والراند روديه ومعزة المطاردة، والسادة لوكوست وبورجس موبوري وسوستيل، والوزيرين السابقين دوريه ومينليه، والوزيرس الحاليين، سول نينص. الرئيس العام السابق المكلف بغضابا الشرطة في محافظة مدينة الجزائر، واليد لا مبير المفتش العام الإداري السابق في منطقة وهران، قلدي هؤلاء جميعاً معرفة مباشرة بجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية المرتكبة ضد الجزائريين كما ضد عدد معين من الجنود السابقين أو الإصافيين، والسجناء الجزائريين، والسلطات الدينية والمحامين، وعندما يتم كل ذلك وتحدد مساحة الجريمة، أطلب إليكم الاستماع إلى جميع مسؤولي القمع وإصدار إثابة قضائية لفتح القبور الجماعية في الجزائر. في تلك اللحظة لا أشك في أنكم لن تسحبوني مع محاكمة ولن تصدروا عدة آلاف من مذكرات التوقيف ضد وزراء ووزراء سابقين وضباط قادة كار ومراكز عليا في النظام الإداري.

وفي 20 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1943، أعلن رينيه كاسين الممثل من قبل اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني للمشاركة في أعمال

#### جرائم الدولة

لجنة التحقيق حول جرائم الحرب، بعد أن دُكر بأن هذا العمل يتم بناء على مصادرة فرنسية، في الإداعة البريطانية: «إبني أتوجه إلى القاموتيس خاصة وإلى جميع الذين يسمعون كيف يتم التحقيق الجرمي. وإن ملفاً جيد الإعداد صدر رئيس في الشرطة السياسية لألمانيا النازية أو ضد قاتل صط، يكون ذا فعالية أكثر بكثير من علاقات غير محددة ومستهدفة كثيرين من الأشخاص».

لقد سمعت هذا النداء في معسكر لقوات فرنسا الحرة في إنكلترا، ولم أكن أعلم أن قاصياً سيلومي يوماً على غثافي أنياً له

جالت فرجيس

وبعد مقتل الأستاذ ولد عوديا، وأمام رد فعل أعضاء التجمع والتمسك كان من الصعب والحظر سياسياً متتابعة المحذرة فاختارت السلطات جعل عمل المحامين مستحيلاً. وفي 14 آب/أغسطس 1959، كنت قد أبعدت عن مدينة الجزائر بسبب قيامي بجمع ملف عن المختفين. وفي 20 كانون الأول/ديسمبر، كان دور ميشال زافيران القيام بالمهمة ذاتها. وفي كانون الأول/دائماً، جرى اعتقال الأستاذ شيانو العسو في مقابلة محامي مرسيليا، وحُكم بالسجن لمدة سبعة أشهر ونُظف اسمه من لائحة القادة بسبب البيل من أمن الدولة.

وفي شباط/فبراير 1960 جرى احتجاز الأستاذين أوسيديك ورسن عبد الله إستانداً إلى مجرد قرار إداري في معسكر سان



#### محاكمات جبهة التحرير الفلسطينية

موريس الأردوازي، وفي 23 حزيران/يوليو 1960 شجب الأستاذ نيكول رين أساليب الشرطة في سبيته. وفي 2 تموز حاول شخصان قتله. وفي 5 تموز رفضت المحكمة الدائمة للقوات المسلحة منح الأستاذ كوريجه حق الدفاع.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1960، أُلهم الأستاذة كوريجه، وزفيران، وبن عبد الله، وأوسديك، ويوفيار وأنا، بالتيل من أمن الدولة.

وقد شجب روبر باويتزر هذه المحاكمة بالمقالة التالية في صحيفة «الإكسبرس» بتاريخ 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1961.

هذا هو التالي للدفاع عن المتهمين وراء فصح الاتهام مثل الأستاذة فيرحس وكوريجه وزفيران ويوفيار وأوسديك وبن عبد الله، لأسباب عديدة، أمام محكمة الحق، في نهمة الليل من الأمن الداخلي للدولة فيبعد الزمان، حرت محاكمة المحاكم بدورهم، ونحت السهمه فانها. وهذا ما يبدو مخالف للعقل ارتباطاً أو متناً حسب قساعات كل فرد. لكن هذه المحاكمة، هي كل حال، جعلها متفاني القمع الحراري، لا بد منها. ومع ذلك، للأعضاء دقيقة جداً ويحدد الاتهام أن أنباء مناصرة دفعت لهؤلاء المحاكمين. من قبل من؟ من جهة التحرير الوطني، يجب الاتهام علواً بمسند مصر فسط عند نشر يومري المسؤول الاتحادي في لحة دعم معتقلي جبهة التحرير الوطني، ويجيب المحاكمون من قبل أصدقاء وأهل المعتقلين، ويستعقون حول هذه اللحظة مع يومري القار من فريس

#### جرائم الدولة

منذ ذلك الوقت، وفي كل حال، إن في مثل هذا الاتهام ما يفاجئ من حيث المبدأ. فما هو مصدر هذه الأتعايب المدفوعة إلى المحامين عن القضايا الجرمية هذا السؤال لم يطرح أبداً في السابق في تاريخ نقابة المحامين، لأن الدفاع في العديد من الحالات لم يكن أملاً إلا أن يختار بين المجانية أو التواطؤ، مما يؤدي في الواقع إلى رؤيته مفقراً.

ولا نملك في أن إدارة الأمن الوطني قدرت منذ البداية أن هذه الأرضية للصراع مع الدفاع عن المتهمين كانت ملفومة. لأن وثيقة بر معزى التي حصلت في كانون الأول/ديسمبر 1958، كانت قد دست في ملقائه انتظاراً لفرصة أفضل وهي شباط/فبراير 1960 بعد الحجر التعسفي للأستاذين س. عبد الله وأوسيديك، والذي انتعشت ضده نقابة المحامين كلها، غادر الأستاذان فيرجسي وكوريحيه إلى سويسرا وأدت تصريحاتهم للصحافة ومحامياتهم وكتاباتهم إلى تجديد حدة القبح ضدهم، وفتح تحقيق إشتاداً إلى وثيقة بومعزى المتوافقة مع تقرير عام لإدارة الأمن الوطني بنسحب وجود عمل «تجميع» محامين ومنهم في جهة التحرير الوطني، ولكي تكون مستدة إلى اعتبارات أمنية، لا ينفي أعياد الملف أقل ثلاثية، فكان يجب بالنالي جعل الملف مريحاً.

سيد أنه في بداية تشرين الأول/أكتوبر 1960، كان مدير إدارة الأمن الوطني بحر القاضي المحقق بأن وثيقة عاتقة لجهة التحرير الوطني وتكشف مشاطات «التجميع» قد حصلت في هولندا، خلال عمليات تفتيش نعدت عدد مزورين يزودون جهة التحرير الوطني

#### محاكمات، جبهة للتقدير الوطني

بأوراق هوية كان الدليل المطلوب إذن قد أعيد، وتكون وثيقة جبهة التحرير الوطني كاشفة بأفضل تعلق، لتنظيم ونشاطات «التجمع» كما كان يكتنفها تقرير إدارة الأمن الوطني.

ومع ذلك، فإن شكاً قريباً يتصب لدى التأمّل في وجه وأصل هذا المستند وعند التمعّن، فإنه يبدو كنسخة من نص صُرت على الأغة الكاتبة لترسل إلى وإخوة أعراء مجهولين. وتنفض الشروط الدافضة واللازمة للكشف، وحسب الاتهام فإن المستند صودر في المائس من حزيران/يونيو 1960 في منزل المدعو سامن، خلال تفتيش كان لا بد أن يؤدي إلى اعتقاله لكن سامن شمع يعلن أنه لم ير هذا المستند أبداً.

هكذا بإيجاد نسخة – لكاتب مجهول – موجهة لمرسل إليه غير معروف، وهي تتلوه غير معروفة، وهي تاريخ غير معروف، لدى شخص يدافع عى عنه بأنه لم يرها أبداً، هو الذي يقدم دليلاً استخدمته إدارة الأمن الوطني لدعم تقريرها الاتهامي ضد المحامين في «التجمع».

لكن حقيقة المحاكمة وممراتها ومرماها تندرج خارج الحدّ حول هذه النقاط الفعلية حيث ينشئ الاتهام دون شك إبطال الحدّ فيه. والمقصود في الواقع أكبر من الحصول على إثبات بعض المحامين بصفتهم أفراداً، بل تدمير هذا الدواع الجماعي غير المقبول في القمع الحراري. كما لو أن الأسلوب والإجراءات وحتى البيئة لهذا الدواع لم تكن موجهة بلا مقاومة من قبل النظام القمعي نفسه.

#### جرائم الدولة

إن القمع الجزائري، حتى عندما يفتسح عن الجهاز القضائي إطاره، وأنشكاه وحش قساته، يفصل بصورة تامة عن ممارسة القضاء.

ومن الطبيعي أن يكون الدفاع ضد مثل هذا القمع الذي لم يكن له من القضاء إلا المنظر والحد المسموح به، بحاجة لأسلوب جديد ومؤسسة إبداعية لا صلة لها مع الدفاع القضائي التقليدي الذي أصبح يمثل هذه التجارب عاجزاً وشبه مناف للمغل.

ولقي كل لحظة تُحوّل محاكمة رجل إلى محاكمة قضية قضية الاستقلال الجزائري. وتنتجور القضية إلى دعوى غير محدودة في الزمان والمكان، للرأي العام الدولي للإسراع بإنهاء القمع ضد جميع المتهمين عبر السلام العائد: تلك هي السبل الممكنة للدفاع الجماعي في وجه القمع الجزائري، الذي كان لا بد أن يُحوّل كل محام عن المتهمين المسلمين إلى محام عن جهة التحرير الوطني.

ومن المفارقة هنا أن يُرى القمع يفضّض مما يكون الدفاع قد خرج عن القواعد التقليدية للقضاء، وأن يكون هو نفسه قد أُلقيَ أو حُطّ من قدره. إن الطبيعة نفسها للقمع الجزائري كانت تسند في هذا الدفاع المستكر أو إلقاء كل دفاع

لكن محاولة ضرب المدافعين، بعد التعدي على حقوق الدفاع، لأنهم ردوا بتقنيات حديثة على مشروع قمعى عاجز للقضاء، هو أيضاً حروف للقضاء عن سله، واستخدامه في عمل سيء ولا شك في أن محامي «التحجج»، هي المسألة التي عبروها وعاشوها، قد قاموا بمهمتهم الاستثنائية التي تحملوها بحماسة كانت في بعض الأحيان

#### محاكمات جبهة التحرير العربي

صمة الاحتلال، في هذا الوقت من التدمير القضائي، ولكن، كما كتبوا «ليس للمحامي أن يأخذ موقف موكله من طرف الشفاء والاحتلاف خروما، بل عليه أن يأخذ لحسابه فداعه أو بصرف عنه» جميعهم قدموا الدعم حتى هذه اللحظة، وفي المقدمة الأستاذ ولد عوديا الذي دفع حياته ثمأ له، فلتذكر ذلك بأن الشجاعة تكون في بعض الأحيان الفصيطة الأولى التي يقتضيها الدفاع.

بين محاكمة جميلة بوحيرد في مدينة الجزائر في تموز/يوليو 1957، ومحاكمة شبكات الدعم لجبهة التحرير الوطني في باريس في أيلول/سبتمبر 1960، مصت ثلاث سنوات. ففي الجزائر في عام 1957، كان الدفاع يصارع وحده، وفي باريس في عام 1960، فرض «التجمع» قانونه مدعوماً بقطاع واسع من الرأي العام.

أما شبكة جانسون التي «هرت فرنسا» حسب صحيفة «لوموند»، وجمعت على مقعد المتهمين ستة جزائريين مسؤولين في جبهة التحرير الوطني، وسبعة عشر فرسياً أعضاء في شبكة دعم ملاحقة بسبب إعطاء مأوى للجزائريين تبحث عنهم الشرطة، ونقل أسواق وكتابة وتوزيع كتيبات ضد التجمع: منهم مدرسون وطلاب وموسيقيون ومثليون ومخرجون إذاعيون أو مجرد أجراء. وكان الموقف المبني للجزائريين معروفاً، أما محركات الفرنسيين فكانت مختلفة.

#### جرائم الدولة

وكانت اهتمامات الصحافة تقترب باتجاههم. وفي هذه الظروف كان للخطر أمام تجميع المحاميين في جبهة التحرير الوطني في رؤية استراتيجية الفتح مقلدة بالتبريرات الشخصية للفرنسيين. وهذا هو خط دفاعنا كما حمله جان مارك تيولي في «لوموند».

لكن قبل أن نتكهن من الإصغاء إلى المصن والمضن الآخر، يجب التزود بالسر في الواقع كان هناك أيضاً الجزائريون الأعضاء في جبهة التحرير الوطني، وإلى جانبهم الفريق المزعوب للأستاذ هيرجيس الذي قال: «بملازمة» نهج التمتع على الصعيد القضائي، تكون الجمهورية الخامسة نتاج، في الواقع الفرنسي - الجزائري، تقليد الجمهورية الرابعة - غرق القوانين الفرنسية والاتفاقات الدولية في الوقت نفسه. ويعود للدفاع والمحامين بصورة خاصة، إدارة امتاع هذه الوحوش القانونية من هنا الأهمية المميزة في هذه المحاكمات لمعركة الأحرار.

#### المعركة الإجرائية

خلال ثلاثة أيام، أظهرنا للمحكمة أنها لا تعرف شيئاً عن الوضع في الجزائر، وأنها كانت متحارة، وتجهل قانون الاستثناء والمفترض أنها تطبق.

#### محادثات جديدة لتحرير فرنسا

فقبل كل شيء، كان أحد المتهمين الجزائريين يؤكد أنه لا يفهم اللغة الفرنسية ولا العربية المحكمة في الجزائر، بل العربية الفصحى فقط. ورفضت المحكمة طلبه، لكنها قررت، في اليوم التالي، أن تكون المناقشات ليست مترجمة إلى العربية فقط، بل أيضاً إلى العربية الفصحى وحتى إلى لغة القبائل، الأمر الذي لم تكن قد طلبنا له ذلك. وانفجر الجمهور ضاحكاً أمام ارتباك القضاة، ودكّرهم الرئيس بالنظام قائلاً:

حين كان الدم يسيل على شواطئ الجزائر، وهي الجبال، لم تكن مقبولة محاولة السيل من الصعاء الذي لا بد أن بوجه محرق هذه المحاكمة.

ما أجب به على طلب الطعن:

إذا كنت تريد الكلام عن الحرب الجزائرية وما سببها، كان عليك أن تتذكر أيضاً أن 700 ألف شخص قتلوا مد عشر سنوات، وأن أطفالاً كثيرين ماتوا من الجوع في مخيمات النجعة، وأن معركة مدينة الجزائر أدت إلى اعتلاء ثلاثة آلاف شخص، وفي رأي السيد بول نينس، أن تسعة أعشارهم قد قتلوا. وكان عليك كذلك أن تتحدث عن أشكال التعذيب.

ورفضت المحكمة طلبي باستعادة قانون الإجراء الجزائري الذي يمنح الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف صلاحية وحيدة لمعرفة مثل هذا الطلب. وغداة اليوم التالي، قدمنا للرئيس ملاحظة

#### جرائم الدولة

أن قانون القضاء العسكري يعطيه الصلاحية، ويلزمه بالتالي بالإجابة على طلبنا. لكنه تنصّل من رأيه السابق، دون خجل، فاستلم طلبنا ورفضه. وبالطبع فقد تعرضنا للتقذ كما ستري في ما يلي:

تدقيق النظر في الدفاع، يمكن اعتباره ناجحاً ولا شك في أن القضية اتحمت الرأي العام. وأصبح جميع الدين يقرأون الصحف، وجميع الدين يستمعون إلى الإذاعات يعرفون أن هناك محاكمة لشبكة جاسوسون وكماوا يستظرون كل صباح أن يعرفوا شيئاً عن الأشكال الجديدة من الفصحح والأحداث، حتى ولو امتنارت سخطهم

وقررت أن أدق المسار.

أراد الدفاع منذ بداية جلسة المحاكمة، إظهار أن المحكمة تدخل في جدل لا يمكن أن يؤدي إلى أية نتيجة. نعم! لقد أنت هذا الدفاع بأنه كان قادراً على حوض جدل يتقدم هدفه لقد قدمنا وأردنا أن نقدم الدليل على لا مغفولة ما لا نستطيعون الحكم فيه لم يكن ذلك إلا نوعاً من المقيلات. لكننا نريد أن نبين لكم أننا لا نحشى العوض في العنق. فقد جرى توقيف جزائريين متهمين بإطاعة الحكومة الانتقالية للجمهورية الجزائرية، يعني لكونهم مقاومين. وإذا لم يكونوا يقومون بذلك، فهم جديرون بالاحتجاز

وتوسعت في استنتاجات جديدة من أجل دعم أن الاتهام الاحترازي - المادة 88 من القانون الجزائري الجديد - لا يمكن أن



#### ملاحظات ختمة التقرير الوطني

يكون من صلاحية المحكمة: البيل من سلامة الأراضي الوطنية أو الأراضي التي عليها السيادة الفرنسية، لا يمكن أن يتعلق بالجزائر. لماذا؟ لأن الجزائر ليست من بلدان الرابطة الفرنسية ولا من أراضي ما وراء البحار. فهل هي مقاطعة فرنسية؟ لكن هل يعطى لمقاطعة فرنسية حق تقرير مصيرها بذاتها كما كان يواجه الجنرال ديغول؟ فضلاً عن ذلك، لكي تكون مرتبطة بفرنسا مثل سافوا أويس، فلا بد من إقرار استفتاء شعبي. وكان التفكير المنطقي يترافق بتحذير: إذا كانت المحكمة تتجاوز ذلك، فإن الدفاع يجعل المحاكمة مستحيلة، فتتولى الأسر اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وكذلك اللجنة الدولية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة. لقد تجاوزت المحكمة. وفي صباح اليوم التالي، طلب مفوض الحكومة من المحكمة توقيفي لمدة سنة ووافقت المحكمة على إدارتي. لكن لما كنت قد أخذت الحيلة بكوني غائباً، استطعت تقديم الاعتراض والعودة بعد الظهر.

وجاءت فرصة مواجهة جديدة بعد ثماني وأربعين ساعة، لكننا رأينا فاضلين يشربان نخباً مع بيار سيدوس، القيادي في حركة أقصى اليمين «أمة فتية»، وطلبنا من المحكمة ردّها لرفض طلبنا. وغادرتنا حينها حاجز المحكمة، ولحق بنا المحامون غير الأعضاء في «التجمع». وفي اليوم التالي لم تحدث الصحافة إلا عن هذا الحادث، وبددت بالقاضيين والمحكمة في المناسبة ذاتها

#### جرائم الدولة

لوقيغارو، أُسف بالإجماع لحركة حدى الصايطين اللذين اضطرا  
للاستعاض عن كل موقف يعبر عن تعاطف شخصي أو إيديولوجي،  
لأن ذلك يعرض موضوعيتها للاتهام بصورة حتمية، ويكون هذا  
الخطأ موضوع مهمة المحاميين الذين قالوا في دفاعهم أن المحاكمة  
أصبحت مستعجلة

لصوروب: هذا هو العمل، وإبني مصطر للقول ولي الحق في ذلك،  
أن الدفاع كان مسبباً السارحة، والمحكمة حاطة. فمن الناحية  
القانونية، لا شيء يفسح للقاضي العسكري من التحدث، خارج  
الجلسات، مع كل من يلائمه، وعندما لا يأخذ مكاناً في مقصورة  
خلال مدة المحاكمة، وأخلاقياً تكون الرعونة واضحة وجسيمة وكان  
من المتوقع أن يدرك الرئيس هذا الوجه الأخلاقي لشأن معتبر وكان  
من السبب جداً الطعن في قاضيين واستندالهما على القور الواحد من  
سنة قضاة هم موجودون لهذا الأمر! وفي نظر الرأي العام تستعيد  
المحكمة قوة أخلاقية وكرامة، بحمد الدفاع نفسه أمامهما مفيد  
القدمين والذين والقم محيط خاصته.

المصرفة: المحاكمة في المأزق، لكن لصالح من؟ بالتأكيد ليس  
لصالح هذا القضاء الذي يفقد كل ثقة وكل كرامة.

وفي اليوم التالي، استندل القاضيان اللذان أُلِمَّ بهما «المرص». وظهرت سلطة المحكمة في ضعف كبير، بعد أن كانت شديدة  
التأرجح.

### الشهود

بعد هذه الأحداث الخيالية التي كانت تؤلف المغيلات، كان الجدل في العمق يمكن أن يبدأ بسماع شهودنا.

وطرحت على الأمين العام السابق لمحافظة مدينة الجزائر، بول تينغن السؤال التالي. عندما يقول أحدهم: «رأيت يعضب»، فهل تستطيع أن «تأتي بتكذيب له؟».

وجاء الجواب على الفور: «هذه الأوجه من الإفراط والتعذيب، كانت هي الأسباب التي من أجلها تركت مهماتي».

كما طرحت عليه سؤالاً آخر. وهل لديك علم بأن سجا ماتوا خلال استجواباتهم، في حين كانت حددت الإقامة لهم؟».

كان الجواب واضحاً أيضاً: «لسوء حظ بلدي وكرامته، آسف أن أعترف بأن حالات الاختفاء قد وصلت إلى معرفتي، وللتخلص من ذكريات متعبة لي للغاية، تمنيت أن تصيب القسوة نفسها الذين يلوونون كرامة وطني وشرف جيشه».

وبعد ذلك طلبنا الاستماع إلى بعض الموقعين على «بيان من أجل التمرد».

وأعلن كاتب (هدوء البحر) «يركورس»: «عندما يقاوم شعب الاضطهاد فكل الاحترام واجب له، وليس فقط الاحترام، بل كل المساعدة التي يمكن تقديمها له».

#### جرائم العرلة

ثم كانت رسالة جان بول سارتر:

جاء حاسون بلقاسي بصفتي ناشط في شبكة الدعم، ولهذا  
النشرة السرية التي كانت ناطقة باسمها، واستغله يعلم تام للسبب.  
والتيبت سه مرتين أو ثلاث مرات. لم يخف عليّ ما كان يقوم به،  
وأبدته بصورة تامة. ولا أعتقد أنه يوجد في هذا المجال مهمات نبيلة  
وأخرى مستقلة، وشاغلنا محصنة للثقتين وأخرى غير حديريين  
بعد. فأسائنة السوربون خلال المقاومة لم يترددوا في نقل الرسائل  
والقيام بالاتصالات ولو كان حاسون طلب مني نقل أمتعة أو تأمين  
مأوى لمصالحين جزائريين، لقمّت بها دون تردد.

#### صبيحات وشوشات

في هذه المعركة قدمنا الجرحان بليلة ووقاحة على أن  
المحكمة كانت تجهل الحق الذي كانت تدعي تطبيقه، وهوية  
الرجال والنساء الذين كانت تزعم محاكمتهم. وكانت صبيحات  
المتظاهرين أمام المحكمة أثناء مرورنا، وتصريحات العسكريين  
والمسؤولين السياسيين الساخطين من سلوكنا تثبت لنا أننا قد بلغنا  
هدفنا. جعل المحكمة سبياً. وكانت المغويات المطلوبة ضحايا نشأت  
صحة ممركتا.

وكان أحد الأعيان القبليين قد طلب من رئيس الوزراء أية  
إجراءات تعزم على اتخاذها، غير وقف مبتذل ومؤقت، ضد

#### محادثات جديدة لتحرير فرنسا

المدافعين، وعلى الأخص ضد الأستاذ فيرجس، الذين يسمحون لأنفسهم، في قاعة المحكمة العسكرية، بإلقاء كلام غير معقول بالنسبة لفرنسا كما بالنسبة للذين يفسحون بحياتهم بشجاعة ونكران للذات، في سبيل إعادة السلام إلى الجزائر؟، وكان ضباط الاحتياط في مركز الدراسات الدفاعية الوطنية ينددون بـ «الشاهد المعيبة التي توالت في محاكمة وشيكة جانسون» ووجه الدفاع خلالها إهانات تعتبر مسيئة لاستخدام حقوقه، ولا يمكن التسامح معها ضد فرنسا ورئيس الدولة والمقاومة.

كما كان اليسار الشديد التأثير يشعر بالإصابة. وأمام حاحر المحكمة عبرت السيدة حليلة عن استنكارها قبل أن تنسحب: «اليوم لا يهم الديموقراطيون والمتفقون والعمال أبداً ما يقال في هذه القاعة... الجميع حائسون متألمون ومضللون». وبعد ذهابها ردت عليها موكلتها بالحركة والكلام، ثم حدثت محامياً آخر من التجمع للدفاع عنها، الأستاذ بن عبد الله، وأعلنت: «لقد قيل أننا لم نكن متوافقين مع ما كان يجري في قاعة المحكمة. وقيل أننا كنا حائرين. حول هذه النقطة، إنكم تستطيعون أن تدركوا ألا شيء من هذا»

وهي الخارج ورّع الحزب الاشتراكي الموحد بياناً مرتبكاً لا شك في أن المتهمين طرخوا المشكلة بيس اليسار الفرنسي والوطنية الجزائرية في تمايز ليست هي تمايز الحزب الاشتراكي

#### جرائم الدولة

الموحد، لكنها لم تكن أقل تلازماً مع «الإشادة صريحة بشجاعة وتجرد الدين اختاروا شكلاً خطيراً للمعركة من أجل الكفاح ضد حرب الجزائر».

ومع الجدل الرئيسي، كانت الاحتجاجات أكثر عدداً وعمقاً فكان أنصار الجزائر الفرنسية يستندون إلى حجج الدفاع من أجل اتهام رئيس الدولة واعتباره منا، كما قال الجنرال سالان: «كيف استطاع الفرنسيون المتفقون والمتعاونون ظاهرياً أن يصلوا إلى درجة الوقوف ضد وطنهم إلى جانب أعداء صريحيين لفرنسا؟ وذلك لأن قناعاتهم السياسية بلا شك دعمتهم لاستنتاج الطابع غير المعقول والهدام وغير المفيد للحرب الجزائرية. أليس يقبل للمسلمين أن بإمكانهم اختيار ألا يكونوا فرنسيين؟»، أو كما قال جاك سوستيل: «لقد شدد أحد محامي «شبكة جاسود» على وجود تناقض صارخ بين نص الاتهام ضد زياته بسبب مساعدة المتمردين في المقاطعات الجزائرية والسياسة الرسمية التي تتقابل مع المقاطعات الجزائرية على أنها أراضي ذات انتماء غير مؤكد، ولا يمكن تحديد نظامها الأساسي إلا في المستقبل. فهل يمكن اتهام جزائريين بالمساس بأمن الدولة، في حين يقبل رئيس الدولة نفسه بأنهم يستطيعون اختيار الاستقلال؟ الحجة لها وزنها، ومن المؤسف أن يكون هذا الوزن قد أعطي لها بسياسة تلغي تعبير «الجزائر فرنسية» وتشكك بما كان قد وعد به رسمياً قبل سنتين».

## قرار الاتهام

ترسم أمامنا سلسلة من الأماكن العامة كان الرابط الوحيد بينها تفحيم ذهنية مستحود عليها من الدوار. فلنسحب عشوائياً بعض هذه الجواهر التي تستقبل بضحك البعض ونسقي البعض الآخر. وكان معوض الحكومة المبيد لوكيم قد بدأ بوضع احتلال الجزائر برعاية سان فينسنت بول. «عندما يدور الكلام عن مدينة الجزائر، كثيراً ما يُنسى أن السيد فينسنت، مرشد أشغال الملك، كان سجيناً لدى هؤلاء القراصنة، وأن هذا الرجل القديس كان قد شهد هذه الوقائع ووضعه هو نفسه خطة إترال لا بد أن تُستأنف في وقت لاحق».

أما الجزائر، فلم تكن موجودة قبل وصول العسكريين والمستوطنين، والذين ينكرون ذلك لم يكونوا إلا نازحي الجليل. «أن يسكر البعض جميل فرنسا التي أخرجتهم من العدم، شعور شائع لدينا أمثلة كثيرة عنه، لكننا شهدنا أيضاً رابطة المشاعر المتعارضة التعلق».

ويعيداً عس مقارنة هؤلاء الناكرين للجميل بالمقاومين، فإن مفروض الحكومة كان يقارنهم... بالاحتلبيين «فإذا أردنا التذكير بالاحتلال، كان هناك تطابق لا بد من القيام به، إنه تطابق مع النازية. كارثة البشرية بأسرها. ومن يستطيع الزعم بأن حجة

#### جرائم الدولة

التحرير الوطني هي الشعب الجزائري؟ وفي هذا كما في الآخر،  
حيث إن للبشرية بدلاً من توفير الدعم لها. ومن جهة أخرى، في ما  
يخص الأشخاص المزعومة لفسوة المعاملة من قبل الجيش، فإن  
بوسير قد كلمكم عن بعض ما رأه يُرتكب من قبل القوة الأمنية.  
(الدرك) ومن ينتمون منكم إلى هذه القوة يعرفون الدقة التي  
يراقب بها المسؤولون فيها التابعين لهم، وأن الأمر يتعلق سلاح لا  
شيء فيه ما يلام عليه

#### تصريحات المتهمين

كانت المحكمة الساحة الحرة التي كان يمكن لموكلنا  
ونشهودهم التعبير عن رأيهم فيها. فهذا مسؤول فرع جهة التحرير  
الوطني في فرنسا حذاد حمادة يقول:

«أيها السيد الرئيس، لا أستطيع أن أمتنع عن القول لكم، نحن  
الجزائريين الذين تألمنا ولا رنا تألم دائماً، أن محاكمة الاستعمار  
بالنسبة لنا، لم تعد فاعلة. وجهة التحرير الوطني حركة تحرير،  
وتجمع وطني كبير. لسا عضريين ولا شوفيتيين، وأقل من ذلك  
أنا لسا متعصبين. وليس لدينا حقد على الشعب الفرنسي، وأحيي  
بصورة أخوية الذين هم إلى جانبنا. ولن نسي أبداً ما قاموا به  
عندما تصبح الجزائر مستقلة، تلك هي الذكرى التي يحملها وليس  
حقد مفسطهدينا، وإن شجاعتهم اليوم ستكون الرهان لصداقة  
أعتنا هؤلاء الرواد».



فرانس بيتار:

«إنني أتحمّل كلياً مسؤولية ما قمت به، وبحضوري أمامكم،  
ذئني أتابع كفاحي».

هبلين كونا:

«يقال أننا نطلق النار على الشباب الفرنسي في ظهره، تلك  
هي حجة أخلاقية فكرتنا فيها طويلاً لكنها تبدو لنا سهلة جداً».

جيرار ميير:

«رفض الاعتراف برؤية وجه فرنسا في عمل الجيش هو ما  
كان يخلق لدينا احترام هذا الوجه. ونحن فخورون به وبما كنا  
نقوم به. وبأمل أن يقوم به آخرون».

جان كلود بوير، مستعيداً أشكال التعذيب المستخدمة أمام  
عينه:

«الذين كانوا يقومون بذلك، كانوا يرتدون لباسك الموحد،  
وهو لباسي، ونحن كلها مسؤولون عنه. لقد ساعدت الجزائريين.  
وأنا فخور بذلك، هذا كل ما في الأمر».

ميشلين بروتو:

«أهيا الأستاذ، مهمتي أن أعلم ليس التقنية فقط، بل علم  
الأخلاق لفئة فرنسيين وأن أرسخ في أذهانهم بعض المبادئ

#### جرائم الدولة

ويبين هذه المبادئ التي هي كرامة فريسة احترام الإنسان، وحق الشعوب في إدارة شؤونها، وأشعر أنني لم أخرق معهومي للوطن بأي شيء».

وكان آخرون يدافعون بنواضع أكثر عن التهور أو المشاعر الطيبة لكنهم لم يحافظوا أبداً بجعل المحاكمة تتأرجح في التوازن. وكان الأستاذ ملومل أحد المدافعين قد حدد دوره بشرف: «بصفتي محامياً وفي ما يخصني، ليست مهمتي هنا الدفاع عن سياسة معينة، بل تأمين الدفاع عن كائنين شرعيين، السيد ريسبال وزوجته.. أحدهما معتقل والآخر حر بشكل مؤقت ومهمتي أن أحلل أفعالكم أفعالهما ودوافعهما الخاصة بكل منهما عندما يحين الوقت لأعبر عن رأيي. في هذه الظروف ليست مهمتي تقييم نظام الدفاع عن متهمين آخرين، ولا لتأييدهم أو التكرار لهم.

#### الدفاع

عندما عجزت المحكمة عن إسكاننا اضطرت للإصغاء إلينا. وكانت جميع الحجج المتبادلة خلال المناقشات والشهادات والمجاهرة بالمبادئ قد استؤنف البحث فيها دون أي التزام. ومنحتني زملائي شرف الدفاع الأخير من أجل درس أخير للأموور. ففتمت به على طريقي أمام فضاء شديدي الإثبات

#### محاكمات جبهة التحرير الوطني

عندما تسود الشرطة، لا يبقى هناك قضاء، لم أرحه إهانة لأحد. كنت ألاحظ كما يعيدون لا شك، عن العدالة المطلقة كما كنا نعيدون عس المحاكمة التي كان الاتهام يحلم بها قبل دورة الأمم المتحدة، وقيل محاكمة لاغايارو، وقيل محاكمة خونة فرسيس من متعجين مع قتلة حمة التحرير الوطني. في صورة جميلة لـ «إبنا» على أرضية من ألوان الكاكي والأزرق البحري والأحمر والأسود للكيسة واليابا! والسان جورج رويلى محدلاً تيس المدره.

لم يبق من ذلك شيئاً وتكون الحقيقة أحلام الأمير، فهي كذلك من التمرديس الحرارييس. ولم يكن القضاء وحدهم الذين أصبحوا بالحية، كما أصيب الثوب الوطني لمصلحة ميديا ومستشاروها.

فحسب هذه الصحف، كانت المحاكمة حملة تنكزية ومعرضاً واجتماعاً موضوعياً إنها كانت متهورة وغير مألوفة ومدعلة ومعية، حتى أن صحيفة «ريغارول» وصفها بأنها دعى متحركة، دون أن تلقى احتجاجاً من بعض الحكومة.

وسمع ذلك، فإن هذه المأهات لم تثر الضحك لدى أي واحد من مراقبيها، فكانوا يصرون أكثر ما كانت المحاكمة هزلية، وكانوا أكثر جدية، لأنهم أدركوا أنهم هم موضع السخرية، وأن المحاكمة لم تكن إلا تمكلاً لمجس النظام. وعندما كان الشاهد يستق الأمر يقول كل الحقيقة - بشكل متوافق مع العمل الذي قام به - كان الرئيس يحذر من هذه المحاولة. ويستدرك قائلاً: «لنشي للحقيقة». ولعلمه أنها محاولة تخيرية، كان ينصح باستخدامها بمثابة أسلحة المتهمين والشهود أنها محاولة تمخيرية، كما يصح باستخدامها بمثابة أسلحة

#### درعكم الدولة

المتهمون والشهود والمدافعون، فكنا نعرفهم، لكننا لم نتوقف عن هرها حتى تنفجر. كان هذا هو الوجه الثاني للمحاكمة.

وكان الوجه الأول يكامله اشتغالا بها، عبر عنمة الإجراء ومربق الأحداث وبعد عشرة أيام، قدمت لنا هذه الحقيقة: خلال يومين جميع الشهود وعلى رأسهم جان بول سارتر، أحراراً في التعبير عن آرائهم. وهكذا أعيد الوجه الثالث للمحاكمة. وحلله أصبح السؤال مطروحا على الدلائل بما أن هذه هي الحقيقة، فما هو الواجب حيال حرب الجزائر؟ لم يكن من الواجب طرح السؤال، لكنه صار مطروحا وهذا هو انتصار الدفاع. فكان يكفي قراءة الحرية الرسمية لمعرفة أين هي المرأة والفتان: بين المتواطئين في السلطة، وليس في درلة المتهمين.

وتفترض المحاكمة السياسية أن تستعد حقيقة المحكمة مسبقاً فكيف الحكم، في الواقع إذا سلما مع السيد باليس بأن الجزائريين هم جزائريون ومع السيد ميشليه بأن الحرب الجزائرية هي كذلك حرب أهلية بين الفرنسيين؟ المحاكمة تصبح مستحيلة. ويصبح الجزائريون سجناء حرب، وينتفد اعتبار الفرنسيين غونة ليصبحوا مجرد أحصاء. هذا الرفض للحقيقة السياسية هو الذي يرغم الدفاع بالمعركة الإحرائية. هذا هو التوليد العربي للأفكار. الذي يحث استخدامه لكي يظهر وضع غير معقول للجميع على أنه لا معقولة قانونية.

فهبل يمكن اتهام جزائريين بالسبل من أمن الدولة بينما يتبل ونسب الدولة نفسه أن ماستطاعتهم اختيار الاستغلال؟. كان هذا هو

#### ملاحظات جبهة التحرير الوطني

السؤال الأول الذي طرحه الدفاع ويوافق اليوم الجميع على أن هذا التناقض موجود، ويقبل السيد سوسنيل أن الحاجة لها وزره ويعترف السيد غريبال مارسيل، في لوموند، بأن جميع الحجج المتقدمة في الدفة اللغوية التي يمكن بواسطتها الخروج من هذا المأرق لا تفتح أحداً، ونسب القضاء العسكري رأي الجنرال سالان بأنه ليس من صلاحية أحد - بمن فيهم الجنرال ديغول - أن يقرر التخلي عن قطعة أرض تمارس عليها سيادة فرنسا خاصة في ما يخص الجزائر ولا بنحو القضاء العسكري من التناقض الذي أشرنا إليه طالما أنه لم يتم ملاحقات ضد رئيس الحوالة نفسه بسبب التبل من أمن هذه الدولة.

ولم يكن موقف المحكمة من شهادة الورداء غير ما كان موقفها من أحداث الجبال ديغول فكانت تدمرهم تلقائياً، وهم لم يفعلوا احتجاجاً وكانوا يعرفون أن الأحداث ومحافظات المواطنين الأحرار هي اليوم فاعداية ضد النظام العام، فقبل ثلاث سنوات، أكد السيد ميشليه إدموند، أنه كانت هناك حرب في الجزائر وأن الذين كانوا يساعدون جبهة التحرير الوطني قد أخذوا موقفاً يستلزم كثيراً من الشجاعة والبطولة أما اليوم، فإن الوزير إدموند ميشليه مكلف نظام السجن الإصلاحي للطلال جيان كلود موير.

وكان السيد مالرو يُدريه قد ذكر أيضاً واعتذر، وكتب أنه لم يكن يعرف أحداً بين المتهمين، كان هذا غير صحيح، إنه كان يعرف جانتون لكنه كان يقسم أنه لم يره أبداً.

#### جرائم الدولة

كما زعمت طلبتنا بالاستماع إلى أعضا أطران العقيد المدعو بطريقة استثنائية «الدماغ الخالي» للجنرال ماسو. بعد حصول الدفاع على وثائق سرية، أراد إثبات التعذيب والإعدامات بدون محاكمة قبل طلب توقيفه في جلسة المحاكمة بسبب دجرائم حرسه. وحفاظاً على كرامة الجيش، اعتر من المستحيل سماعه. وبعطاً على كرامة الجيش، وافقت المحكمة العسكرية.

هذا البحث في الوسائل القانونية للتعبير عن الحقيقة لا يرون لكثيرين. وقد عبر السادة الجنرال الاحتياطي راؤول سالان والجنرال الصاعل كريبس، والوزير الاحتياطي جاك سوسنيل، والوزير المعامل لويس تيرينوار، كل بدوره عن المخطط ذاته. أما الإدارة الإصلاحية من جهتها فقد كانت تسمح من وقت لآخر بقيام مجموعة من المواطنين بوضع زعور في أسفل جدار قاعة المحكمة قبل تهديد الجمهور. ومن أجل مراقبة أفضل، كان ممثل لوزير الداخلية يحل في الوقت ذاته مع القضاة بنما يجلس مود رئيس مجلس الوزراء بين الحرم من أجل مراقبة أفضل للمحكمة.

أما المعارضة اليسارية فلم تكن في نفس الحالة من التعرّية والإهمال. فعلى الأسئلة التي كانت تطرحها الثورة الجزائرية، من الشغور والمساعدة لحصة التحرير الوطني، كانت تنفي ألا يحجب الدفاع بجميع سيكولوجية. ففكرة «الحياة» لا تطلق، وكان عليها، في كل مرة البحث عن تفسير خاص لهذه الحياة، أقل خطورة من التفسير السياسي. وكان يحب الإلحاح على الحياة الخاصة للمتهمين كما هي حالة جريمة عاطفية، وإدانة ماضيهم من أجل تنظيم مثلهم العليا السياسية التي كانت تخيف النظام.

#### محاكمات جبهة التحرير الوطني

هكذا كانت مناقشات الإحرامات المتبعة تثير غدا الصبر لأهم كانوا يؤخرون الاستحواب الذي كان ينبغي الأمل لأن واحيات المتهمين كانت سياسية صرفة.

سيد أنه على عكس ما أمكن دعاؤه من قبل البعض لم تكن من المناقشات شكلية صرفة أو غير مرتبطة بالعمق. فعندما طلب إليها حميسي مترجماً بالعربية الفصحى، كان يقدم الدليل على أنه اعتباراً من لحظة عدم معرفة أية لغة صحيحة يتكلم بها «فرسي مسلم»، كان يراهن كثيراً ألا يكون هذا «المسلم» فرسياً حقيقياً وعندما كان يوبخ بطلب وجود طيار بين فضائه، كان كذلك يقدم الدليل على أن الحرم الذي ينهم به ذو علاقة بعيدة مع قانون القضاء العسكري. ووفر ذلك فرصة للتذكير مرة أخرى بدور الطيران الجزائري، الأمر الذي كان يكره المقدم كلوسنر سان والمقيد جبول روي وعلال هذه المناقشات الإجرائية، لمب الدفاع بالتالي دور المولد. والآن وحش، ونحن لسنا أباء.

«تست هذه المحاكمة المحيية أنه لا يمكن أن يُكتفى بحرفية القانون عندما ينبغي محاكمة جريمة سياسية، وإلا فيمكن الوصول إلى «وصح مستحيل» هذا ما لاحظته غورينع الحزين عشية محاكمة حريق المجلس التشريعي الألماني وتؤدي اليوم محاكمة شكة جاسون إلى الاستباحات ذاتها وما أدركه غورينع بعد ذلك، هو أنه كان يمكن تغيير القانون، وعقد جلسة مغلقة، والقضام بتوقيف المحاميين.

#### حزبهم للدولة

نستخدم هذا الإجراء، يحصل الدفاع المحاكمة مستحيلة إذا استمر استبعاد شهوده، وأرادت المحكمة، بعد عشرة أيام، الاستماع إليهم ونسيان أن حضورهم كان قد اعترى مهياً من قبل معوض الحكومة. وكان يحق لهم قول كل شيء، عن الحرب الجزائرية، وعن التمرد والمساعدة لجهة التحرير الوطني. وهكذا تصدع المفهوم الأصلي للمحاكمة المحصورة في لسانها الجزائري.

هأت غائبة؟ كيف يمكن أن يكون المرد غائبة؟ لا شك في أنك أرفقت على الألف كثيراً؟ لا شك في أنك يهودية؟ وهل كان والدك شيوخياً؟ وهل كنت تحبين جزائرياً؟ وهل حصلت على المال؟، هذا هو الإطار الذي تظايرت شظاياه.

لقد أرغم معوض الحكومة معه على دراسة التاريخ والسياسة، وهي التجربة النجسة. فمن جهة التاريخ الذي انتهى إليه السيد شارل أندريه جريس، ظل عد نصيرات السيطرة على مدينة الجزائر التي وصمها المدافعون عن إعادة الملكية، ورفضها جميع المؤرخين الجديين، إبه طوى الوقائع والنصوص تحت أسمكاته المسقة أما من جهة السياسة، فإن تفسيراته كانت أكثر جلاء ضد جبهة التحرير الوطني: ففي طئه أن الجيش الفرنسي كان يقدم للسكان المدنيين الملجأ وفي مستقلاته. وحيال هذه الطرة المخالفة للتاريخ تسمح المحاكمة بالتفاعل مع حقيقة أخرى، هي أن حرب الجزائر ليست اليوم شأن الجزائريين وحدهم، بل حرب كل أفريقيا. هذا ما ننبته الرسالة الموسومة إلى المحكمة من قبل اللجنة التتيدية لانتجاد طلاب أفريقيا السوداء في فرنسا إثر اجتماع لرؤساء فرعها المكروس بشكل



#### محاكمات جبهة التحرير الوطني

عاصر لمحاكمة الشبكة التي يمثل فيها طلاب جمهوريات أفريقيا الوسطى والكاميرون والكونغو ونشاد والتيجو وتوغو وداهومي ومالي ونيجيريا وكلمت اللجنة التنفيذية لاتحاد طلاب أفريقيا السوداء في فرنسا مطالب من بالبحاح تصميم هذا القرار لكي ويعلم الشعب الفرنسي أن شباب أفريقيا سيستمررون حتى النصر النهائي للشعب الجزائري.

هكذا فقد عدت الجزائر، كما قال صديقي أوسيديك، بنك الدم لأفريقيا كلها. وبسببها انهارت الرابطة الفرنسية، وولد الاستقلال لجمهوريات جديدة، ولا يجهل ذلك أحد من تاناناريف إلى دكار.

عن هذه المقاومة لشعب يكامله التي مثلت طليعة الثورة الأفريقية، كسر بول تينغن، في مناسبة هذه المحاكمة، صمت ثلاث سنوات، ووصف رد المسؤولين عن إعادة السلام بقوله «التكتم والنهز من المسؤولية لا يمكن إلا أن يؤدي إلى جرائم الحرب» هذه المعاملات السيئة وأشكال التعذيب المماثلة لما عرف عما قامت به الشرطة السياسية النازية قبل سبعة عشر عاماً وقد أقسم أن أرفأدا ماتوا خلال حالات الاستجواب وتحت التعذيب. وقد أوضح أن الأمر لم يكن بسبب هذا المسؤول أو نالك الذي كان يوجه عمليات الاستجواب، بل من الوحدات العسكرية الكاملة حيث لم يكن المستهون محتجزين في نطاق القضاء المدني أو العسكري، ولا حتى في أماكن معروفة من السلطات الإدارية، كانوا في كل مكان ولا في أي مكان. فلم يتم منصوص الحكومة بأعمال التعذيب ضد السيد تينغن لأنه كان يعرف أن تلك كانت هي الحقيقة.

#### مراتب الدولة

ومنذ سنة ألباشا في الدفاتر المخصصة، عن ثلاث مغاير جماعية في مدينة الجزائر وتسلطية وسينيف، حيث كانت الجيوش لا تزال وطرية، وكانت هذه الدفاتر قد أوكلت إلى رئيس الدولة، ورئيس لجنة الإغاثة، وإلى وزير العدل ولم يجب أحد إلا رئيس لجنة الإغاثة الذي اعترف بجزءه عن القيام بشيء.

كانت هذه هي الدعوى الأولى التي يتوقف فيها الإبلاغ عن تناول حالات معزولة ليصبح غير ممكن دفعه في النظام الذي لم يتوقف أبداً على عكس تأكيدات السيد مالرو.

وعند توقيف المتوردين، قبل ذلك سنة أشهر، أرفقهم اليسار كله، مدينياً أفعالهم كأعمال غيائية، أو على أحسن حال كشهادات على الناس الفردي ودون تعد سياسي. وبفضل المحاكمة استطاعوا في النهاية طرح مشكلة التمرد كشكل من الكفاح ضد الحرب الجزائرية ولا يستطيع بوير ولا مير الادعاء بأن الأمر يمس الشكل الوحيد للمسار المتصور بين أيدي الشباب. ويستطيع التأكيد فقط بأنه الحل الوحيد الممكن أمام سلبية اليسار.

ذلك أن اليسار مثل السيد تينين، فهو يراقب ولا يذهب إلى أحد من المرافقة ويكون إحلال السلام متعارفاً مع احترام الشخصية الإنسانية وسع الديموقراطية وعندما كان السادة لاكوت وماكس لوجون ويوجيس موسوزي يختارون التعذيب وكان يظهرون قدراً أقل من التعاطف لكن أكثر من المتظن من السير نيتي، دون البحث عن تصالح ممكن بين مصلحة الحرائر الفرنسية والديموقراطية. وفي هذه الحرب وحدهما مير ومالرو كانا متطابقين لأنهما تمتعا بالصراحة

#### محاكمات، جبهة التحرير الفرنسية

النشأة هي موقوفهما. وهنا أيضاً موقوف كان اليسار يدينه قبل ثلاثة أشهر، على أنه نوع من التحدي أو الحياة. اليوم فقد كسر المتهمون تعصيراتهم جدار الصمت والشجب حولهم ولم يظلوا معزولين. فقد أعلن 121 متقفاً أنهم يحترمون سلوك الفرنسيين باسم الشعب الفرنسي، ويحترون ذلك السلوك مبرراً. ويقدّر ما كان فعل هذا الشاء كان أيضاً فعل نداء 36 عاملاً من عمال مركز الفرز في شارع شارون. ولا يعني ذلك الفور بإعجاب المحكمة فالمتهمون «المدنيون» يعرفون أنهم سيحصلون على الحد الأدنى. وقد قاموا بكل شيء من أجل ذلك، وأمام قضية ليسوا أكثر من أنهم رجال ولا يعني بالنسبة لهم دعوة اليسار كله المدول عن جميع الطرق الشرعية والانضمام إلى الشككات، مما يعني أن المشكلة قد حُلّت. فبيني إجماع فهم فعلت «شككة الدعوى» فقط، لجعل الضام مع جبهة التحرير الوطني فعلاً سياسياً نظامياً معها. ويعمد هذا التصامم الاتهام وضيق الخلق «مواطنين» ويعتبره المتهمون تحالفاً، يعني تضامناً فاعلاً ومعترفاً به.

هكذا فقد أضافوا على اجتماعهم في مقر المتهمين مساء الحقبني وهي التحول من فعل الصلدة إلى إلغاء الأثر الأسي، أصبح رمز اللقاء بعد ست سنوات من الفصل بين الشبيبة الفرنسية والبراشرية. وتيسر حروب البيانات حتى غلال جلسة المحاكمة وعضب الحزالات والقرارات الحكومية الحديثة، بوضوح أن هذا المعنى للمحاكمة لم يفعل عنه أحد هي دوائر السلطة، وبحجة أقوى في الجامعات والمصانع. وهذا ما كان يحلق لدى المتهمين نظرتهم المتأائلة

#### درائم الدولة

واعتبرت المحكمة مراعاتي «اعتداء على النظام العام» ومنعت «أخذها في الاعتبار تحت أي شكل كان» لكنها كانت مضطرة للاستماع إليها. وقد نشرت بعد ذلك برمن قصير في مطبوعات ماسبيرو في صيغة تفكير حول المحاكمة ولم يكن قد بقي أمام المحكمة إلا التداول وبلورة قرار كان الجميع يتحكم عليه. وكنا نعلم جيداً أن استقلال الجزائر والسلام باتا قريبين. وقد ساعدنا فيهما من موقعنا ولو بالقليل.

## فهرس

مدخل . - 5

### القسم الأول

#### جرائم الدولة

الفصل الأول - أيدهم جميعاً . - 17

الفصل الثاني - هنود القوهجر السلاف . - 47

الفصل الثالث - سيريال بورو - الجنرال أوسارس 79

### القسم الثاني

#### الملهة القضائية

##### العدالة المموهة

الفصل الأول - فرسان الهيكل . - 111

الفصل الثاني - المستحرد عليهن في لودون 141

### القسم الثالث

#### الملهة القضائية

##### العدالة المكشوفة: دعوى القطع

الفصل الأول - دعوى تديس المقدسات 179

الفصل الثاني - محاكمات جبهة التحرير الوطني . - 209

عريغات للشر والطباعة 2004/1063

**Jacques VERGÈS**

**LES CRIMES D'ÉTAT**  
**La Comédie Judiciaire**

Traduction Arabe  
**Hussein HAIDAR**

**EDITIONS OUEIDAT**  
**Beyrouth - Liban**



يدهشنا جاك فرجيس بنظرته الفريدة، الخالية من الوهم، ورؤيته المتحولة بجماليتها وفائدتها لمن هم على ملتقى منطقتين متناقضتين: منطق الدولة ومنطق الفرد. ففي الكونقو البلجيكي، يأخذنا مع جوزف كونراد إلى قلب ظلمات الاستعمار، ومع وزير التسليح في حكومة هتلر، ألبير سبير يطلعنا على عمق القرار الجهنمي للرايخ الثالث، ومع الجنرال أوساريس والجلاد المحترف دبليو يعرض لنا اليوميات المعاشة للجلادين الاعتياديين.

يمكن لجريمة الدولة، وهي الأمر الثابت عبر التاريخ، أن تأخذ المسار المتحرف للهالة القضاء، في دعاوى موجهة لتكون طعماً للشعب المتعطش لرؤية المبادئ القضائية حيث يتدافع الجمهور لمشاهدة أفعال الإعدام.

يعود جاك فرجيس إلى ما هو الأكثر شهرة من هذه المشاهد المرعبة من محاكمة فرسان الهيكل في عهد فيليب لويل، أول الملوك الملاعين، ثم يحدثنا عن مشهد قضائي كبير آخر في التاريخ الوطني، في محاكمة لويس السادس عشر، كمشهد مدنس للمقدسات ومؤسس للجمهورية. ويأخذنا أخيراً، بأسلوب لكل مقام مقال، إلى كواليس محاكمات جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي هزت فرنسا وشكلت أحد العوامل الأكثر إثارة للذكرى.

جاك فرجيس هو الآن محام لصدام حسين، واشتهر بالأمس في الدفاع عن رئيس الاستغال عبد الله واد، كما اليوم عن رئيس يوغسلافيا السابق سلوبودان ميلوزويفيتش، وعن الجنائلي المتواضع عمر رداد ...

